بسم الله الرحمن الرحيم



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء العشرون


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
الأنفال ٨ / ٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وعميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

الجزء العشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٧
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان ـ بيروت ـ ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، ص . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٢٩) تلكس : FIKR 44316 LE

تتمة قصة لوط عليه السلام

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات اللغوية :

﴿ آل لوط ﴾ أهله . ﴿ يتطهرون ﴾ ينزهون أنفسهم عن أفعالنا . ﴿ قدرناها من الغابرين ﴾ قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب . ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أنزلنا عليهم حجارة السجيل ، فأهلكتهم . ﴿ فساء ﴾ بئس . ﴿ مطر المنذرين ﴾ أي بئس المطر مطرهم ، وهم المنذرون بالعذاب .

التفسير والبيان :

هذه تتمة قصة لوط عليه السلام مع قومه ، تتضمن جوابهم عن إنذاره : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ أي لقد أعلن القوم إصرارهم على تعاطيهم الفاحشة المنكرة ، وأجابوا لوطاً عليه السلام بعد التشاور فيما بينهم : أخرجوا لوطاً وأهله ومن معه من بلدتنا ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، ونرتاح من وعظهم وإرشادهم ، فإن البلدة بلدتنا ، ولوط وجماعته قوم أغراب عنا .

وسبب هذا الإخراج أو الإبعاد :

﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ أي إنهم يتحرجون من أفعالنا ، ولا يقروننا على

صنيعنا ، وهذا صنيع الفساق في كل زمان ، لا يريدون تعكير فسادهم بكلام المصلحين ، ليبقوا منغمسين في الرذيلة دون منغص أو معترض .

فلما عزموا على إخراج لوط وأهله من بلدتهم دمّر الله عليهم ، وللكافرين الفاسقين أمثالها ، وأنجى الله المؤمنين الصالحين ، قال تعالى :

﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي نجينا لوطاً ومن آمن معه برسالته من أهله ، أما امرأته التي كانت راضية بأفعالهم القبيحة ، ومتواطئة معهم ، فتدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، فإنا حكمنا بجعلها من الباقين في العذاب ؛ لأن من رضي بالمنكر وإن لم يفعله فهو مقرٌ به ، فله جزاء الفاعلين .

﴿ فأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذَرين ﴾ أي وأنزلنا عليهم حجارة من سجيل وهو الحاصب ، فأبادهم وخسف بهم الأرض ، فبئس المطر مطر المنذَرين بالعذاب الذين قامت عليهم الحجة ، ووصلهم الإنذار الإلهي ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهمُّوا بإخراجه من قريتهم ، وتلك هي عاقبة الفاسقين .

فقه الحياة أو الأحكام :

اقتضت عدالة الله تعالى ألا يعذب قوماً إلا بعد إنذار ، وألا يعجل لهم العقاب إلا بعد نصح وإرشاد وإمهال . وهذا ما فعله نبي الله لوط عليه السلام مع قومه أهل سدوم ، فإنه وبخهم وأنكر عليهم بشدة فعلتهم القبيحة الشنيعة التي يعلمون أنها فاحشة ، وذلك أعظم تجريماً وأكبر إثماً ومعصية ، ويقال : إنهم كانوا يتعاطون هذه الفاحشة جهاراً نهاراً ، ولا يستترون من بعضهم بعضاً ، عتواً منهم وتمرداً .

ثم صرح لوط عليه السلام بذكر تلك الفعلة الشنيعة ، وأعلنها لفرط قبحها

وسوئها ، ووصفهم بأنهم جاهلون أمر التحريم أو العقوبة ، والآن يُعلمهم بشدة الحرمة ، وينذرهم بقبح العقاب وألم العذاب .

لكن القوم أمعنوا في ضلالهم ، وازدادوا غياً في فسقهم ، وأصروا على معصيتهم ، وتآمروا فيما بينهم على طرد لوط وأهله من قريتهم ، قائلين على سبيل الاستهزاء منهم : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ يتنزهون عن أدبار الرجال .

فكان مقتضى الرحمة الإلهية أن ينجي الله لوطاً وأهله الذين آمنوا برسالته ، وتورعوا من التدنس برجس هؤلاء العصاة الفساق ، إلا أمرأته التي كانت راضية بأفعال قومها القبيحة ، أضحت باقية معهم في العذاب .

وكان من مقتضى العدل أن يجازي الله هؤلاء المصرين على العصيان وارتكاب الفاحشة ، والذين أنذروا بالعقاب فلم يقبلوا الإنذار ، فأنزل الله عليهم من السماء حجارة من سجيل منضود ، مسوَّمة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، فأهلكوا جميعاً ، وما أسوأ ذلك المصير المشؤوم !!

أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

آللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

الإعراب :

﴿ آلله خير .. ﴾ مبتدأ وخبر ، والأظهر ـ كما قال ابن الأنباري ـ أن كلمة ﴿ خير ﴾ هنا للمفاضلة ، فإنه وإن لم يكن في آلهتهم خير ، فهو بناء على اعتقادهم ، فإنهم كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً . ﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ بدل من ﴿ أمّن خلق السموات والأرض ﴾ .

﴿ قليلاً ماتذكّرون ﴾ ﴿ ما ﴾ صلة زائدة ، ﴿ قليلاً ﴾ صفة مصدر مقدر ، أي تذكراً قليلاً يذكرون ، والمراد به النفي ، مثل : قل ما يأتيني ، أي لا يأتيني .

البلاغة :

﴿ آلله خير أمّا يشركون ﴾ استفهام يقصد به التبكيت والتهكم .

﴿ بين يدي رحمته ﴾ استعارة ، أي أمام نزول المطر ، استعار اليدين للأمام .

﴿ يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ بينهما طباق .

﴿ قراراً ﴾ ﴿ أنهاراً ﴾ ﴿ يشركون ﴾ ﴿ يعدلون ﴾ ﴿ يعلمون ﴾ ﴿ تذكرون ﴾ فيها مراعاة الفواصل ، الذي هو من محاسن الكلام .

المفردات اللغوية :

﴿ قل ﴾ أيها الرسول . ﴿ الحمد لله ﴾ على هلاك الكفار الفجار من الأمم الخالية . ﴿ اصطفى ﴾ اختار ، والأنبياء هم المصطفون المختارون . ﴿ خير ﴾ لمن يعبده . ﴿ أمّا يشركون ﴾ أصله أم ما يشركون ، فأدغم الميان ببعضهما ، وهم أهل مكة الذين يشركون بالله تعالى آلهة أخرى ، أي هل شركهم خير لهم ؟ وهو تهكم بهم وتسفيه لرأيهم ؛ إذ من المعلوم ألا خير أصلاً فيما أشركوه ، حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير وهو الله . ﴿ أمّن ﴾ أي بل أمن . ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع . ﴿ وأنزل لكم ﴾ لأجلكم . ﴿ فأنبتنا ﴾ فيه

التفات من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع لا يقدر عليه غيره تعالى ، لذا قال : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي لعدم قدرتكم عليه .

﴿ حدائق ﴾ بساتين مسورة ، جمع حديقة . ﴿ ذات بهجة ﴾ حسن ورونق . ﴿ شجرها ﴾ شجر الحدائق . ﴿ أإله مع الله ﴾ أغيره يقرن به ويجعل له شريكاً ، وهو المتفرد بالخلق والتكوين ؟ ﴿ يَعْدِلون ﴾ يميلون أو ينحرفون عن الحق الذي هو التوحيد ، فيشركون بالله غيره .

﴿ قراراً ﴾ مكاناً يستقر عليه الإنسان ، فلا يميد بأهله . ﴿ خلالها ﴾ وسطها ، وبين جهاتها المختلفة ، جمع خَلَل : أي وسط . ﴿ رواسي ﴾ جبالاً ثوابت ، ثبّت بها الأرض . ﴿ بين البحرين ﴾ بين العذب والمالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر . ﴿ حاجزاً ﴾ فاصلاً بين الشيئين . ﴿ لا يعلمون ﴾ الحق ، وهو التوحيد ، فيشركون به .

﴿ المضطر ﴾ الذي أحوجته الشدة إلى اللجوء والضراعة إلى الله ، واللام فيه للجنس ، لا للاستغراق ، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر . ﴿ ويكشف السوء ﴾ أي يرفع السوء عنه وعن غيره . ﴿ خلفاء الأرض ﴾ خلفاء فيها ، بأن ورّثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم ، من الخلافة : وهي الملك والتسلط ، والإضافة بمعنى في ، أي يخلف كل قرن القرن الذي قبله . ﴿ أإله مع الله ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامّة والخاصة . ﴿ قليلاً ماتذكّرون ﴾ تتعظون ، و﴿ ما ﴾ زائدة لتقليل القليل ، والمراد به العدم أو الحقارة التي لا فائدة منها .

﴿ أمن يهديكم ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم . ﴿ في ظلمات البر والبحر ﴾ بالنجوم ليلاً ، وبعلامات الأرض نهاراً . والظلمات : ظلمات الليالي ، أضافها إلى البر والبحر للملابسة . ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي أمام المطر . ﴿ عما يشركون ﴾ به غيره ، فهو تعالى القادر الخالق ، المنزه عن مشاركة العاجز المخلوق . ﴿ يبدأ الخلق ﴾ بداية خلق الإنسان الأول من التراب ، وبدء خلق سلالة الإنسان في الأرحام من نطفة . ﴿ ثم يعيده ﴾ بعد الموت . والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالبراهين عليها . ﴿ من السماء ﴾ بالمطر . ﴿ والأرض ﴾ بالنبات . ﴿ أإله مع الله ﴾ يفعل ذلك ؟ الحق أنه لا يفعل شيئاً مما ذكر إلا الله ، ولا إله معه . ﴿ برهانكم ﴾ حجتكم على أن غيره يقدر على شيء من ذلك . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في إشراككم ، فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصص أربعة أنبياء مع أقوامهم ، وإهلاكهم بسبب شركهم ووثنيتهم ، والإدلال على كمال قدرته ونصر رسله على أعدائهم ، أمر

رسوله ﷺ بحمد الله تعالى على تلك النعمة ، والسلام على الأنبياء كافة ، لأدائهم واجب التبليغ لرسالة ربهم على أكمل وجه ، ثم رد على عبدة الأوثان ببيان الأدلة المختلفة على وحدانيته وتفرده بالخلق ، وقدرته ، وإخلاص العبادة له .

التفسير والبيان :

﴿ قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ يأمر الله رسوله ﷺ بحمد الله وشكره على نعمه على عباده التي لا تُعدّ ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلا والأسماء الحسنى ، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لتبليغ رسالته ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه . وأما كون الخطاب لنبينا محمد ﷺ فلأن القرآن منزل عليه ، وكل ما فيه فهو مخاطب به ﷺ إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره .

ومن تلك النعم نجاة رسله ونصرتهم وتأييدهم ، وإهلاك أعدائه .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ سبحانَ ربِّك ربِّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين ﴾ [الصافات ٣٧/١٨٠ـ١٨٢] .

وهذا تعليم لنا بأن نحمد الله تعالى على جميع أفعاله ، ونسلّم على عباده المصطفين الأخيار .

﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ أي هل الله الذي يتصف بالعظمة والقدرة التامة خير أم ما يشركون به من الأصنام ؟ وهذا استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى ، وتبكيت لهم ، وتهكم بحالهم ؛ لإيثارهم عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى . والمقصود به التنبيه على نهاية ضلالهم وجهلهم ، علماً بأنه لا خير أصلاً فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وإنما كانت الموازنة بحسب اعتقادهم وجود منفعة في آلهتهم المزعومة .

وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » .

ثم انتقل من التوبيخ والتبكيت إجمالاً إلى الرد المفصل على عبدة الأوثان ببيان الأدلة على أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، قادر على كل شيء ؛ لأنه الخالق لأصول النعم وفروعها ، فكيف تصح عبادة ما لا منفعة منه أصلاً ؟ وتلك الأدلة أنواع :

أ ـ ما يتعلق بالسموات : ﴿ أمَّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ أي أعبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة من خلق السموات في ارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من كواكب نيِّرة ونجوم زاهرة وأفلاك دائرة ، وخلق الأرض الصالحة للحياة الهادئة ، وجعل فيها الجبال والسهول ، والأنهار والوديان ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار ، والحيوانات المختلفة الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لأجل عباده من السماء مطراً جعله رزقاً لهم ، فأنبت به بساتين ذات بهجة ونضارة ، وشكل حسن ومنظر بهي ، ولولاه ما حصل الإنبات ، ولم تكونوا تقدرون على إنبات الأشجار والزروع .

فهو المنفرد بالخلق والرزق ، فهل يصح بعدئذ وجود إله مع الله يعبد ؟ كما قال تعالى : ﴿ وما كان معه من إله ﴾ [المؤمنون ٢٣/٩١] .

بل هؤلاء المشركون قوم يميلون عن الحق إلى الباطل ، وينحرفون عن جادة الصواب ، فيجعلون لله عِدْلاً ونظيراً .

ونظير الآية كثير مثل : ﴿ أفمن يخلُق كمن لا يَخْلُقُ ، أفلا تَذكَّرون ﴾ [النحل ١٦/١٧] ﴿ ولئن سألتَهم من خلَقهم ليقولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف ٤٣/٨٧] ونحو

﴿ ولئن سألتهم من نَزَّل من السماء ماءً ، فأحيا به الأرضَ بعد موتها ، ليقولُنَّ اللهُ ﴾ [العنكبوت ٦٣/٢٩] .

هذا .. وقد ذكر الزمخشري الفرق بين أم في ﴿ أمّن ﴾ وأم في ﴿ أما يشركون ﴾ وهو أن ﴿ أما ﴾ متصلة ؛ لأن المعنى أيها خير ، وفي ﴿ أمن ﴾ منقطعة بمعنى « بل » .

٢ ـ ما يتعلق بالأرض : ﴿ أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي أعبادة الأوثان العديمة النفع والضرر خير أم عبادة الذي جعل الأرض مستقراً للإنسان وغيره ، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة لسقاية الإنسان والحيوان والنبات ، وجعل فيها جبالاً ثوابت شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ، وجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً ، أي مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بذاك ، لتبقى الغاية من التفرقة بينهما متحققة ، فإن الماء العذب الزلال لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار ، والماء المالح في البحار ليكون مصدراً للأمطار ، وليبقى الهواء فوقه نقياً صافياً لا يفسد بالرائحة الكريهة التي تحدث عادة في تجمعات المياه العذبة .

أيوجد إله مع الله فعل هذا وأبدع هذه الكائنات ؟! بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فيتبعونه ، ولا يعرفون قدر عظمة الإله المستحق للعبادة .

ونظير الجزء الأول من الآية : ﴿ اللهُ الذي جَعَل لكم الأرضَ قراراً والسماء بناء ﴾ [غافر ٦٤/٤٠] ونظير آية حاجز البحرين : ﴿ وهو الذي مَرَج البحرين ، هذا عذبٌ فرات ، وهذا مِلْح أُجَاجٌ ، وجَعَل بينهما برزخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ [الفرقان ٥٣/٢٥] .

٣ ـ ما يتعلق عموماً باحتياج الخلق إلى الله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطَّرَ إذا دعاه ، ويَكْشِفُ السوءَ ، ويجعلُكم خلفاءَ الأرضِ ، أإلـهٌ مع الله ، قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾ أي أتلك الآلهة الجمادات الصماء خير أم من يجيب المضطر إذا دعاه وهو الذي أحوجه المرض أو الفقر أو المحنة إلى التضرع إلى الله تعالى ، ويرفع عنه السوء أو الضرر الذي أصابه من فقر أو مرض أو خوف أو غيره ، ويجعلكم ورثة من قَبْلكم من الأمم في سكنى الأرض والديار والتصرف فيها ، فيخلف قرناً لقرن وخَلَفاً لسلف ، كما قال : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرضِ ورَفَعَ بعضكم فوق بعضٍ درجات ﴾ [الأنعام ١٦٥/٦] .

أيعقل وجود إله مع الله بعد هذا ؟ وهل يقدر أحد على ذلك غير الله المتفرد بهذه الأفعال ؟ ولكن ما أقل تذكركم نعم الله عليكم ، ومن يرشدكم إلى الحق ويهديكم إلى الصراط المستقيم .

٤ ـ ما يتصل باحتياج الخلق إلى الله تعالى في وقت خاص : ﴿ أمّن يهديكم في ظُلُمات البرّ والبحر ، ومن يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يدي رحمته ، أإلـهٌ مع الله ، تعالى اللهُ عما يُشركون ﴾ أي أتلك الآلهة التائهة خير أم من يرشدكم في أثناء الظلمات البرية أو البحرية إذا ضللتم الطريق بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿ وعلاماتٍ وبالنجمِ هم يَهْتدون ﴾ [النحل ١٦/١٦] وقال سبحانه : ﴿ وهو الذي جعل لكم النُّجومَ لتهتدوا بها في ظُلُمات البرّ والبحر ﴾ [الأنعام ٩٧/٦] .

ومن يرسل الرياح مبشرات أمام نزول الغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها ، أيكون هناك إله مع الله فعل هذا ؟ تنزه الله المتفرد بالألوهية المتصف بصفات الكمال عن شرك المشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر ؟!

٥ ـ ماله صلة بإبداع الخلق والحشر والنشر : ﴿ أمن يبدأ الخَلْق ثم يُعيده ،

ومن يَرْزُقُكم من السماء والأرضِ ، أإلـهٌ مـع الله ، قـل : هـاتوا برهـانكم إن كنتم صادقين ﴾ أي أتلك الآلهة العاجزة خير ، أم الذي بقدرته وسلطـانه يبـدأ الخَلْق من غير مثال سبق ، ثم يميته ، ثم يعيده إلى الحيـاة الأولى مرة أخرى ، كما قـال تعالى : ﴿ إنـه هو يُبـدئ ويُعيـد ﴾ [البروج ١٣/٨٥] وقـال : ﴿ وهو الـذي يَبْـدَأُ الخَلْقَ ثم يُعيده ، وهو أهْونُ عليه ﴾ [الروم ٢٧/٣٠] وهو الذي يرزقكم بمـا يُنَزِّل من السماء من أمطار ، وبما ينبت من بركات الأرض .

أيـوجـد إلـه آخر فعـل هـذا مـع الله حتى يتخـذ شريكاً لـه ؟ قـل لهم أيهـا الرسول : قـدّمـوا برهـانكم على صحـة مـا تـدّعـون من عبـادة آلهـة أخرى إن كنتم صادقين في ذلك مع أنفسكم ومع غيركم . والواقع أنـه لا حجـة لهم ولا برهـان يقبلـه عاقل ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر لا بُرْهانَ له به ، فإنما حسابُـه عند ربّه ، إنه لا يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [المؤمنون ١١٧/٢٣] .

قال أبو حيان : ناسب ختم كل استفهام بما تقـدمـه ، فلمـا ذكر العـالم العلوي والسفلي وما امتنّ به من إنزال المطر وإنبات الحدائق ، ختمه بقولـه : ﴿ بل هم قومٌ يَعْدِلون ﴾ أي عن عبادته أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق ، فلا يعبـد إلا موجـد العالم ، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار وإرساء الجبال ، وكان ذلـك تنبيهاً على ضرورة تعقـل ذلـك والتفكر فيـه ، ختمـه بقـولـه : ﴿ بـل أكثرُهم لا يَعْلَمون ﴾ . ولما ذكر إجابة دعاء المضطر وكشف السوء واستخلافهم في الأرض ختمه بقولـه : ﴿ قليلاً مـا تَـذَكّرون ﴾ إشـارة إلى توالي النسيـان إذا صـار في خير وزال اضطراره ، ولمـا ذكر الهدايـة في الظلمـات وإرسـال الريـاح مبشرات ، ومعبـوداتهم لا تهـدي وهم يشركـون بهـا ، ختمـه بقـولـه : ﴿ تعـالى الله عما يُشركون ﴾ . واعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله : ﴿ أإلـه مع الله ﴾ على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى[1] .

(١) البحر المحيط : ٩١/٧

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت هذه الآيات الأدلة على إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته الشاملة ، وتتلخص هذه الأدلة بالخلق والإيجاد ، والتفرد في دفع الضرر ، وجلب النفع والخير ، والقدرة على الحشر والنشر ، ويتجلى ذلك فيما يأتي :

١ ـ إهلاك كفار الأمم الخالية جميعاً لإصرارهم على الشرك والوثنية وارتكابهم كبائر المعاصي وعظائم الفواحش .

وقوله : ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ تعليم وإرشاد إلى حمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية الذين زرعوا الشرك والمعصية في ديارهم ، مما يجب التخلص منهم ، وفي هذا عبرة وعظة .

ويؤخذ من ذلك الاستفتاح بالتحميد لله والسلام على الأنبياء والمصطفين من عباده ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ جيلاً عن جيل هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ في فواتح الأمور المفيدة وفي المواعظ والخطب .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ آللهُ خير أما يُشركون ﴾ تبكيت للمشركين وتوبيخ وتهكم على حالهم وضلالهم ، لإيثارهم عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى .

٣ ـ الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، ومنزل المطر ، ومنبت الشجر والزرع والثمر في الحدائق الغنّاء ذات الأنواع والأشكال والألوان المختلفة ، والمناظر الجميلة الرائعة الحسن والبهاء ، فيكون قطعاً هو المستحق للعبادة دون غيره ؛ لأنه لا يتهيأ للبشر ولا لغيرهم ولا يتيسر لهم ولا يمكنهم أن يخلقوا شيئاً مما ذكر ، فهم عَجَزة عن مثل ذلك .

٤ ـ قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ :

يستدل به لقول مجاهد على منع تصوير أي شيء ، سواء أكان لـه روح أم لم يكن . ويعضده مـا رواه مسلم في صحيحـه من حـديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قـال : « قـال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقـاً كخلقي ، فليخلقـوا ذَرّة ، أو ليخلقوا حبّة ، أو ليخلقوا شعيرة » .

وذهب الجمهور إلى أن تصوير ماليس فيـه روح يجوز ، كما يجوز الاكتسـاب به ؛ أخرج مسلم أيضاً أن ابن عباس قال للذي سـألـه أن يصنع الصور : إن كنت لا بد فاعلاً ، فاصنع الشجر وما لا نفس له .

٥ ـ الله عز وجل هو الذي جعل كرة الأرض اليابسة صالحة للحياة ، بجعلها قارّة سـاكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ، وزودها بالهواء الـذي لا تمكن الحيـاة بـدونـه ، وجعـل فيهـا الأنهـار للسقي ، والجبـال الثـوابت لتمسكهـا وتمنعهـا من الحركة ، وجعل بين البحرين : العذب والمـالح مـانعـاً من قـدرتـه ، لئلا يختلـط الأجاج بالعذب .

إذا ثبت أنـه لا يقـدر على هـذا غير الله ، فلِمَ يعبـد المشركـون مـا لا يضر ولا ينفع ؟ ولكن أكثرهم يجهلون الله ، فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية .

٦ ـ الله تعالى وحده مصدر الرحمة الذي يدفع الضرر ، فيجيب دعـاء المضطر (وهو ذو الضرورة المجهود) ويكشف السوء (الضر) ويجعل الناس خلفاء الأرض أي سكانهـا جيلاً بعـد جيل ، فيموت قوم وينشئ الله آخرين ، أمع الله ويلكم أيهـا الناس إله ؟ ولكنكم تتذكرون تـذكراً قليلاً نعم الله عليكم ، والمراد نفي التـذكر ، والقلة تستعمل في معنى النفي .

وهذا دليل على أن الله تعالى ضمن إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسـه ؛ لأن التضرع إليـه ينشـأ عن الإخـلاص ، وعـدم تعلـق القلب بسـواه ، وللإخلاص عنده سبحانـه موقع وذمّـة ، سواء وجـد من مؤمن أو كافر ، طـائع أو

فاجر ، كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفُلْك ، وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طيبةٍ ، وفَرِحُوا بها ، جاءتها ريحٌ عاصفٌ ، وجاءهم الموجُ من كل مكانٍ ، وظنُّوا أنهم أُحيط بهم ، دَعَوُا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [يونس ٢٢/١٠] وقوله : ﴿ فلما نجَّاهم إلى البرّ إذا هم يُشركون ﴾ [العنكبوت ٦٥/٢٩] أي أن الله تعالى أجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم ، وقال تعالى : ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْك ، دَعَوُا الله مخلصين له الدِّين ﴾ [العنكبوت ٦٥/٢٩] .

وفي الحديث الصحيح : « ثلاث دَعَوات مستجابات ، لا شكَّ فيهن : دعوةُ المظلوم ، ودعوةُ المسافر ، ودعوةُ الوالدِ على وَلَده » وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما وجّهه إلى أرض اليمن : « واتقِ دعوةَ المظلوم ، فليس بينها وبين الله حجابٌ » .

٧ ـ الله تعالى وحده مصدر الخير والنفع ، فهو الذي يرشد الطريق في ظلمات البر والبحر حال السفر إلى البلاد البعيدة ، وهو الذي يرسل الرياح مبشرات قدام المطر ، فهل يوجد إله مع الله يفعل ذلك ويعينه عليه ؟ تنزه الله عما يشرك به المشركون من دونه .

٨ ـ الله الذي يقرُّ المشركون أنه الخالق الرازق هو الذي يعيد الخلق يوم القيامة إلى الحياة الجديدة ؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق فهو قادر حتماً على الإعادة ، وهو أهون عليه ، أيوجد إله مع الله يخلق ويرزق ويبدئ الخلق ويعيده ؟ فيا أيها المشركون مع الله إلهاً آخر ، قدّموا حجتكم أن لي شريكاً ، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله ، إن كنتم صادقين مع أنفسكم في ادعاء أن له شريكاً .

لا يعلم الغيب إلا الله

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

الإعراب :

﴿ الغيب إلا الله ﴾ ﴿ الله ﴾ : بدل مرفوع من « مَنْ » لأنه استثناء من منفي .

﴿ بل ادّارك ﴾ أي تتابع ، وأصله « تدارك » فأبدل من التاء دالاً ، وأدغم الدال في الدال . وقرئ « ادّرك » أي تناهى علمهم وكمل في أمر الآخرة .

﴿ في الآخرة ﴾ ﴿ في ﴾ بمعنى الباء ، والمضاف محذوف ، أي بل ادّرك علمهم بحدوث الآخرة ، ﴿ بل هم في شك منها ﴾ أي من حدوثها .

﴿ عمون ﴾ أصله « عميون » فاستثقلت الضمة على الياء ، فنقلت إلى ما قبلها ، فسكنت الياء ، والواو بعدها ساكنة ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين ، وكان حذفها أولى من حذف واو الجمع ؛ لأن واو الجمع دخلت لمعنى ، وهي لم تدخل لمعنى ، فكان حذفها أولى .

البلاغة :

﴿ بل هم منها عمون ﴾ استعارة ، استعار العمى للتعامي عن الحق ، وعدم التفكر في أدلة إثباتها .

المفردات اللغوية :

﴿ مَنْ في السموات والأرض ﴾ من الملائكة والناس ﴿ الغيب ﴾ ما غاب عنهم ﴿ إلا الله ﴾ لكن الله يعلمه ، فالاستثناء منقطع ﴿ وما يشعرون ﴾ أي كفار مكة وغيرهم ﴿ أيّان ﴾ أي متى ﴿ يبعثون ﴾ ينشرون ، أي يخرجون من القبور للحساب والجزاء ﴿ بل ﴾ أي هل ﴿ ادّارك ﴾ تتابع وتلاحق واستحكم ، وقرئ : « ادّرك » بوزن أكرم ، أي انتهى علمهم وتكامل . والمراد أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والبينات على أن القيامة كائنة لا محالة ، لا يعلمونه كما

ينبغي ، وإذا سألوا عن وقت مجيء القيامة فليس الأمر كذلك ، فهم في شك منها ﴿ بل هم في شك منها ﴾ أي فهم في الحقيقة في شك وحيرة عظيمة من حصول القيامة ، كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً ﴿ بل هم منها عمون ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم ، وهو جمع عمٍ : وهو أعمى القلب والبصيرة ، وهو أبلغ مما قبله .

المناسبة :

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه المختص بالقدرة التامة الفائقة العامة ، أتبعه بما هو أيضاً من لوازم الألوهية وهو أنه المختص بعلم الغيب ، فثبت أنه هو الإله المعبود ؛ لأن الإله هو المتمكن من المجازاة لأهل الثواب والعقاب .

التفسير والبيان :

﴿ قل : لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ أي قل أيها الرسول لجميع الخَلْق : لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله . فقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ وعنده مفاتحُ الغَيْبِ لا يعلمُها إلا هو ﴾ [الأنعام ٥٩/٦] وقال : ﴿ إن اللهَ عنده عِلْمُ الساعةِ ، ويُنزِّل الغيثَ ، ويعلمُ ما في الأرحامِ ، وما تدري نفسٌ ماذا تَكْسِب غداً ، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت ، إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ [لقمان ٣٤/٣١] .

روى مسلم وابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أن النبي ﷺ يعلم ما يكون في غد ، فقد أعظم الفِرْية على الله ؛ لأن الله يقول : ﴿ قل : لا يعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله ﴾ .

ولما نفى عنهم علم الغيب على العموم ، نفى عنهم علم الغيب المخصوص بوقت الساعة فصار منتفياً مرتين ، فقال :

﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي وما يدري أهل السموات والأرض بوقت

الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ في السمواتِ والأرضِ ، لا تأتيكم إلا بغْتةً ﴾ [الأعراف ١٨٧/٧] أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض ، فلا يشعر الكفار وغيرهم في أي وقت يكون البعث للحساب والجزاء ، وإنما تأتيهم الساعة فجأة .

ثم أكد الله تعالى جهلهم بيوم القيامة فقال :

﴿ بل ادّارك علمهم في الآخرة ﴾ أي بل انتهى علمهم بالآخرة ، وعجز عن معرفة وقت حدوثها ، والمراد : أن ما توصلوا إليه من أدلة إثبات الآخرة تلاشى شيئاً فشيئاً ، حتى لم يَعُدْ لها قيمة ذات بال .

ثم وصفهم بالحيرة في الآخرة فقال :

﴿ بل هم في شك منها ﴾ أي بل الكافرون (أي جنسهم) في حيرة شديدة من تحقق الآخرة ووجودها ، أي شاكون في وجودها ووقوعها ، كما قال تعالى : ﴿ وعُرضوا على ربِّك صفاً ، لقد جئتمونا كما خَلَقناكم أول مَرّةٍ ، بل زعمتُم أن لن نَجْعَلَ لكم موعداً ﴾ [الكهف ٤٨/١٨] أي أن لن نجعل للكافرين منكم .

ثم وصفهم الله بالتعامي عن التفكر والتدبر في أمر الآخرة ، فقال :

﴿ بل هم منها عمون ﴾ أي بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها ، لا يفكرون فيها في أعماق نفوسهم ، فهم عمي البصيرة لا البصر ، وهذا أسوأ حالاً من الشك .

قال أبو حيان : هذه الإضرابات الثلاثة ما هي إلا تنزيل لأحوالهم ، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه ، والإزالة مستطاعة ، وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه ، فلذلك عدّاه بمن دون « عن »[1] .

---

(١) التفسير الكبير : ٩٣/٨٧

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى أنه لا يعلم أحد الغيب إلا الله ، فذلك مما اختص الله به ، فيكون هو الإله المستحق للعبادة .

ودلت على أن الكفار وغيرهم لا يشعرون بوقت القيامة حتى تأتيهم فجأة ، وعلى أن علمهم بأدلة إثباتها معدوم ، فهم جهلة بها ولا علم لهم فيها ، وهم أيضاً في شك منها في الدنيا وفي حيرة شديدة من شأن وجودها ، وقلوبهم عمياء عن إدراكها وعما يوصل إلى الحق في شأنها .

إنكار المشركين البعث

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾
وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

الإعراب :

﴿ رَدِف لكم ﴾ أي رَدِفكم ، واللام زائدة ، كاللام في قوله تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم ﴾ أي بوأنا إبراهيم .

البلاغة :

﴿ أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرَجون ﴾ استفهام إنكاري ، وتكرار همزة ﴿ أئنا ﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار .

﴿ قل : سيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وعيد وتهديد .

﴿ وإن ربك لذو فضل ﴾ ﴿ وإن ربك ليعلم ﴾ تأكيد بإن ، واللام لترسيخ المعنى .

﴿ ماتكنّ صدورهم وما يعلنون ﴾ بين ﴿ تكنّ ﴾ أي تخفي و ﴿ يعلنون ﴾ طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي قالوا أيضاً في إنكار البعث بعد بيان عماهم عن الآخرة . ﴿ لمخرَجون ﴾ من القبور أو من حال الفناء إلى الحياة . ﴿ إن هذا ﴾ ماهذا . ﴿ أساطير الأولين ﴾ أكاذيب الأقدمين ، جمع أسطورة : وهي ماسطره الأقدمون من خرافات وأحاديث . ﴿ كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي هلاكهم بالعذاب لإنكارهم البعث .

﴿ ضيق ﴾ في ضيق صدر . ﴿ مما يمكرون ﴾ من مكرهم ، أي فإن الله يعصمك من الناس ، وهذا تسلية للنبي ﷺ ، أي لاتهتم بمكرهم وتآمرهم عليك ، فإنا ناصروك عليهم . ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي العذاب الموعود ، أو الوعد بالعذاب . ﴿ ردف لكم ﴾ أي ردفكم بمعنى تبعكم ولحقكم . ﴿ بعض الذين تستعجلون ﴾ أي أصابهم بعض العذاب وهو القتل ببدر ، وباقي العذاب يأتيهم بعد الموت .

﴿ لذو فضل على الناس ﴾ أي ومنه تأخير العذاب عن الكفار . ﴿ لايشكرون ﴾ نعم الله عليهم ومنه تأخير العذاب لإنكارهم وقوعه . ﴿ تكنّ صدورهم ﴾ تخفيه . ﴿ وما يعلنون ﴾ بألسنتهم . ﴿ غائبة ﴾ التاء المربوطة أو الهاء للمبالغة ، والمعنى : أيّ شيء في غاية الخفاء على الناس ، كالتاء في علاّمة ونسابة ، والأصل : غائب . ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ بيّن ، وهو اللوح المحفوظ ، فكل شيء يعلمه الله قديماً ، ومنه تعذيب الكفار .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى جهل الكفار بالآخرة ، أردفه بما قالوا عنها ، مما يدل على إنكارهم لها . وأما مناسبة هذه الآيات لجملة السورة فهي أنه تعالى لما تكلم في حال مبدأ الخلق ، تكلم بعده في حال المعاد ؛ لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من

الشك في كمال القدرة أو في كمال العلم ، فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل إنسان عن أجزاء بدن غيره ، وثبت أنه قادر على إعادة التركيب والحياة إلى تلك الأجزاء ، وإذا ثبت إمكان ذلك ، ثبت صحة القول بالحشر أو المعاد .

التفسير والبيان :

﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا ، أئنا لمخْرَجون ﴾ أي وقال المشركون منكرو البعث ، الذين كفروا بالله وكذبوا رسله : أنخرج من قبورنا أحياء ، بعد مماتنا ، وبعد أن بليت أجسادنا وصارت تراباً ؟ فهذا حكاية لاستبعادهم إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً .

﴿ لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي مازلنا نسمع كثيراً بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نلمس له حقيقة ولا وقوعاً ولم نر قيام أحد بعد موته ، والمراد أن هذا تاريخ غابر محكي ، أكل عليه الدهر وشرب .

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ماهذا الوعد بإعادة الأبدان إلا أسطورة ، أي خرافة وأكذوبة ، يتناقلها الناس عن بعضهم ، وليس لها حقيقة ، ولم يقم عليها دليل مقبول .

ثم أرشدهم الله تعالى إلى الصواب في ذلك وعما ظنوا من الكفر وعدم المعاد بصيغة الوعيد والتهديد ، فقال : ﴿ قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : سيروا في أرض الحجاز والشام واليمن وغيرها ، فانظروا مصير من سبقكم من المكذبين ، إنهم اغتروا بدنياهم ، وفتنوا بزخارفها ، وكذبوا رسلهم ، وأنكروا وجود البعث ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، وبقيت ديارهم آثاراً شاهدة عليهم للعبرة والعظة ، ونجى الله رسله ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ماجاءت به الرسل وصحته من الإيمان بالله

وبالبعث ، وتلك سنة الله في كل من كذب رسله ، وسيعاقبكم بمثل عقابهم إن لم تبادروا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر .

ثم سلّى الله نبيه ﷺ عن إعراضهم عن قوله ورسالته فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ، ولا تكن في ضَيْق مما يمكرون ﴾ أي ولا تحزن يا محمد على إعراض هؤلاء المكذبين عن رسالتك ، ولا تكن ضيق الصدر حزيناً مكروباً مهموماً من كيدهم وتآمرهم عليك ، فإن الله مؤيدك وناصرك وعاصمك من الناس ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

ثم حكى الله تعالى إنكاراً آخر من الكفار غير الساعة ، وهو إنكار عذاب الله ، فقال : ﴿ ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي يقول هؤلاء المشركون في مكة وغيرهم في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : متى وقت هذا العذاب الذي تعدنا به ، إن كنتم أيها الرسول والمؤمنون به صادقين في ادعائكم وقولكم ؟ يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء .

فأجابهم الله تعالى بقوله :

﴿ قل : عسى أن يكون رَدِف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ أي قل لهم يا محمد : عسى أن يكون ردفكم أي لحقكم وتبعكم واقترب منكم بعض ما تستعجلون وقوعه من العذاب ، وهو القتل والعذاب والنكال يوم بدر . فقوله : ﴿ ردف لكم ﴾ أي ردفكم واللام زائدة ، وقال ابن كثير : وإنما دخلت اللام في قوله : ﴿ ردف لكم ﴾ لأنه ضمن معنى : عجل لكم ، كما قال مجاهد في تفسير ذلك

قال الزمخشري : عسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجِدّه ، وما لا مجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجّلون بالانتقام ؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ،

وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده[١] .

ثم ذكر تعالى سبب تأخير العقاب ، فقال :

﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي وإن الله لهو المنعم المتفضل على الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم حيث يسبغ إنعامه عليهم في الدنيا ، مع ظلمهم لأنفسهم ، ويترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم ، ولكنهم مع ذلك كله لا يشكره أكثرهم على فضله ، ولا يشكره إلا القليل منهم .

﴿ وإن ربك ليعلم ماتكنّ صدورهم وما يعلنون ﴾ أي وإن ربك ليعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظواهر ، كما قال : ﴿ سواء منكم من أسرّ القول ومن جَهَر به ﴾ [الرعد ١٠/١٣] وقال : ﴿ يعلم السرّ وأخفى ﴾ [طه ٧/٢٠] والمراد أنه تعالى عالم بمكائد المشركين للرسول ، وسيجازيهم على ذلك .

ثم أبان الله تعالى حقيقة شاخصة عامة وهي أن كل ما في الكون محفوظ في اللوح المحفوظ ، فقال :

﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ أي وما من شيء غائب مخفي في السموات والأرضين إلا وهو موجود معلوم محفوظ في اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه الله تعالى كل ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة وهو ماغاب عن العباد وما شاهدوه ، وعالم غيب السموات والأرض من أمر الخلائق قاطبة ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تَعْلَمْ أن اللهَ يَعْلَمُ ما في السماء والأرضِ ، إن ذلك في كتابٍ ، إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾ [الحج ٧٠/٢٢] وقال حكاية عن لقمان : ﴿ يابُنَيَّ ، إنها إن تكُ مثقالَ حبّة من خَرْدل ، فتكن

---

(١) الكشاف ٤٦٠/٢

في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ ، يـأتِ بهـا اللهُ ، إن اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ﴾ [لقمان ١٦/٣١] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ تكرر في القرآن الكريم حكاية إنكار المشركين البعث ، فهم يعدّونه من خرافات الأقدمين المتوارثة ، وكانت الأنبياء يقرّبون أمر البعث مبالغة في التحذير ، وكل ما هو آتٍ قريب .

٢ ـ وبما أن واقعة البعث أمر غيبي يحدث في المستقبل ، فإن الله تعالى أجاب المنكرين له بالنظر في مصير المكذبين لرسلهم ، المنكرين وقوع البعث ، نظرة تأمل في القلوب والبصائر في بلاد الشام والحجاز واليمن وغيرها ، هل دام لهم العز والسلطان ، أم دمّر الله ديارهم بسبب كفرهم ؟.

٣ ـ كانت درجة إحساس النبي ﷺ عالية جداً ، ومرهفة إرهافاً مفرطاً ، فتألم وحزن لإعراض قومه عنه ، فسرّى عنه القرآن همومه ، ونهاه عن حمل الهموم والأحزان على كفار مكة إن لم يؤمنوا ، كما نهاه عن الضيق أي الحرج من مكرهم وتدبيرهم وقولهم : متى أو أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ؟

٤ ـ أجابهم الحق تعالى عن استبطاء نزول العذاب بالترهيب مرة وبالترغيب مرة أخرى ، فأنذرهم بأن بعض عذابهم قد اقترب منهم ودنا من ساحتهم ، وذلك في أول لقاء عسكري فاصل بينهم وبين المؤمنين في موقعة بدر ، فيُقتل رؤساؤهم ويُؤسر أشرافهم ، ورغّبهم بالتوبة والإيمان ، وذكّرهم بفضله سبحانه على الناس في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ، ولكن أكثرهم لا يشكرون فضله ونعمه .

٥ ـ وأبان لهم أن مصير خططهم ومؤامراتهم إلى الخيبة والفشل ، فإن الله يعلم

ما تخفي صدورهم وما يظهرون من الأمور ، فيحبط مشاريعهم ، كما أنه تعالى يعلم جميع ما أخفى عن خلقه وغيَّبه عنهم ، وهذا عام بعد خاص ، وقد أثبت تعالى في اللوح المحفوظ ما أراد ، ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته ، فكيف يخفى عليه ما يسرُّ هؤلاء وما يعلنونه ؟!

وإذا كان الله عليماً بكل نشاطاتهم المشبوهة وتحركاتهم المريبة ، فيستحيل وقوع ما يريدون من إيذاء النبي ﷺ أو النيل من رسالته ، أو تحقيق الظفر على المسلمين .

إثبات نبوة محمد ﷺ بالقرآن الكريم

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

البلاغة :

﴿ إن هذا القرآن يقصّ ﴾ : في هذا الفعل المضارع استعارة تبعية ، استعار ما يتكلم به الإنسان الناطق إلى القرآن ، لتضمنه نبأ الأولين ، فكان كالإنسان الذي يقصُّ على الناس الأخبار .

﴿ العزيز العليم ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل .

﴿ إنك لاتسمع الموتى ، ولا تسمع الصم ﴾ ﴿ بهادي العُمْي ﴾ استعارة تمثيلية ، فقد عبر بالموتى والصم والعمي تمثيلاً لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي .

المفردات اللغوية :

﴿ يقص على بني إسرائيل ﴾ الموجودين في زمان نبينا ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ أي يخبرهم بأكثر نواحي الاختلاف كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح ﴿ لهدى ﴾ من الضلالة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ من العذاب وخص بالمؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به ﴿ يقضي بينهم ﴾ يفصل بين بني إسرائيل كغيرهم يوم القيامة ﴿ بحكمه ﴾ بما هو حكمه الذي هو الحق والعدل ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب ، فلا يرد قضاؤه ﴿ العليم ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه ، فلا معقب لحكمه .

﴿ فتوكل على الله ﴾ ثق به ، ولا تبال بمعاداتهم ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ الدين البيِّن ، وصاحب الحق جدير بالثقة بنصر الله وحفظه ، فإنه سينصرك على الكفار ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل ، من حيث إنه يقطع الأمل بمتابعتهم ومعاضدتهم ، فضرب أمثالاً لهم بالموتى وبالصم وبالعمي ، لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم ، ولا برؤية ما يرشدهم إلى الإيمان ﴿ مدبرين ﴾ راجعين فارّين هاربين ؛ لأن إسماعهم في هذه الحال أبعد .

﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ لأن الهداية لا تحصل إلا بالصبر ﴿ إن تسمع ﴾ أي ما يجدي إسماعك سماع فهم وقبول ﴿ إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ يصدق بالقرآن ﴿ فهم مسلمون ﴾ مخلصون بتوحيد الله .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد أن أتمَّ الله تعالى الكلام في إثبات المبدأ والمعاد بالأدلة الكونية ، الحسية والعقلية ، أعقب ذلك بإثبات النبوة بأدلة أعظمها القرآن الكريم المشتمل على المعجزات ، وإذا كان معجزاً دل على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه .

التفسير والبيان :

إن الكتاب الذي أورد الأدلة على إثبات صفات الكمال لله تعالى ، وإثبات البعث لإقامة العدل بين الخلائق بالثواب والعقاب ، وهما أصلان للدين ، هو هذا القرآن المتضمن وجوه الإعجاز التالية :

أ ـ الإخبار عن قصص الأنبياء المتقدمين : ﴿ إن هذا القرآن يقُصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ أي إن هذا القرآن العزيز يخبر بني

سرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل ، بالحق في كثير من الأمور التي اختلفوا يها ، كاختلافهم في عيسى عليه السلام ، فاليهود افتروا عليه ، والنصارى غلوا في نأنه ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل : أنه عبد من عباد الله ، ونبي من نبيائه ورسله الكرام . وهذه الحقيقة وغيرها من القصص لا تعرف إلا بالوحي لإلهي من عند الله تعالى ؛ لأن محمداً ﷺ المنزل عليه القرآن كان أمياً لا يقرأ لا يكتب ، ولم يتتلمذ على أحد من العلماء للتعلم ومعرفة شؤون الثقافة ، ولأن هذه القصص المذكورة في القرآن موافقة لما في التوراة والإنجيل .

٢ ـ إثبات التوحيد والبعث والنبوة وأحكام التشريع بدلائل عقلية : ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي إن هذا القرآن لهادٍ للمؤمنين إلى طريق الرشاد ، ورحمة لهم في الأحكام التشريعية المتعلقة بالعقيدة ، كالتوحيد والحشر والنبوة وصفات الله الحسنى ، والمتعلقة بالأحكام العملية الملائمة لحاجات البشر وتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة .

وهو أيضاً هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه غاية الفصاحة والبلاغة حتى عجزت البشر عن معارضته ، فدل على إعجازه ، وخروجه عن طاقتهم ، وأنه وحي منزل من إله حكيم حميد قدير . وخص المؤمنين في الآية ؛ لأنهم المنتفعون به .

وبعد بيان خصائص إعجاز القرآن الدالة على صدق الرسالة النبوية أتبعه بذكر أمرين :

الأول ـ إقامة الدليل على عدل الله تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم بِحُكمه ، وهو العزيز العليم ﴾ أي إن ربك الذي يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون يقضي بين المصيب والمخطئ منهم بحكمه العادل ، وهو القوي القادر على الانتقام من المبطل منهم ، ومكافأة المحسن منهم ، فلا يرد قضاؤه ، العليم بأفعال عباده وأقوالهم ، فيقضي بالصواب المطابق للواقع ؛ لأنه العليم بمن يقضي له وبمن يقضي عليه .

ومعنى ﴿ يقضي .. بحكمه ﴾ أي يقضي يوم القيامة بما يحكم به وهو عدله ؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكماً ، أو أراد أنه يقضي بحكمته .

الثاني ـ أمر النبي بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين : ﴿ فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين ﴾ أي ثق بالله واعتمد عليه وفوض جميع أمورك إليه ، وبلّغ رسالة ربك ، ولا تلتفت إلى أعداء الله ، فإنك أنت على الحق الواضح ، وإن خالفك فيه من خالفك من أهل الشقاء . وهذه هي العلة الأولى للتوكل على الله ، ثم علل ذلك بعلة أخرى فقال :

﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصُمّ الدعاء ، إذا ولّوا مدبرين ﴾ أي إنك لا تستطيع أن تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فهم حين توليهم مدبرين معرضين عنك كالموتى لا يتأثرون بما يتلى عليهم ولا يفهمونه ، وكالصم الذين لا أمل في سماعهم فلا يسمعون بحال ، وكالعمي الذين لا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء أصلاً ؛ لأن على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، وفي نفوسهم استعلاءً واستكباراً عن الرضوخ للحق . وفي هذه العلة الثانية قطع طمع النبي عن الكفار ، فيقوى قلبه على إظهار مخالفة أعداء الله ، بأن بيّن له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمي ، فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل ، ولأن الإنسان مادام يطمع في أنْ يأخذ من أحد شيئاً ، فإنه لا يجرؤ على مخالفته .

وهذا سبب قوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغي . ومعنى قوله : ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ تأكيد لحال الأصم ؛ لأنه إذا تباعد وأدبر عن الداعي كان أبعد عن إدراك صوته .

والخلاصة : إنه تعالى أمر رسوله بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ؛ لأنه على الحق المبين ، وغيره على الباطل ، ولأنه لا أمل ولا مطمع في مساندة المشركين ، ولا في استجابتهم لدعوة الحق .

والمراد من نفي الإسماع للموتى الإسماع الذي يمكن أن يعقبه إجابة وتفاعل وتفاهم ، فلا يعارضه ثبوت السماع من جانبهم دون أن يتمكنوا من الرد أو إجابة من يكلمهم ، كما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وأنه ﷺ سلّم على قبور أهل بدر ، وكما ثبت في صحيح البخاري ومسلم « أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب (بئر) بدر ، فقيل له : يارسول الله ، إنما تكلّم أجساداً لا أرواح لها ، فقال النبي ﷺ : والذي نفس محمد بيده ماأنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم » .

ثم أكد الله تعالى ماسبق فقال :

﴿ وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي ومأأنت أيها الرسول بمستطيع أن تهدي العمي عن ضلالتهم ، أي تردهم عن الضلال بالهدى ؛ لأن على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما أتيت به نظراً مؤدياً إلى الحق ، وما يجدي إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته ، أي يصدقون بها ، فهم مسلمون مخلصون التوحيد لله ، خاضعون لله ، ولا يستجيب لك إلا من هو مبصر القلب ، يستخدم سمعه وبصره في إدراك الأمور على وجهها الصحيح ، مستعد لقبول الحق ، فهذا هو المسلم الذي أسلم وجهه لله ، يعني جعله سالماً لله تعالى خالصاً له .

فقه الحياة أو الأحكام :

يثبت الله تعالى بهذه الآيات صدق النبوة وصحة رسالة الرسول ﷺ ، وذلك بالقرآن الذي أنزله على قلب نبيه ، مشتملاً على وجوه عديدة من الإعجاز .

منها : أنه يبين لبني إسرائيل الموجودين حال نزوله مااختلفوا فيه ، لو أخذوا به ، وذلك ماحرّفوه من التوراة والإنجيل ، وماسقط من كتبهم من الأحكام .

ومنها : أن القرآن هادٍ من الضلالة إلى الحق والاستقامة والرشاد ، ورحمة لمن صدّق به بما اشتمل عليه من الأدلة العقلية على التوحيد والبعث والنبوة وشرح صفات الله تعالى ونعوت جلاله ، وبما انطوى عليه نظمه من سمو الفصاحة والبلاغة ، حتى عجز البشر عن معارضته ، مما يدل على أنه كلام الله المعجز الدال على صدق الرسالة النبوية .

ثم ذكر الله تعالى دليل عدله ، فهو سبحانه يقضي بين بني إسرائيل وغيرهم فيما اختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازي المحق والمبطل ، وهو العزيز أي المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ، العليم الذي لا يخفى عليه شيء .

ثم أمر الله تعالى نبيه بالتوكل على الله ، أي تفويض أمره إليه واعتماده عليه ، فإنه ناصره ؛ لأنه على الحق المبين ، أي الظاهر ، ولأن هؤلاء الكفار أشبه بالموتى لتركهم التدبر ، فلا حسّ لهم ولا عقل ، وبمنزلة الصم عن قبول المواعظ ، فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ، وكالعميان الذين لا يميزون طريقهم ، فهم تائهون حائرون ، كما قال سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ، فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة ١٧١/٢] .

ثم ذكر الله تعالى قاعدة عامة في مسيرة الدعوة للنبي ﷺ بقوله : ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ أي ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم ، وما تسمع إلا المستعد لقبول الحق ، المهيأ للإيمان بآيات الله ، المخلوق للسعادة ، فهم مخلصون في التوحيد . أما الكافر المعاند المعرض عن آيات ربه فلا أمل في إيمانه ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ ﴾ [يونس ٩٦/١٠-٩٨] .

من أمارات القيامة ومقدماتها

ـ ١ ـ

إخراج دابة الأرض وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله أمام ربهم

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ أن الناس ﴾ ﴿ أن ﴾ بالفتح : إما في موضع نصب مفعول به لـ ﴿ تكلمهم ﴾ أي تخبرهم ، أي تخبرهم أن الناس ، وإما في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، أي تكلمهم بأن الناس ، و﴿ بآياتنا ﴾ في موضع نصب متعلق بـ ﴿ يوقنون ﴾ أي كانوا لا يوقنون بآياتنا . ومن قرأ بالكسر : « إن » فعلى الابتداء والاستئناف .

البلاغة :

﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾ فيه أسلوب التوبيخ والتأنيب .

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ فيه ما يسمى في علم البديع بالاحتباك ، وهو أن يحذف من أوله ما أثبت في آخره وبالعكس ، وبيانه هنا : جعلنا الليل مظلماً

ليسكنوا فيه ، والنهار مبصراً ليتصرفوا فيه ، فحذف « مظلماً » لدلالة ﴿ مبصراً ﴾ عليه ، وحذف « ليتصرفوا فيه » لدلالة ﴿ ليسكنوا فيه ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ أي إذا دنا أو قرب وقوع معنى القول وهو ما وُعدوا به من البعث والعذاب الذي ينزل بالكفار ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾ كائناً حياً يدب على الأرض ، وهو الجسّاسة ﴿ تكلمهم ﴾ تنبئهم وتخبرهم ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ أي أن أكثر الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله الدالة على مجيء الساعة ، والله أعلم بحقيقة تلك الدابة ، ولعلها إنسان عادي ، والمهم الإخبار عن تكذيب الجم الغفير من الناس بوقوع القيامة .

﴿ ويوم ﴾ أي واذكر يوم القيامة ﴿ نحشر ﴾ نجمع ﴿ من كل أمة ﴾ من للتبعيض ﴿ فوجاً ﴾ جماعة ﴿ ممن يكذّب بآياتنا ﴾ من للتبيين ، وهم الرؤساء المتبعون ﴿ يُوزَعون ﴾ يجمعون بمنع أولهم وإيقافه من أجل آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف المناقشة والحساب ﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ مكان الحساب أو المحشر ﴿ قال ﴾ تعالى لهم ﴿ أكذبتم ﴾ أنبيائي ﴿ ولم تحيطوا بها علماً ﴾ الواو للحال ، أي أكذبتم بآياتي بادي الرأي ، ولم تتأملوا بحقيقتها ، ولم تنظروا نظراً يحيط علمكم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب ، فمعنى : لم تحيطوا بها علماً : لم تدركوا حقيقة كنهها . والواو للعطف ، أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها ؟ أي النظرة السطحية لها ﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ، وهو استفهام للتبكيت ، إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل ، وأما : فيه إدغام « ما » الاستفهامية بـ « ذا » الموصول ، أي ما الذي كنتم تعملون فيما أمرتم به ؟

﴿ ووقع القول عليهم ﴾ حلّ بهم العذاب ، وهو كبُّهم في النار بعد ذلك ﴿ بما ظلموا ﴾ بسبب ظلمهم ، وهو الشرك والتكذيب بآيات الله ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ باعتذار إذ لا حجة لهم ﴿ ألم يروا ﴾ ألم يعلموا ﴿ أنا جعلنا ﴾ خلقنا ﴿ ليسكنوا فيه ﴾ ليستريحوا فيه ويهدؤوا ﴿ مبصراً ﴾ يبصر فيه بضوئه أسباب المعيشة ليتصرفوا فيه ، وجعل الإبصار للنهار وهو لأهله ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى ، وهي تدل على الأمور الثلاثة : التوحيد والحشر وبعثة الرسل ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ خصوا بالذكر لانتفاعهم بها في الإيمان ؛ لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص لا يكون إلا بقدرة قاهرة ، وإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور من مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة من مواد الأبدان .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى الدلائل على كمال قدرته وكمال علمه ، وفرع على ذلك القول بإمكان البعث والحشر والنشر ، ثم أوضح كون القرآن معجزاً ، ونبّه بإعجازه على إثبات نبوة محمد ﷺ ، أردف ماسبق ببيان مقدمات قيام القيامة ، وهي إما كالعلامة للقيامة كإخراج دابة الأرض ، وإما أن تقع عند قيام القيامة كنفخ الصور .

وإنما أخر تعالى الكلام عن علامات القيامة عن إثبات النبوة ؛ لأن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق .

التفسير والبيان :

﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ أي أنه في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، واستحقاقهم العذاب الموعود به ، وذلك قرب مجيء الساعة ، يخرج الله للناس دابة من الأرض تحدثهم أن أكثر الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون .

ولعل تلك الدابة هي إنسان كما قال بعض المفسرين الجدد ؛ لوصفها بالكلام ؛ ولأن كل ما يدب على الأرض فهو دابة .

وسميت تلك الدابة في الآثار بالجسّاسة ، وورد في شأنها أحاديث آحاد ، منها ما رواه مسلم وأهل السنن عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ، ونحن نتذاكر أمر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام ، والدجال ، وثلاثة

خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عَدَن ، تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا » .

وأما موضع خروجها فهو : سئل النبي ﷺ : من أين تخرج الدابة ؟ فقال : « من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى ، يعني المسجد الحرام »[1] .

وبعد ذكر العلامة الأولى لقيام الساعة ذكر تعالى العلامة الثانية وهي : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ، ممن يكذّب بآياتنا ، فهم يُوزَعون ، حتى إذا جاؤوا قال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً ، أماذا كنتم تعملون ﴾ أي ويوم نجمع يوم القيامة جماعة من رؤساء كل أمة من الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله ، ونحبس أولهم على آخرهم ، ليجتمعوا في موقف الحشر والحساب ، حتى إذا جُمعوا ووقفوا بين يدي الله عز وجل للحساب والنقاش ، فيقول الله لهم توبيخاً وتبكيتاً : أكذبتم بآياتي الدالة على لقاء هذا اليوم ، غير ناظرين بما يحيطكم علماً بحقيقة الآيات ، وإذا لم تتأملوا فيها ، فماذا كنتم تشغلون أنفسكم أو تعملون فيها من تصديق أو تكذيب ؟! فقوله : ﴿ أمّاذا كنتم تعملون ﴾ بمعنى : بل ماذا كنتم تعملون ؟!

﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا ، فهم لا ينطقون ﴾ أي وحينئذ يحل العذاب بأولئك المكذبين بآيات الله بسبب ظلمهم ، أي تكذيبهم وكفرهم ، فيشغلهم عن النطق والاعتذار ، كما قال تعالى : ﴿ هذا يومُ لا يَنْطِقون ﴾ [المرسلات ٣٥/٧٧] .

ثم ذكر الله تعالى دليل التوحيد والحشر والنبوة ، فقال :

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المكذبون بآياتنا أنا خلقنا الليل للسكن والنوم

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٣٧٥/٣ وما بعدها .

والراحة والقرار بعد عناء التعب في النهار ، وخلقنا النهار منيراً مشرقاً للتصرف أو التقلب في المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات وغيرها من شؤونهم التي يحتاجونها ، إن في ذلك الخلق والإيجاد لدلالات على قدرة الله على البعث بعد الموت ، للجزاء والحساب ، وعلى توحيده ، لقوم يصدقون بالله ورسله .

فمن تأمل في تعاقب الليل والنهار والانتقال من حال شبيهة بالموت إلى حال الحركة والحياة ، أدرك أن القيامة كائنة لا محالة ، وأن الله سيبعث من في القبور .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن مفاجآت يوم القيامة وأهوالها كثيرة وغريبة ومذهلة ، فمن مقدماتها : إخراج دابة من الأرض عند استحقاق العذاب تخبر بأن أكثر الناس كانوا لا يصدقون بآيات الله . جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

واختلف المفسرون في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً ، قال القرطبي : أول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح عليه السلام ، وهو أصحها ـ والله أعلم ـ لما ذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : « لها ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون ذلك ، فيفشو ذكرها في البادية ، ويدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة ، خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب ، فارفضّ الناس منها شتّى ومعاً ..» الحديث .

وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : « وهي ترغو » والرغاء إنما هو للإبل ؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب ، فانفتح له حَجَر ، فدخل في جوفه ، ثم انطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل[1] .

ثم ذكر الله تعالى بعض الأمور الواقعة بعد قيام القيامة وهو حشر زمرة وجماعة من كل أمة ، ممن يكذب بالقرآن وبالأدلة الدالة على الحق ، فهم يوزعون أي يُدفَعون ويساقون إلى موضع الحساب ، وقال قتادة : أي يُردّ أولهم على آخرهم ، حتى إذا حضروا الموقف قال الله : أكذبتم بآياتي التي أنزلتها على رسلي ، وبالآيات التي أقمتها دليلاً على توحيدي ، ولم تعلموا بحقيقتها ، وإنما أعرضتم عنها مكذبين جاهلين غير مستدلين ؟ ثم يقول لهم تقريعاً وتوبيخاً : ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها .

ولكن وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم ، فهم لا ينطقون ، أي ليس لهم عذر ولا حجة .

ثم أقام الله تعالى دليلاً على البعث والتوحيد والنبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر ، وهو خلق الليل للنوم والاستقرار ، وخلق النهار المنير المشرق الذي يبصر فيه الناس الأشياء للحركة ونشاط الحياة وسعي الرزق ، إن في ذلك لدلالات على قدرة الله وتوحيده وإمكانه الحشر لقوم يؤمنون بالله . أما وجه دلالته على التوحيد فهو أن التقليب من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور بدقة متناهية لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية . وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرة الله تعالى على هذا التقليب فهو قادر على القلب من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة ، وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع الناس ، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الناس منافع عظيمة ، فما المانع من بعثتهم إلى الناس لتحصيل تلك المنافع ؟

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٥/١٣

ـ ٢ ـ
النفخ في الصور وتسيير الجبال

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

الإعراب :

﴿ ويوم يُنفخ .. ﴾ ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : اذكر يوم ينفخ .

﴿ صُنْعَ الله ﴾ منصوب على المصدر ؛ لأن ماقبله يدل أنه تعالى صنع ذلك ، فكأنه قال : صنع صنعاً الله ، ثم أضاف المصدر إلى الفاعل .

﴿ من جاء بالحسنة .. ﴾ ﴿ من ﴾ شرطية مبتدأ ، و ﴿ فله ﴾ الجواب ، خبر المبتدأ .

﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ من قرأ « فزع » بالتنوين ، كان (يوم) منصوبا بالمصدر ، أو بـ ﴿ آمنون ﴾ تقديره : وهم آمنون يومئذ من فزع ؛ ومن قرأ بغير تنوين كان (يوم) مجرورا بالإضافة ، كقوله تعالى : ﴿ من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ [المعارج ١١/٧٠] . أي أنه في حالة إضافة « فزع » تكسر ميم « يومئذ » وتفتح ، وفي حال تنوين « فزع » تفتح ميم « يومئذ » .

البلاغة :

﴿ من جاء بالحسنة ﴾ ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ بينهما طباق .

﴿ تمرُّ مَرَّ السحاب ﴾ تشبيه بليغ ، أي تمر كمرّ السحاب في السرعة ، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه .

المفردات اللغوية :

﴿ الصور ﴾ البوق الذي ينفخ فيه ، والمقصود هنا : النفخة الأولى من إسرافيل ﴿ ففزع ﴾ خاف ، والمراد هنا الخوف الشديد المفضي إلى الموت من الهول ، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿ إلا من شاء الله ﴾ ألا يفزع بأن ثبّت قلبه ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ملك الموت . وعن ابن عباس : هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿ وكلٌ أتوه ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية ، أو راجعون إلى أمره ، وتنوين ﴿ كل ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي وكلهم بعد إحيائهم يوم القيامة أتوه ﴿ داخرين ﴾ صاغرين ، والتعبير بـ ﴿ أتوه ﴾ بالماضي لتحقق وقوعه .

﴿ وترى الجبال ﴾ تبصرها وقت النفخة ﴿ تحسبها ﴾ تظنها ﴿ جامدة ﴾ ثابتة في مكانها لعظمها ﴿ وهي تمر مرّ السحاب ﴾ أي في السرعة ؛ لأن الأشياء الكبار إذا تحركت في سَمْت واحد ، فلا تكاد تتبين حركتها . وهنا شبهها بالسحب التي تسيرها الرياح ﴿ صُنْع الله ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله ، تقديره : صنع الله ذلك صنعاً ﴿ أتقن ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها ، فيجازيهم عليها .

﴿ بالحسنة ﴾ أي الإيمان والعمل الصالح ﴿ فله خير منها ﴾ أي له ثواب بسببها وليس هذا للتفضيل ، إذ لا فعل خير منها ، وفي آية أخرى : ﴿ عشر أمثالها ﴾ ﴿ وهم من فزع ﴾ الفزع هنا : الخوف من العذاب ، وهم : أي الفاعلون الحسنة وأما الفزع الأول في قوله ﴿ ففزع من في السموات ﴾ فهو مالا يخلو عنه أحد عند الإحساس بشدة تقع ، وهول يفجأ من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به ﴿ بالسيئة ﴾ الإشراك بالله والمعاصي ﴿ كُبّت وجوهُهم في النار ﴾ أي ألقيت منكوسة ، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم ، وذكرت لأنها موضع الشرف من الحواس ، فغيرها من باب أولى ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي ما تجزون إلا جزاء عملكم من الشرك والمعاصي . وهذا القول المستفهم به للتبكيت .

المناسبة :

بعد ذكر العلامة الأولى لقيام القيامة وهي خروج الدابة للكلام والحديث ، ذكر الله تعالى علامتين أخريين لقيام القيامة وهما النفخ في الصور ، وتسيير الجبال ، ثم ذكر أحوال المكلفين يوم القيامة وأنهم قسمان : المطيعون الأبرار الذين يعملون الحسنات ، فيثابون خيراً منها ويأمنون الفزع من العذاب ، والعصاة

الأشقياء الذين يعملون السيئات ، فيكبُّون على وجوههم في النار ، جزاء عملهم .

التفسير والبيان :

العلامة الثانية ـ نفخ الصور :

﴿ ويوم يُنفَخُ في الصور ، ففزِع من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شَاءَ الله ﴾ أي اذكر أيها الرسول للناس هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث : قرن ينفخ فيه ، إذ يخاف جميع من في السموات ومن في الأرض خوفاً شديداً ، يؤدي بهم إلى الموت إلا من شاء ربك ، بأن ثبت قلبه فلا يخاف ، وهم بعض الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وقيل : هم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يُرْزَقون .

وهناك نفختان : نفخة الفزع في هذه الآية وهي النفخة الأولى ، ونفخة الصعق (أي الموت) المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ونُفخ في الصُّور ، فصعِق من في السموات ومن في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ الله ﴾ [الزمر ٣٩/٦٨] والنفخة الثانية : نفخة البعث التي في تتمة الآية السابقة : ﴿ ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام يَنْظرون ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنْسِلُون ﴾ [يسٓ ٣٦/٥١] .

وفي حديث الصور : إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات ومن في الأرض .

فالنفخ إذن مرتان : مرة ليموت الكل إلا من شاء الله ، ومرة ليحيى الكل للحساب ، ومن استثني أولاً يموت بعد النفخة الأولى وقبل الثانية .

﴿ وكلٌّ أتوه داخرين ﴾ أي وكل واحد من الخلائق يأتون إلى الموقف بين

يدي الله للسؤال والحساب أذلاء صاغرين ، صغار ذل إن كانوا كفاراً ، وصغار هيبة وخشية إن كانوا مؤمنين ، لا يتخلف أحد عن أمر ربه ، كما قال : ﴿ إن كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً ﴾ [مريم ١٩/٩٣] وقال : ﴿ يومَ يَدْعوكم ، فتَسْتجيبون بحمده ﴾ [الإسراء ١٧/٥٢] وقال : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ إذا أنتم تَخْرجون ﴾ [الروم ٣٠/٢٥] وقال : ﴿ يوم يَخْرجُون من الأجْداث سِراعاً كأنهم إلى نُصُب يوفضون ﴾ [المعارج ٧٠/٤٣] .

العلامة الثالثة ـ تسيير الجبال :

﴿ وترى الجبالَ تحسبها جامدة ، وهي تمرّ مَرَّ السحاب ﴾ أي وتنظر إلى الجبال فتراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تزول بسرعة عن أماكنها ، وتسير كما يسير الغمام بتأثير الرياح ؛ لأن الجسم الكبير إذا تحرك برتابة لاتكاد حركته تبين ، كما قال تعالى : ﴿ يوم تمورُ السماء مَوْراً ، وتسيرُ الجبال سيراً ﴾ [الطور ٥٢/٩ـ١٠] وقال : ﴿ ويوم نسيِّر الجبال ، وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف ١٨/٤٧] وقال : ﴿ وسيِّرت الجبال فكانت سراباً ﴾ [النبأ ٧٨/٢٠] وقال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل : يَنْسِفُها ربي نَسْفاً ، فيذَرُها قاعاً صَفْصَفاً ، لاترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ﴾ [طه ٢٠/١٠٥ ـ ١٠٧] .

وتسيير الجبال ـ وإن دُكت عند النفخة الأولى ـ يحدث بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، ليشاهدها أهل المحشر ، فيبدل الله الأرض غير الأرض والسموات ، كما قال تعالى : ﴿ يوم تُبَدّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات ، وبَرَزُوا لله الواحد القهار ﴾ [إبراهيم ١٤/٤٨] . وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على دوران الأرض حول الشمس بسرعة فائقة ، لكن الظاهر أن ذلك في الآخرة ؛ لأن الكلام هنا عن يوم القيامة .

﴿ صُنْع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ أي ذلك الصنع هو فعل الله بقدرته

العظيمة ، الذي أحكم كل شيء ، وأودع فيه من الحكمة ماأودع .

﴿ إنه خبير بما يفعلون ﴾ هذا علة النفخ في الصور والبعث للحساب والجزاء ، أي إن الله تعالى عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

ثم بيَّن الله تعالى حال المكلفين السعداء والأشقياء بعد قيام القيامة فقال :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ أي من جاء مؤمناً بالله وحده لا شريك له ، عاملاً الصالحات ، فله على ذلك الثواب الجزيل عند ربه في جنات النعيم ، يأمن من الفزع الأكبر ، وهو الخوف من عذاب القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ لا يحزنُهم الفزعُ الأكبر ﴾ [الأنبياء ١٠٣/٢١] وقال سبحانه : ﴿ أفمن يُلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ [فصلت ٤٠/٤١] وقال عز وجل : ﴿ وهم في الغُرُفات آمنون ﴾ [سبأ ٣٧/٣٤] .

والحسنة : الإيمان والعمل الصالح ، وقال ابن عباس والنخعي وقتادة : هي لاإله إلا الله . و ﴿ خير ﴾ هنا ليس أفعل تفضيل ، فليس شيء خيراً من لاإله إلا الله ، كما قال عكرمة ، وإنما المراد مضاعفة الثواب ودوامه ؛ لأن العمل ينقضي ، والثواب يدوم ، فالخير : الثواب ، وقيل : للتفضيل ، أي ثواب الله خير من عمل العبد وقوله . و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية أي له خير من الخيور ، مبدؤه ونشوؤه منها أي من جهة هذه الحسنة . وقد رتب الله على مجيء المكلف بالحسنة شيئين : الثواب والأمن من العذاب .

﴿ ومن جاءَ بالسيئةِ فكبَّتْ وجوهُهم في النار ، هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي ومن أشرك بالله وارتكب المعاصي ، ومن لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه ، فيلقى في النار ، ويقال لهم أي للكفار والعصاة : هل هذا إلا جزاء عملكم في الدنيا من شرك ومعصية ؟

ويلاحظ أن هذه الآيات كلها في قمة البلاغة والفصاحة والإيجاز المفيد معاني عديدة متلاحقة ، قال الزمخشري : فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن تنظيمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره ، وأخذ بعضه بحُجزة بعض ، كأنما أُفرغ إفراغاً واحداً ، ولأمر ما أعجز القوي ، وأخرس الشُقاشق[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن نفخ إسرافيل في الصور نفخة مرعبة وهي النفخة الأولى ونفخة الصعق يموت من رُعبها الخلائق كلهم إلا من شاء ربك من الملائكة أو الناس . وهي العلامة الثانية لقيام القيامة .

قال القرطبي : والصحيح في الصور : أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهيئة البوق . والصحيح في النفخ في الصور أنها نفختان ، لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما ترجع إلى نفخة الصعق ؛ لأن الأمرين لازمان لها ، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه ، ثم تأتي نفخة البعث وهي النفخة الثانية التي يحيي بها العباد ليجتمعوا في أرض الجزاء[2] .

ولا يتخلف أحد من الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة عن المثول حياً أمام الله تعالى ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وكلٌ أتوه داخرين ﴾ أي ذليلين صاغرين .

٢ ـ وبعد قيام القيامة وبعد النفخة الثانية عند حشر الخلائق يحدث تسيير الجبال من أماكنها ، ثم تتلاشى وتتبدد كالعهن ، أي الصوف المندوف . يقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ،

---

(١) الكشاف : ٤٦٣/٢ ، والشقاشق : الخطباء الماهرون في الكلام ، جمع شِقْشِقة وهي في الأصل لهاة البعير .

(٢) تفسير القرطبي : ٢٤٠/١٣

وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات : الاندكاك ، وذلك قبل الزلزلة ، ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالْمُهْل (أي الزيت المذاب) وقد جمع الله بينهما فقال : ﴿ يوم تكون السماء كالْمُهْل ، وتكون الجبال كالعِهْن ﴾ [المعارج ٨/٧٠ـ٩] . والحال الثالثة : أن تصير كالهباء ، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن . والحال الرابعة : أن تنسف ، والحال الخامسة : أن الرياح ترفعها على وجه الأرض ، فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار ، والحال السادسة : أن تكون سراباً[1] .

٣ ـ إن تغيير معالم الأرض من جبال وغيرها ، وتبديد السموات وغير ذلك من فعل الله الذي أتقن بصنعه كل شيء ، وأودع فيه من الحكمة ماأودع .

٤ ـ الناس صنفان يوم القيامة : سعداء وأشقياء ، فالسعداء : هم المؤمنون الذين عملوا الأعمال الصالحة ، وهؤلاء لهم الثواب الجزيل ، والأمن من عذاب الله . والأشقياء : هم الكفار والمشركون والعصاة الذين ارتكبوا في الدنيا السيئات ، وهؤلاء يطرحون في النار على وجوههم ، ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء أعمالكم ؟

والثواب الممنوح من الله للسعداء وهو الخير اسم جنس ، فسر بمضاعفته بعشرة أمثاله في آية أخرى ، فإن الله تعالى يعطي بالحسنة الواحدة عشراً ، أما جزاء السيئة فلا يضاعف فقال : ﴿ من جاءَ بالحسنة فله عَشْر أمثالِها ، ومن جاءَ بالسيئة فلا يُجزى إلا مِثْلها ، وهم لا يُظلَمون ﴾ [الأنعام ٦/١٦٠] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٤٢ ـ ٢٤٣

الاشتغال بعبادة الله وحمده وتلاوة القرآن

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

المفردات اللغوية :

﴿ هذه البلدة ﴾ مكة ، وتخصيصها بهذه الإضافة : إضافة ﴿ رب ﴾ إليها تشريف لها وتعظيم لشأنها . ﴿ الذي حرّمها ﴾ أي الله الذي جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم الإنسان ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصاد صيدها ، ولا يختلى خلاها (عشبها الرطب) وذلك من نعم الله على قريش حيث رفع عن بلدهم العذاب والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب . وقرئ : التي حرمها .

﴿ وله كل شيء ﴾ أي له تعالى كل شيء خلقاً وملكاً ، فهو ربه وخالقه ومالكه . ﴿ من المسلمين ﴾ لله بتوحيده ، أي المنقادين الثابتين على ملة الإسلام . ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي وأن أواظب على تلاوته لينكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً ، وأتلوه أيضاً عليكم تلاوة الداعية إلى الإيمان . ﴿ لنفسه ﴾ لأجلها ، فإن ثواب اهتدائه له . ﴿ ومن ضل ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿ فقل ﴾ له ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ الخوفين قومهم من عذاب الله ، فليس علي إلا التبليغ .

﴿ الحمد لله ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به . ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ يريكم آياته القاهرة في الدنيا كوقعة بدر ، أو في الآخرة ، فتعرفون أنها آيات الله ، ولكن حين لاتنفعكم المعرفة . ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي إنما يمهلهم لوقتهم ، فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم .

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة ، وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب ، أمر رسوله بهذه الخاتمة اللطيفة بأن يقول

للمشركين هذه المقالة ، مبيناً لهم أنه قد أتم أمر الدعوة ، وقد كملت ، ولم يبق عليه إلا الاشتغال بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبحمده وشكره على نعمه العظمى ، وبتلاوة القرآن ، أي أن مهمة إعلان الدعوة من جانبه انتهت ، وبقي عليهم التفكير في الاستجابة لهذه الدعوة ، وتدبر آي القرآن التي تكفي في إرشادهم ، وأنها إن لم تفدهم فقد أفادته ، فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها ، فإني مصرٌّ عليها ، غير مرتاب فيها .

التفسير والبيان :

﴿ قل : إنما أُمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حَرَّمها ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : إنما أمرت أن أعبد رب مكة الذي حرمها على الناس ، فجعلها شرعاً وقدراً حَرَماً آمناً ، لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد شجرها ، ولا ينفّر طيرُها ، ولا يُخوَّف فيها خائف ، يجبى إليها ثمرات الدنيا من كل ناحية .

وخص مكة بالذكر تشريفاً لها ؛ لأن أول بيت وضع للعبادة كان فيها ، كما قال تعالى : ﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ﴾ [قريش ١٠٦/٣ـ٤] . وفي هذا توبيخ لأهل مكة على ترك عبادة الله ، والاتجاه نحو عبادة الأصنام .

ونظير الآية : ﴿ قل : يا أيها الناس ، إن كنتم في شكٍّ من ديني ، فلا أعبدُ الذين تَعْبدون من دونِ الله ، ولكن أعبدُ اللهَ الذي يَتوفّاكم ﴾ [يونس ١٠٤/١٠] .

وقد أبان النبي ﷺ مظاهر تحريم مكة ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرضَ ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعْضَد

شوكه ، ولا يُنفِّرُ صيده ، ولا يُلْتَقط لُقطته إلا من عَرَّفها ، ولا يُختلى خلاها » أي عشبها الرطب .

﴿ ولـه كل شيء ﴾ أي لـه تعـالى كل شيء خَلْقاً وملكاً وتصرفـاً ، دون أي شريك ، وهذا من عطف العام على الخاص ، أي هو رب هذه البلـدة ، ورب كل شيء ومليكه ، لاإله إلا هو .

﴿ وأُمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأمرني ربي أن أكون من الموحّدين ، المخلصين ، المنقادين لأمره ، المطيعين له .

﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي وأمرني ربي أن أتلو القرآن على النـاس ، وأن أتلوه وحدي ليل نهار ، لتتكشف لي أسراره ، وأتعرف دائماً على أدلـة الكون المودعـة في آياته ، فيزداد إيماني ، وتشرق نفسي .

﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ أي فمن اهتـدى إلى الحق والإيـمان فـإنما يهتدي لأجل نفسه ، ومن آمن برسالتي واتبعني فقد رشد ، وأمن عذاب ربه .

﴿ ومن ضل فقل إنما أنا من المنـذِرين ﴾ أي ومن ضل وأخطأ طريق الحق والإيمان والرشاد ، وكذب بـدعوتي وبمـا جـاءني من عنـد الله وهو القرآن ، فعليـه وزر ضلالـه ، وإنمـا أنـا من المنـذرين المخوفين قـومهم عـذاب الله ، وليس علي إلا الإنـذار والتبليـغ ، وقـد أديت المهمـة وأبلغتكم مـا يـوحى إلي ، وخلصت من العهـدة ، وحسـابكم على الله ، كما قـال تعـالى : ﴿ فـإنّما عليـك البَـلاغُ ، وعلينـا الحِساب ﴾ [الرعد ٤٠/١٣] وقال : ﴿ إنمـا أنت نـذيرٌ ، واللهُ على كل شيءٍ وكيلٌ ﴾ [هود ١٢/١١] .

﴿ وقل : الحمـد لله ، سيريكم آيـاتـه فتعرفـونهـا ﴾ أي وقـل أيهـا الرسـول : لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليـه ، ولله الحمـد على مـاأنعم علي من نعمـة النبوة ، وعلى مـاعلّمني ووفقني لتحمل أعبـاء الرسـالـة

والعمل بما أنزل علي ، وإنه سبحانه سيريكم آياته الدالة على عظمته وحكمته وقدرته وأمارات عذابه وسخطه ، ويتبين لكم صدق دعوتي ، فتعرفون كل ذلك ، ولكن حين لا ينفعكم الإيمان .

ونظير الآية : ﴿ سنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم ، حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ ، أو لم يَكْفِ بربِّك أنه على كل شيءٍ شهيدٌ ﴾ [فصلت ٥٣/٤١] .

﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ وما الله بغافل عما يعمله المشركون وغيرهم ، بل هو شهيد على كل شيء ، ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل على وفق إرادته وحكمته . وهذا تقرير لما سبق من الوعد والوعيد ، وتبشير للنبي بأن الله ناصره ومخزي أعدائه الكافرين .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس لا يَغْتَرنَّ أحدكم بالله ، فإن اللهَ لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والْخَرْدلة والذرّة » . وروى أيضاً عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مُغْفِلاً شيئاً لأغفل ماتُعْفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

فقه الحياة أو الأحكام :

أمر النبي ﷺ ومثله أمته في هذه الآيات بأوامر ثلاثة هي :.

أ ـ تخصيص الله وحده بالعبادة دون اتخاذ شريك له . ووصف الله نفسه بأمرين :

أحدهما ـ أنه رب هذه البلدة أي مكة ، واختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها ؛ لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه ، وأشار إليها إشارة تعظيم لها ، دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه .

وقد حرمها لتحريمه فيها أشياء على من يحج ، ولأن اللاجئ إليها آمن ،

ولأنه لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ، ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها .

والثاني ـ ﴿ وله كل شيء ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً ، فهو خالق لجميع النعم ، ومالك جميع من في الكون ، ومتصرف بملكه كما يشاء ، جلّ جلاله .

٢ ـ أن يكون من المسلمين : أي المنقادين لأمره ، الموحّدين له .

٣ ـ أن يتلو القرآن ، أي يقرأه لنفسه وعلى الناس لتبليغهم إياه . فمن اهتدى في هذه الأصول الثلاث المقررة في هذه السورة وهي التوحيد والحشر والنبوة فله ثواب هدايته ، ومنفعة اهتدائه راجعة إليه ، ومن ضل أو انحرف عن هذه الأصول ، فما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين ، وما هو إلا رسول منذر من جملة المنذرين ، أي المخوفين قومهم من العذاب .

ثم ختم تعالى السورة بهذا التوجيه الحميد لرسوله ﷺ ولكل مؤمن وهو أن يحمد الله على نعمه وعلى هدايته ، والله تعالى سيُري خلقه آياته في أنفسهم وفي غيرهم ، فيعرفون بها دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسهم وفي السموات وفي الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات ٥١/٢٠ـ٢١] .

والله شهيد على كل شيء ، وليس هو بغافل عما يعمله الخلائق أجمعون ، فيجازيهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص

مكية ، وهي ثمان وثمانون آية

تسميتها :

سميت سورة (القَصَص) لما فيها من البيان العجيب لقصة موسى عليه السلام من حين ولادته إلى حين رسالته ، التي يتضح فيها أحداث جسام ، برز فيها لطف الله بالمؤمنين وخذلانه الكافرين . ثم ذكر فيها قصة قارون من قوم موسى المشابهة للقصة الأولى في تقويض أركان الطغيان ، طغيان السلطة عند فرعون ، وطغيان المال عند قارون .

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لسورتي النمل والشعراء في أنها تفصيل لما أوجز فيهما من قصة موسى عليه السلام ، مبتدئاً ببيان استعلاء فرعون وظلمه ، وذبحه أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم ، خوفاً عليه من الذبح ، ثم انتشال فرعون له وتربيته في قصره عنده إلى سن الشباب ، حيث حدثت حادثة قتله القبطي ، التي استوجبت فراره من مصر إلى مدين ، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام ، ثم مناجاته ربه وبعثه إياه رسولاً ، وما تبع ذلك .

كذلك فصلت هذه السورة موقف القرآن من توبيخ المشركين على إنكارهم يوم القيامة ، من خلال الإخبار بإهلاك الكثيرين من أهل القرى بسبب ظلمهم ، والتساؤل عن شركاء الله يوم القيامة وما يدور بينهم وبين عَبَدتهم من

نقاش انتهى بتبرئهم من عبادتهم ، وإيراد الأدلة المتضافرة لإثبات قدرة الله على الخلق والإيجاد والبعث والإعدام .

كما أن هناك ربطاً من وجه آخر بين سورتي النمل والقصص ، فقد أوجز هنا مافُصّل في السورة المتقدمة من إهلاك قوم صالح وقوم لوط ، ومن بيان مصير من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة .

مااشتملت عليه السورة :

تلتقي هذه السورة مع ماسبقها من سورتي الشعراء والنمل في بيان أصول العقيدة : التوحيد والرسالة والبعث في ثنايا قصص الأنبياء ، وإيضاح الأدلة المثبتة لهذه الأصول في قضايا الكون وعجائبه البديعة ونظمه الفريدة .

وكان الطابع الغالب على هذه السورة تبيان قصة موسى مع فرعون التي تمثل الصراع بين طغيان القوي وضعف الضعيف ، لكن الأول على الباطل والثاني على الحق ، وأعوان الباطل هم جند الشيطان وأعوان الحق هم جند الرحمن .

كان فرعون معتمداً على سلطانه وقوته وثروته ، فطغى وبغى ، واستعبد شعب بني إسرائيل ، وزاد في غلوه أنه ذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وادعى الربوبية ﴿ ماعلمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص ٣٨/٢٨] وأفسد في الأرض .

واستوجب ذبح الأطفال إلقاء موسى في اليم ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه ، ثم تربيته في قصر فرعون ، إلى أن بلغ أشده وصار رشيداً قوياً ، فقتل قبطياً قتلاً خطأ ، فهرب من مصر إلى أرض مدين ، فتزوج بابنة شعيب عليه السلام ، ومكث راعياً ماشيته عشر سنين ، ثم عاد إلى مصر ، فناجى ربه في الطور ، وأيده الله بمعجزات أهمها معجزة العصا واليد ، فبلغ رسالة ربه ، لكن كذبه فرعون وقومه علواً واستكباراً ، فأغرقهم الله في البحر .

وذلك شبيه بإنكار قريش نبوة الرسول محمد ﷺ مع ماجاءهم به من الحق ، فوصفوه بالسحر المفترى ، وتنكروا للإيمان برسالته بأعذار واهية ، فأنذرهم القرآن بعذاب مماثل لقوم فرعون ، وأبان لهم أن الله لا يعذب قوماً إلا بعد إرسال رسول إليهم ، وأن الرسول باختيار الله تعالى لا بحسب أهواء المشركين ، وأن آلهتهم المزعومة ستتبرأ من عبادتهم يوم القيامة ، وأن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له ، وأنه القادر على بعث الأموات ، كما قدر على بدء الخلق ، وإيجاد تعاقب الليل والنهار . وسيشهد الأنبياء على أممهم بتبليغ رسالات ربهم ، وقد آمن جماعة من أهل الكتاب ، وسيعطون أجرهم مرتين ، وأن الهداية بيد الله تعالى ، لا بيد رسوله ، فلن يتمكن من هداية من أحب .

وأعقب ذلك بقصة مشابهة هي قصة قارون من قوم موسى واعتماده على طغيان الثروة والمال كاعتماد فرعون على طغيان السلطة والحكم ، فكان مصيره أشأم من مصير فرعون وهو الخسف به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه وما كان من المنتصرين .

وكل من خبر القصتين برهان قاطع على صحة نبوة محمد ﷺ ؛ لأنه لم يكن حاضراً معهم ، ولم يتعلم ذلك من معلم .

وختمت القصتان بإعلان مبادئ :

أولها ـ أن ثواب الآخرة يكون للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وثانيها ـ أن الإيمان بالله وباليوم الآخر هو طريق السعادة الموجب لمضاعفة الحسنات ومقابلة السيئات بجزاء واحد ، وتحقيق النصر لرسول الله ﷺ على أعدائه ، وعودته إلى مكة فاتحاً بعد تهجيره منها .

وثالثها ـ بيان نهاية العالم كله وهي الهلاك الشامل ، وانفراد الله تعالى بالبقاء والدوام ، والحكم والحساب ، ورجوع البشر كافة إليه : ﴿ كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهَه ، له الحُكْم وإليه تُرْجعون ﴾ ونحوها : ﴿ كل من عليها فانٍ ، ويَبْقى وَجْه ربّك ذو الْجَلال والإكرام ﴾ [الرحمن ٢٦/٥٥ ـ ٢٥] .

قصة موسى عليه السلام

ـ ١ ـ

نصرة المستضعفين

طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦

الإعراب :

﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ ﴿ أهلها ﴾ و ﴿ شيعاً ﴾ مفعولا ﴿ جعل ﴾ ؛ لأنه بمعنى (صيّر) .

﴿ يستضعف ﴾ الجملة حال من فاعل ﴿ جعل ﴾ أو صفة ﴿ شيعاً ﴾ أو استئناف كلام جديد . و ﴿ يذبح أبناءهم ... ﴾ بدل منه .

﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ الهاء والميم مفعولا (جعل) لأنه بمعنى (صيّر) .

﴿ ونُري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحْذرون ﴾ فرعون وما عطف عليه : مفعول أول لـ ﴿ نُري ﴾ وهو من رؤية البصر ، وهو في الأصل يتعدى إلى مفعول واحد ، فلما تعدى بالهمزة صار متعدياً إلى مفعولين ، والمفعول الثاني هو : ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ .

البلاغة :

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبة القرآن في الكمال .

﴿ ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا ﴾ ﴿ نريد ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار تلك الصورة في الذهن ؛ لأن ذلك معطوف على جملة ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ من حيث إنها واقعان تفسيراً للنبأ . وإرادة المنة بخلاصهم من فرعون هي في المستقبل ، فلا يمنع ذلك إرادة استضعافهم في الماضي ، ولما كانت الإرادة الأولى قريبة الوقوع من الثانية جعلت كالمقارنة لها .

المفردات اللغوية :

﴿ طسّمّ ﴾ تقرأ : طا ، سين ، ميم ، بمد السين والميم وإدغام النون في الميم . وهذه الحروف المقطعة وأمثالها كما بينا مراراً للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ، فكون العرب أساطين البيان ، وفرسان الفصاحة والبلاغة ، عجزوا عن معارضته ، دليل على أنه فوق مستوى البشر ، وأنه من لدن حكيم حميد ، إله الكون أجمعين . ﴿ تلك ﴾ هذه الآيات . ﴿ آيات الكتاب ﴾ الإضافة بينهما بمعنى (من) . ﴿ المبين ﴾ المظهر الحق من الباطل .

﴿ نتلو ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل ، ويجوز أن يكون بمعنى (نتزله) مجازاً . ﴿ نبأ ﴾ خبر مهم ، وقوله : ﴿ من نبأ موسى وفرعون ﴾ معناه بعض نبئهما . ﴿ بالحق ﴾ الصدق . ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأجلهم ، وخص المؤمنون ؛ لأنهم المنتفعون به . ﴿ علا ﴾ تجبر واستكبر ، وقوله : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي أرض مصر : استئناف مبين لذلك البعض ، أي بعض خبر موسى وفرعون . ﴿ شيعاً ﴾ فرقاً وأصنافاً يستخدمهم في أعماله من بناء وحفر وحرث ونحو ذلك من مشاق الأعمال ، ويؤلب بعضهم على بعض ، زارعاً بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا . ﴿ يستضعف ﴾ يجعلهم ضعفاء مقهورين ، وهم بنو إسرائيل . ﴿ يذبّح أبناءهم ﴾ المولودين . ﴿ ويستحيي نساءهم ﴾ يبقي نساءهم أحياء ، وسبب هذا الفعل أن كاهناً قال لفرعون : يولد مولود في بني إسرائيل ، يذهب ملكك على يده ، وذلك كان من غاية حمقه ، فإنه لو صدّق لم يندفع الأمر بالقتل ، وإن كذب فما الداعي لما فعل ؟!

﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ بالقتل وغيره ، فاجتراً على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد . ﴿ أن نَمُنَّ ﴾ نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه . ﴿ أئمة ﴾ قادة يقتدى بهم في الخير في أمر الدين والدنيا . ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ ملك فرعون وقومه . ﴿ ونمكّن لهم في الأرض ﴾ أرض مصر والشام ، والتمكين : يراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها . ﴿ وهامان ﴾ وزير فرعون . ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ يخافون من المولود الذي يذهب ملكهم على يديه .

التفسير والبيان :

﴿ طسّمّ ﴾ بيّنت المراد بهذه الحروف في المفردات .

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات من الكتاب الواضح الجلي الكاشف لحقائق أمور الدين ، وما كان وما يكون .

﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه حقاً وصدقاً كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر ، من أجل قوم يصدقون برسالتك وبما أنزل إليك من ربك ، فتطمئن به قلوبهم ، كقوله تعالى : ﴿ نحن نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ ﴾ [يوسف ٣/١٢] .

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شيئاً أو بعضاً من قصة موسى وفرعون ، للعبرة والعظة ، وإقامة الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ ، وأن هذا القرآن العظيم وحي يوحى ، وليس من وضع البشر .

وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أن القرآن للناس أجمعين للإشارة إلى أن الانتفاع به لا يكون إلا لمن صدق بأنه كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ .

﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي إن فرعون ملك مصر تجبر في أرضها واستكبر ، وبغى وطغى وقهر أهلها .

﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي جعل أبناء مصر فرقاً وأحزاباً مختلفة ، وسخر كل طائفة في مصالحه العمرانية والزراعية وغير ذلك من أمور دولته ، وبذر بينهم بذور الفتنة والعداوة والبغضاء ، حتى لا يتفقوا ، أخذاً بسياسة المستعمر : « فرّق تسد » .

وهذا مضاد لسياسة الإسلام ـ بالمعنى العام ـ والهدي الإلهي كله القائم على التأليف والتجميع على قلب واحد ، وإشاعة روح المحبة والتسامح والود والوئام

والصفاء بين الرعية ، وهذا في الواقع هو المبدأ الأمثل الذي يريح الحاكم ، ويقوّي الأمة ، ويبني أمجادها ، ويحقق لها الانتصارات المتلاحقة .

﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ أي يجعل جماعة منهم أذلة مقهورين ، وهم بنو إسرائيل . ومظاهر الاستضعاف هي :

﴿ يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ أي يقتل مواليدهم الذكور ، ويُبقي إناثهم أحياء ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من وجود غلام منهم كان فرعون وأهل مملكته قد تخوفوا من ظهور غلام منهم يكون سبب هلاكهم وذهاب دولتهم على يديه ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجّمون له ذلك ، أو رأى رؤيا ، فعبّرت كذلك .

قال الزجّاج : العجب من حمقه ، لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر ، فيقتل بلا ذنب ، وينشر الرعب والإرهاب بلا مسوغ ، وهذا شأن الظلمة العتاة الذين يستبد القلق والاضطراب في نفوسهم ، فيرتكبون مثل هذه الفظائع . ولو شعروا يوماً أو أكثر بالطمأنينة والراحة ، ونشر عليهم الإيمان أجنحته وظلاله الوادعة ، لعاشوا في استقرار وأمان ، ولم يعيثوا في الأرض فساداً ، ولما احتاجوا إلى مثل هذا العسف والظلم المؤذن بدمارهم .

وبعد أن ذكر تعالى هذه الصفات الخمس الذميمة للعتاة وهي الاستعلاء في الأرض ، والاستضعاف ، وقتل الأبناء ، وإبقاء الإناث ، والإفساد ، ذكر في مقابلها خصائص خمساً للمستضعفين من بني إسرائيل وهي : إنقاذهم من الظلم ، وجعلهم القادة بعد فرعون وقومه ، وجعلهم ورثة مصر والشام ، وجعل السلطة لهم فيها ، وإظهار ما كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما من دمارهم وذهاب

ملكهم على يد بني إسرائيل ، فقال تعالى :

١ ـ ﴿ ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ﴾ أي وأردنا التفضل والإنعام على المستضعفين من بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وأذلهم بتخليصهم من بأسه ، وإنقاذهم من ظلمه .

وتساءل الزمخشري بقوله : كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم ، وإذا أراد الله شيئاً كان ، ولم يتوقف إلى وقت آخر ؟ ثم أجاب عنه بأنه لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم .

٢ ـ ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أي ونجعلهم قادة وولاة وحكاماً متقدمين في الدين والدنيا .

٣ ـ ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ الذين يرثون ملك فرعون وأرضه وما في يده ، كقوله تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعفَون مشارِقَ الأرضِ ومغاربَها التي باركنا فيها ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧] وقوله سبحانه : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء ٥٩/٢٦] .

٤ ـ ﴿ ونُمكّن لهم في الأرض ﴾ أي نجعل لهم السلطة وإنفاذ الأمر وإطلاق الأيدي في أرض مصر والشام .

٥ ـ ﴿ ونُري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ أي نجعلهم يبصرون ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل . وقد أنفذ الله أمره ، وحقق حكمه ، بأن جعل دمار فرعون وقومه على يد من رباه وأنشأه على فراشه وفي داره ، وعلى سفرته وطعامه بعد أن جعله الله رسولاً وأنزل عليه التوراة ؛ ليعلم أن رب السموات والأرض هو القاهر الغالب على أمره ، الذي ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

والواضح أن هذه الخصائص تكون مادام بنو إسرائيل عاملين بأصل شريعتهم وبكتابهم المنزل غير المبدل ولا المحرف ، والذي فقد ولم يعد له وجود ، ومضمون التوراة في الوضع الأصلي يلتقي مع مضمون القرآن ، فإذا ما انحرفوا عن العقيدة الصحيحة والشريعة المنزلة ، زالت عنهم هذه الخصائص .

فقه الحياة أو الأحكام :

تبين من الآيات ما يأتي :

١ ـ القرآن العظيم أبان الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد ﷺ ، ولا ينتفع من هديه إلا القوم المصدقون به ، الذين يعلمون أنه من عند الله .

٢ ـ يجب اجتناب الاستعلاء في الأرض ، والتعزز بكثرة الأتباع ، وهما من سيرة فرعون وقارون . وكانت قصتهما حجة على مشركي قريش وأمثالهم ، فكما أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، فكذلك قرابة قريش لمحمد ﷺ .

٣ ـ كان علو فرعون وتجبره من كفره ، وكانت ممارسات ظلمه وعتوه كثيرة متنوعة ، فكان يستذل طائفة من بني إسرائيل ، يذبح أطفالهم الذكور ، ويترك الإناث أحياء ، إهانة لهم واحتقاراً ، وكان من البغاة المفسدين في أرض دولته . والظلم والكبرياء سبيل الدمار والهلاك ، فأهلكه الله ، ونجّى بني إسرائيل من العسف والطغيان .

٤ ـ كافأ الله المستضعفين من بني إسرائيل ، وشأنه دائماً الرفق بالضعفاء ، فأنقذهم من بأس فرعون ، وجعلهم ولاة وملوكاً ، كما قال تعالى : ﴿ وجَعَلكم مُلوكاً ﴾ [المائدة ٥/٢٠] ، وورّثهم ملك فرعون فسكنوا مساكن القبط المصريين ، كما قال سبحانه : ﴿ وتَمّت كلمةُ ربّك الْحُسنى على بني إسرائيل بما صَبَروا ﴾ [الأعراف ٧/١٣٧] ، وأقدرهم على أرض مصر والشام وأهلها ، فاستولوا عليها ، وأراد

أن يري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخافون من تدمير ملكهم على يد مولود من بني إسرائيل ، فلم يُفده قتل الألوف من الأولاد الأبرياء ، وتحقق مراد الله تعالى ، فهو النافذ الحكم والسلطان على الإطلاق .

ـ ٢ ـ

إلقاء موسى في اليم بعد ولادته وإرضاعه والبشارة بنبوته

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

الإعراب :

﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون .. ﴾ اللام في ﴿ يكون ﴾ يسميها البصريون لام العاقبة ، أي كان عاقبة التقاطهم العداوة والحزن ، وإن لم يكن التقاطهم له لها . ويسميها الكوفيون لام الصيرورة ، أي صار لهم عدواً وحزناً ، وإن التقطوه لغيرهما .

﴿ قرّةُ عين .. ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو قرة عين ، وإما مبتدأ ، وخبره : ﴿ لاتقتلوه ﴾ .

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ الجملة حال من الملتقطين .

﴿ إن كادت ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي إنها .

﴿ بلغ اشدّه ﴾ إما جمع شِدّة كنعمة وأنعُم ، وإما جمع شَدّ ، نحو قدّ وأقُدّ ، وإما واحد مقرد ، وليس في الأسماء المفردة ماهو على وزن أفعُل إلا « أصبُغ » و « آجُر » و « أيُمن » وآنُك : وهو الرصاص المذاب الخالص .

البلاغة :

﴿ إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ عبر بالجملة الاسمية عن الفعلية : سنرده ونجعله ، للاعتناء بالبشارة ؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار .

﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ استعارة ، شبه ماألقى في قلبها من الصبر بربط الشيء خشية ضياعه ، مستعيراً لفظ الربط للصبر .

﴿ لاتقتلوه ﴾ خاطبت امرأة فرعون زوجها بصيغة الجمع بدل صيغة المفرد « لاتقتله » للتعظيم .

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ﴿ وهم له ناصحون ﴾ ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ توافق الفواصل من المحسنات البديعية .

المفردات اللغوية :

﴿ وأوحينا ﴾ وحي إلهام ، مثل ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ [النحل ٦٨/١٦] أو وحي منام . ﴿ أن أرضعيه ﴾ ما أمكنك إخفاؤه . ﴿ فإذا خِفْت عليه ﴾ بأن يُحسّ به أحد . ﴿ اليم ﴾ البحر أي النيل . ﴿ ولا تخافي ﴾ غرقه . ﴿ ولا تحزني ﴾ لفراقه ، والخوف : غم لتوقع مكروه في المستقبل ، والحزن : غم يحدث بسبب مكروه حصل . ﴿ إنا رادّوه إليك ﴾ عن قريب بحيث تأمنين

عليه . ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ بشارة بالرسالة والنبوة . فأرضعته ثلاثة أشهر ، ولما ألح فرعون في طلب المواليد وأرسل الجواسيس للبحث ، وضعته في تابوت مطلي بالقار من الداخل ، وألقته في بحر النيل ليلاً . ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ الالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ولا إرادة . أي التقط أعوان فرعون التابوت صبيحة الليل ، ووضعوه بين يديه ، ففتحه وأخرج موسى منه . ﴿ ليكون لهم ﴾ في عاقبة الأمر . ﴿ عدواً ﴾ ينقض لهم جذور تدينهم . ﴿ وحَزَناً ﴾ يزيل ملكهم ، وحَزَن : اسم فاعل من حزن كأحزن ، وقرئ « حُزْناً » .

﴿ وهامان ﴾ وزير فرعون . ﴿ خاطئين ﴾ آثمين عاصين ، من الخطيئة وهي هنا الشرك ، مأخوذ من خطئ : تعمد الخطأ . أما أخطأ : فمعناه لم يصب ، بغير تعمد . ﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ وقد همّ مع أعوانه بقتله . ﴿ قرة عين ﴾ أي هو قرة عين ، أي مصدر فرح وسرور ، يقال : قرّت به العين ، أي فرحت وسُرّت . ﴿ لا تقتلوه ﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم . ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع . ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أو نتبناه ، فإنه أهل له . ﴿ هم لا يشعرون ﴾ أي والحال أنهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه ، وأنهم مخطئون في التقاطه وفي طمع النفع منه .

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ أي خالياً من العقل ، لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون عدو بني إسرائيل ، مثل قوله تعالى : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ [إبراهيم ٤٣/١٤] أي لا عقول فيها . ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي لتظهر بأنه ابنها . ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بالصبر ، أي سكّناه وثبتناه . ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ المصدقين بوعد الله . وجواب ﴿ لولا ﴾ دل عليه ماقبله .

﴿ قُصّيه ﴾ اقتفي أثره وتتبعي خبره حتى تعلمي مصيره . ﴿ فبصرت به عن جُنُب ﴾ أي أبصرته عن بُعْد اختلاساً . ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لا يدرون أنها أخته وأنها ترقبه . ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ قبل رده إلى أمه ، أي منعناه أن يرتضع من المرضعات ، فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له . ﴿ فقالت ﴾ أخته . ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ﴾ أي يتكفلون أو يضمنون إرضاعه والقيام بشؤونه لأجلكم . ﴿ وهم له ناصحون ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته . ﴿ كي تقر عينها ﴾ بلقائه . ﴿ ولا تحزن ﴾ حينئذ بفراقه . ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ لتعلم علم مشاهدة أن وعد الله برده إليها صدق . ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون بهذا الوعد ، ولا بأن هذه أخته وهذه أمه ، فمكث عندها إلى أن فطمته ، ثم تربى عند فرعون .

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ غاية نموه ، وهو مفرد جاء على وزن الجمع ، وبلوغ الأشد : من ثلاثين إلى أربعين سنة ، فإن العقل يكمل حينئذ . ﴿ واستوى ﴾ اكتملت أو نضجت قواه الجسدية والعقلية

ببلوغ أربعين سنة . ﴿ آتيناه حكماً ﴾ حكمة أي معرفة أسرار الشريعة . ﴿ وعلماً ﴾ فقهاً في الدين . ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي كما جزيناه نجزي المحسنين لأنفسهم .

التفسير والبيان :

بعد بيان منة الله على بني إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون في قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا ﴾ ابتدأ تعالى بذكر أوائل نعمه عليهم فقال : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ أي وألهمنا أم موسى إرضاعه ما أمكنها إخفاؤه عن العدو ، فأرضعته ثلاثة أو أربعة أشهر كما يقال .

﴿ فإذا خفت عليه ، فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ﴾ أي فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته ، فألقيه في بحر النيل ، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان ، وغير ذلك من المخاوف ، ولا تحزني لفراقه . وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر ، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها ؛ لأن عناية الله ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة .

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدت فيه مهداً ، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وألقته في النيل ، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه ، حتى مرّ به على دار فرعون ، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ، فلما كشفت عنه ، أوقع الله محبته في قلبها ، فآثرت الإبقاء عليه ، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها .

﴿ إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له ، وسنجعله نبياً مرسلاً إلى أهل مصر والشام .

وقد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين والأمران : هما أرضعيه وألقيه ، والنهيان : هما ﴿ ولا تخافي ولا تحزني ﴾ ، والخبران : هما ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه ﴾ ، والبشارتان : في ضمن الخبرين ، وهما الرد والجعل من المرسلين .

﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحَزَناً ﴾ أي فأخذه أهل فرعون ، لتكون عاقبة أمره أن يكون عدواً لهم بمجاهدته بمخالفة دينهم ، وموقعاً لهم في الحزن بإغراقهم وزوال ملكهم .

ولام ﴿ ليكون ﴾ لام العاقبة ، وليست لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا قطعاً بالتقاطه ذلك ، ولكن الله جعل دمارهم بما صنعت أيديهم ، فالتقطوه وربوه ، ليكون في نهاية أمره سبباً لمأساتهم وتحقق ماتوقعوه من زوال ملكهم . قال الرازي : واعلم أن التحقيق ماذكره صاحب الكشاف وهو أن هذه اللام هي لام التعليل ، على سبيل المجاز دون الحقيقة ؛ لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره ، فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه ، فإن اتخاذه عدواً لم يكن سبب التقاطهم له ، ولكن شبهت المحبة والتبني بالسبب الذي يؤدي إلى الفعل ، ويفعل الفعل لأجله ، كاستعارة الأسد للرجل الشجاع .

وسبب ذلك على يد موسى عليه السلام هو ماقاله تعالى :

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أي إن هؤلاء كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم الله بأن ربّى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، فهو من الخطيئة أي الإثم ، ويصح أن يكون من الخطأ فإنهم كانوا مخطئين في كل شيء ، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم . قال الحسن البصري : معنى ﴿ كانوا خاطئين ﴾ ليس من الخطيئة ، بل المعنى : وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم .

أما جمهور المفسرين فقالوا : معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم ، فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، كما ذكرنا .

وأما سبب عدم قتله فهو تشفع امرأة فرعون له ، فقال تعالى :

﴿ وقالت امرأة فرعون : قرّه عين لي ولك ، لاتقتلوه ﴾ أي قالت زوجة فرعون له : هو قرة عين لنا أي يكون لنا سلوى ، وتقرُّ به عيوننا ، وتفرح به نفوسنا ، فلا تقتلوه ؛ لأن الله تعالى ألقى عليه المحبة ، فكان يحبه كل من شاهده عليه السلام ، كما قال سبحانه : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى ، أن اقذفيه في التابوتِ ، فاقذِفيه في اليمِّ ، فَلْيُلْقِه اليمُّ بالساحلِ يأخذْه عدوّ لي وعدوّ له ، وألقيتُ عليك محبةً مني ، ولتُصْنَعَ على عَيْني ﴾ [طه ٣٨/٢٠ ـ ٣٩] .

وكما هو مصدر سرور وسكن وسلوى قد يكون نافعاً :

﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وهم لا يشعرون ﴾ أي لعله يكون سبباً للنفع والخير ، لما رأيت فيه من مخايل اليمن وأمارات النجابة ، أو نتخذه ولداً ونتبناه ، لما يتمتع به من الوسامة والجمال ، ولم يكن لها ولد من فرعون ، فحقق الله أملها بأن هداها به وأسكنها الجنة بسببه ، ولكن لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم بسببه وعلى يده ، وأنه سيظهر على يديه من الحكمة والحجة ومعجزة النبوة ماسيكون سبباً في تكذيبهم له ، مما يؤدي إلى هلاكهم ، فالله تعالى وحده عالم الغيب والشهادة ، ينصر رسله ، ويؤيد دينه ، ويخذل أعداءه ، ليكون ذلك عبرة وعظة للمؤمن والكافر .

وإذا كان الفرح غمر قلب آسية امرأة فرعون ، فإن الوساوس والهواجس ألمت بقلب أمه ، فقال تعالى :

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها ، لتكون من المؤمنين ﴾ أي أصبح فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر فارغاً من كل شيء من شواغل الدنيا إلا من موسى ، كما أنه طار عقلها ، وسيطر عليها الخوف والفزع ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ، وكادت من شدة حزنها وأسفها أن تظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها أنها أمه ، لولا أن الله ثبّتها وصبّرها ، لتكون من المصدقين الواثقين بوعد الله برده إليها : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ .

والخلاصة : لولا تثبيتُ الله قلبها وتصبيره إياها لكشفت أمرها ، وباحت بسرها ، وأظهرت أنه ابنُها ، بحكم العاطفة والشفقة ، فألهمها الله أن تتعرف خبره بأخته :

﴿ وقالت لأخته : قصّيه ، فبصرت به عن جُنُب ، وهم لا يشعرون ﴾ أي وقالت أم موسى لابنتها الكبيرة التي تعي ما يقال لها : تتبعي أثره ، وتعرفي خبره ، واطلبي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك ، فهداها الله لمقرّ وجوده في بيت فرعون ، وأبصرته عن بُعْد أو من بعيد ، وهم لا يحسون بأنها تتعقبه ، وتتعرف حاله ، وأنها أخته .

وتتابعه عناية الله ويسوقه القدر إلى إرجاعه لمهد أمه ، فقال تعالى : ﴿ وحرّمنا عليه المراضِعَ من قَبْلُ ، فقالت : هل أدلُّكم على أهْلِ بَيْت يَكْفُلُونه لكم ، وهم له ناصحون ﴾ ؟ أي ومنعنا موسى أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه قبل رده إلى أمه وقبل مجيء أخته ، لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، والتحريم : استعارة للمنع ؛ لأن من حَرُم عليه الشيء فقد مُنعه . فقالت أخته لما رأت ارتباكهم واهتمامهم برضاعه : أتريدون أن أدلكم على أهل بيت يتكفلون بشأنه وإرضاعه وتربيته ، وهم حافظون له ، ناصحون ، يعنون بخدمته والمحافظة عليه ؟

قال ابن عباس : فلما قالت ذلك ، أخذوها وشكّوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته ، أي عطائه ، فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها ، فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاء جزيلاً ، وهي لاتعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها .

ثم سألتها آسية أن تقيم عندها ، فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكُسا والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً ، في عز وجاه ورزق دارّ[1] .

جاء في الحديث : « مَثَل الذي يعمل ويحتسب في صَنْعته الخير كمثل أم موسى ، ترضع ولدها ، وتأخذ أجرها » .

﴿ فرددناه إلى أمّه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي فأرجعناه إلى أمه بعد التقاط آل فرعون له ، من أجل أن تقر عينها بابنها وتسرّ بوجوده لديها وسلامته عندها ، ولا تحزن عليه بفراقه ، ولتتيقن أن وعد الله فيما وعدها من رده إليها حق لاشك فيه حين قال لها : ﴿ إنا رادُّوه إليكِ ، وجاعِلُوه من المرسلين ﴾ فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن رسولاً ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً من كمال الأخلاق .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكم الله في

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٢/٣

أفعاله وعواقبها المحمودة في الدنيا والآخرة ، فربما كان الأمر كريهاً إلى النفوس في الظاهر ، محمود العاقبة في الحقيقة ونفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وعسى أن تَكْرهوا شيئاً ، وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ﴾ [البقرة ٢١٦/٢] وقال تعالى : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويَجْعَل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء ١٩/٤] .

﴿ ولما بلغ أشده واستوى ، آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي ولما اكتملت قواه الجسدية والعقلية آتيناه الحكمة والعلم وفقه الدين وعلم الشريعة ، ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه نجزي المحسنين على إحسانهم . وقد رجح الرازي أن المراد بالحكم هنا الحكمة والعلم ، لا النبوة[٢] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

أ ـ قد يطلق الوحي على الإلهام ؛ لأن الوحي لا يكون إلا لنبي ، وقد أجمع العلماء على أن أم موسى وأم عيسى لم تكن واحدة منهما نبية ، وإنما ذلك من قبيل الإلهام ، كإلهام النحل اتخاذ البيوت .

وقد ألهم الله أم موسى بعد ولادته أن ترضعه ، فإذا خافت عليه من القتل ألقته في البحر ، دون خوف عليه من الغرق ولا حزن على فراقه ، فإن الله تكفل برده إليها وبجعله من الأنبياء المرسلين إلى أهل مصر .

٢ ـ قد يقصد الإنسان شيئاً ويحدث شيء آخر ، فإن أهل فرعون التقطوا موسى الصغير ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً ، ولله في خلقه شؤون .

---

(١) تفسير الرازي ٢٣٢/٢٤

٣ ـ كان إنقاذ موسى من البحر سبباً في إسعاد الناس برسالته وإنزال التوراة عليه ، وهداية آسية امرأة فرعون إلى الإيمان بالله تعالى ، بعد أن أقنعت زوجها فرعون بإبقائه وعدم قتله رجاء أن يكون مصدر نفع لهم أو أن يتبنوه ، علماً بأنها كانت لاتلد ، فاستوهبت موسى من فرعون ، فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه ، قالوا له : إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً ، فولد هارون في عام الاستحياء (إبقاء الأولاد) وولد موسى في عام الذبح . يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبياً صغيراً ، فرحمته وأحبته ، فقالت لفرعون : ﴿ قرّة عين لي ولك ﴾ .

٤ ـ لا يشعر الناس بتدبير الله وتخطيطه ، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات فقال تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ [٩] أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه ، ثم كرر تعالى ذلك في الآية [١١] ثم قال : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

٥ ـ هجمت الوساوس والمخاوف والهواجس على قلب أم موسى ، وطار عقلها لوقوع ابنها في يد فرعون عدو الإسرائيليين ، وقاربت أن تظهر أمره لولا أن ثبّتها الله وصبّرها وملأ قلبها بالإيمان والاطمئنان والسكينة ، لتكون من المصدقين بوعد الله حين قال لها : ﴿ إنا رادُّوه إليك ﴾ .

٦ ـ كان لأخت موسى الذكية الحصيفة مريم بنت عمران كاسم مريم أم عيسى عليه السلام دور طيب ناجح في إقناع حاشية فرعون وامرأته بمن يقبل ثديها من النساء ، لحاجتها إلى عطاء الملك ، وطيبها وطيب رائحتها ، دون أن يشعروا أنها أخته ؛ لأنها كانت تمشي على ساحل البحر ، حتى رأتهم قد أخذوه ، فأرشدتهم بلباقة إلى أهل بيت يكفلونه ، وهم للملك ناصحون ، يحرصون على مسرّته ، ويطمعون في عطائه .

٧ ـ إن تدبير الله الخفي الذي لا يصلح غيره في أي شيء أشد نفاذاً وأنجح خطة من تدبير البشر ، فقد منع موسى الطفل من الارتضاع من قبل مجيء أمه وأخته ، ثم رده إليها ، وفاء بوعده لها ، وكان قد عطف الله قلب العدو عليه ، ولتعلم أن وعد الله حق ، أي لتعلم وقوعه ، فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون .

٨ ـ لم يؤت الله النبوة لأحد غير يحيى وعيسى عليهما السلام قبل بلوغ سن الأربعين الذي تكتمل فيه القوى العقلية والجسمية ، وتحقيق هذا في شأن موسى ، فإنه لما بلغ أشده ، أي غاية نموه ، ونضج وبلغ أربعين سنة آتاه الله النبوة والحكمة قبل النبوة والعلم والفقه في الدين ، يروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة .

وكما جزى الله موسى على طاعته وصبره على أمر ربه ، وجزى أم موسى لما استسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها في البحر ، وصدقت بوعد الله ، فرد ولدها إليها وهي آمنة ، ووهب له العقل والحكمة والنبوة ، كذلك يجزي كل محسن .

الخلاصة : أن هذا الفصل من قصة موسى عليه السلام بيان لما أنعم الله عليه في صغره من إنجائه من القتل والغرق في النيل ، وما أنعم عليه في كبره من إيتائه العلم والحكمة والنبوة والرسالة إلى بني إسرائيل والمصريين ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد مننّا عليك مرةً أخرى ، إذ أوحينا إلى أمّك ما يُوحى ، أن اقذفيه في التابوتِ فاقذفيه في اليمّ ، فليُلْقه اليمُّ في الساحلِ ، يأخذْه عدوّ لي وعدوّ له ، وألقيتُ عليك مَحبَّةً مني ولتُصنعَ على عيني ، إذ تمشي أختُك فتقول : هل أدلُّكم على من يكفُلُه ، فَرَجَعْنَاك إلى أُمّك كي تقرَّ عينُها ولا تحزنَ .. ﴾ [طه ٢٠/٣٧ ـ ٤٠] .

ـ ٣ ـ
قتل المصري خطأ وخروجه من مصر

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

الإعراب :

﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ أراد بالجملة حكاية حال كانت فيما مضى ، كقوله تعالى : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ [الكهف ١٨/١٨] فأعمل اسم الفاعل ، وإن كان للماضي ، على حكاية الحال . وقوله : ﴿ من عدوه ﴾ أي من أعدائه ، وعدو : يصلح للواحد والجمع .

﴿ خائفاً يترقب ﴾ خبر أصبح المنصوب . ويجوز أن يكون ﴿ في المدينة ﴾ خبرها ، و ﴿ خائفاً ﴾ حال منصوب . و ﴿ الذي ﴾ مبتدأ مرفوع ، وخبره إما ﴿ يستصرخه ﴾ وإما

﴿ فإذا ﴾ ويستصرخه في موضع نصب على الحال .

﴿ يسعى ﴾ صفة رجل ، أو حال منه إذا جعل : من أقصى المدينة صفة له .

البلاغة :

﴿ ربّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ استعطاف .

﴿ جبّاراً ﴾ ﴿ غوي ﴾ ﴿ مبين ﴾ صيغ مبالغة على وزن فعّال وفعيل . وكذلك ﴿ الغفور الرحيم ﴾ .

﴿ إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ بينهما طباق أي بين « جبار » وهو المفسد في الأرض وبين كلمة ﴿ المصلحين ﴾ .

﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ التأكيد بإن واللام ليناسب مقتضى الحال ، ليجد موسى مخرجاً .

المفردات اللغوية :

﴿ ودخل المدينة ﴾ أي دخل موسى مصر آتياً من قصر فرعون ، وقيل : منف مدينة فرعون ، أو عين شمس من نواحي مصر . ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ أي في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه ، قيل : كان وقت القيلولة ، أو بين العشاءين . ﴿ من شيعته ﴾ إسرائيلي ، أي من حزبه وجماعته الذين شايعوه وتابعوه في الدين ، وهم بنو إسرائيل . ﴿ وهذا من عدوه ﴾ قبطي ، أي من مخالفيه في الدين ، وهم القبْط . ﴿ فاستغاثه ﴾ طلب منه الغوث والنصرة والإعانة ، ولذلك عدّي بعلى ، وقرئ : فاستعانه . ﴿ فوكزه ﴾ فضرب القبطي بجُمْع كفه أي بيده ، وكان شديد القوة والبطش ، وقرئ : فلكزه ، أي فضرب به صدره . ﴿ فقضى عليه ﴾ قتله خطأ ، فأنهى حياته ، ولم يكن قصد قتله ، ودفنه في الرمل .

﴿ هذا ﴾ أي قتله . ﴿ من عمل الشيطان ﴾ أي من تزيينه الذي هيج غضبي . ولا يقدح ذلك في عصمته ؛ لكونه خطأ ، وسماه ظلماً ،واستغفر منه ، لاستعظام الصغائر ، بل وكان ذلك قبل النبوة في عهد الشباب ، في سن دون الثلاثين ؛ لأنه أوحي عليه في سن الأربعين بعد زواجه بابنة شعيب في مدين ، ورعيه الماشية عشر سنوات . ﴿ إنه عدوّ ﴾ لابن آدم . ﴿ مضل ﴾ موقع في الضلال والخطأ . ﴿ مبين ﴾ ظاهر العداوة والإضلال .

﴿ قال ﴾ موسى نادماً . ﴿ ظلمت نفسي ﴾ بقتله . ﴿ فاغفر لي ﴾ فاستر ذنبي . ﴿ فغفَر له ﴾ باستغفاره . ﴿ الغفور ﴾ لذنوب عباده . ﴿ الرحيم ﴾ بهم . ﴿ ربّ بما أنعمت علي ﴾ أي بحق

إنعامك علي بالمغفرة اعصمني فهو استعطاف ، أو هو قَسَم محذوف الجواب ، أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن . ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أي فلن أكون معيناً لمن أجرم بعد هذه إن عصمتني .

﴿ خائفاً يترقب ﴾ ينتظر ما يناله من أذى أي استقادة أو قَوَد (قصاص) . ﴿ استنصره ﴾ طلب نصرة وعونه . ﴿ يستصرخه ﴾ يستغيث به على قبطي آخر . ﴿ غوي ﴾ ضال . ﴿ مبين ﴾ بيِّن الغواية . ﴿ فلما أن ﴾ زائدة . ﴿ يبطش ﴾ يضْرب بسطوة وقوة وصولة . ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ لموسى والمستغيث به . ﴿ قال ﴾ القبطي المصري ، أو قال الإسرائيلي المستغيث ؛ لأنه سماه غوياً ، فظن أنه يبطش به . ﴿ إن تريد ﴾ ماتريد . ﴿ جباراً في الأرض ﴾ تتطاول على الناس ولا تنظر العواقب . ﴿ من المصلحين ﴾ يبغون الإصلاح بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن . ولما قال هذا سمع القبطي ، وانتشر الحديث وبلغ الخبر إلى فرعون وملئه ، فعلم أن القاتل موسى ، فأخبر فرعون بذلك ، فأمر فرعون الذبّاحين بقتل موسى ، فهموا بقتله .

﴿ وجاء رجل ﴾ هو مؤمن آل فرعون . ﴿ أقصى المدينة ﴾ آخرها أو من أبعد جهاتها . ﴿ يسعى ﴾ يسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم . ﴿ إن الملأ ﴾ أشراف قوم فرعون . ﴿ يأتمرون بك ﴾ يتشاورون فيك ، وسميت المشاورة ائتماراً ؛ لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به . ﴿ فاخرج ﴾ من المدينة . ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ في الأمر بالخروج . واللام للبيان ، وليس صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول . ﴿ يترقب ﴾ يتلفّت يَمْنة ويَسْرة .

المناسبة :

بعد بيان ماأنعم الله به على موسى عليه السلام من إنجائه صغيراً من الذبح على يد فرعون ، وإيتائه الحكمة والعلم كبيراً تهيئة للنبوة ، ذكر ماأنعم به عليه من الخروج آمناً من مصر بعد قتله قبطياً مصرياً ، كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين .

التفسير والبيان :

﴿ ودخل المدينة على حينِ غفلة من أهلها ﴾ أي ودخل موسى المدينة التي كان يسكنها فرعون ، وهي قرية على بُعْد فرسخين من مصر ، هي - كما قال

الضحاك ـ عين شمس ، وذلك في وقت لا يتوقع دخوله فيها ، وهو إما وقت القيلولة في نصف النهار وقت الظهيرة والناس نيام ، أو ما بين المغرب والعشاء .

﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان ﴾ أي فوجد موسى في تلك المدينة رجلين يتضاربان ويتنازعان ، أحدهما إسرائيلي من حزبه وجماعته ، والآخر قبطي مصري مخالف لموسى في العقيدة والدين ، وهو طباخ فرعون ، كان قد طلب منه أن يحمل حطباً للمطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلي من موسى النجدة والعون على عدوه القبطي ، فضربه موسى بيده ، فقضى عليه ، أي كان الضرب مفضياً إلى الموت ، وواراه التراب ، دون أن يعلم بذلك أحد إلا الرجل العبراني الذي نصره موسى .

ثم ندم موسى على مافعل ، فقال : هذا الحادث من تزيين الشيطان وإغرائه .

﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ أي إن الشيطان عدو للإنسان ، مضل له أي موقع له في الضلال والخطأ ،بيّن العداوة والإضلال ، ثم تاب من فعله فقال : ﴿ قال : ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ أي قال موسى : يارب ، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل ، وهو قتل نفس بريئة ، فاستر لي ذنبي ، ولا تؤاخذني بما جنت يدي ، فإني أتوب إليك ، وأندم على فعلي .

وقد عدّ ذلك ذنباً ، لأن القتل لا يحل أصلاً ، وذلك معروف من شرائع الأنبياء المتقدمين . قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريداً للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه ، وإن هذا كان قبل النبوة .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق ! ماأسألكم عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « إن الفتنة تجيء من ههنا - وأومأ بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ ، فقال الله عز وجل : ﴿ وقتلت نفساً ، فنجيناك من الغمّ ، وفتناك فتوناً ﴾ » .

﴿ فغَفَر له ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي فعفا عنه وقبل توبته ، إنه تعالى الستار لذنوب عباده المنيبين إليه ، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة والإنابة ، فشكر موسى ربه :

﴿ قال : ربّ بما أنعمت علي ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أي قال موسى : يا رب اعصمني من الخطأ بحق ما أنعمت علي من المعرفة والحكمة والتوحيد ، ومن الجاه والعز والنعمة ، فلن أكون إن عصمتني معيناً لمن ظلم وأجرم وأشرك . أو أقسم بإنعامك علي بهذه النعم الكثيرة لأتوبن ، ولن أناصر المشركين .

قال القشيري : ولم يقل لما أنعمت علي من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحي ، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل .

وذكر الماوردي وغيره أن الإنعام بالمغفرة أو الهداية . قال القرطبي : ﴿ فغفرَ له ﴾ يدل على المغفرة ، والله أعلم .

وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، فتمسّكم النار ﴾ [هود ١١٣/١١] .

﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغويٌّ مبين ﴾ أي فصار موسى بعد حادثة قتل القبطي المصري خائفاً من أن يظهر أنه هو القاتل ، فيطلب به ، وصار يتلفت ويتوقع أن يقتل بسبب جنايته ، فسار في بعض الطرق متخفياً مستتراً ، فإذا ذلك الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على المصري ، يطلب منه العون والغوث على مصري آخر ، فقال له موسى : إنك ظاهر الغواية ، كثير الفساد والشر والضلال .

﴿ فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ، قال : ياموسى : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ أي فلما أراد موسى زجر عدوهما وهو القبطي ، قال له مستنكراً مستهجناً : أتريد الإقدام على قتلي كما قتلت نفساً البارحة ، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي ، قال الرازي : والظاهر هذا الوجه ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ، قال : ياموسى ﴾ فهذا القول إذن منه ، لا من غيره ، وأيضاً فقوله : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جَبَّاراً في الأرض ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولاً للكافر .

وقال بعضهم : لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي مبين ، ورآه على غضب ، ظن ـ لما همَّ بالبطش ـ أنه يريده ، لخوره وضعفه وذلته ، فقال هذا القول ، وصار ذلك سبباً لظهور القتل ومزيد الخوف ؛ لأنه لم يكن يعلم بحادثة الأمس غير هذا العبري ، فلما سمعها ذلك القبطي ، نقلها إلى فرعون ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى .

﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ أي ما تريد ياموسى إلا أن تكون قتَّالاً بطاشاً ، مستعلياً ، كثير الأذى في الأرض ، دون أن تنظر في العواقب ، ولا تريد أن تكون من أهل

الإصلاح الذين يفصلون في خصومات الناس بالحسنى والحكمة ، ولو كان أحد الخصوم من ذوي القربى أو العشيرة الواحدة .

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال : يا موسى ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون ، يخفي إيمانه عن الناس ، من أبعد مكان في المدينة ، يسرع ليخبر موسى بما دبره القوم من سوء له ، وقال : يا موسى ، إن فرعون وأشراف دولته يتشاورون فيك ، ويدبرون مؤامرة لقتلك ، فاخرج بسرعة من البلد ، إني لك ناصح أمين . ووصف بالرجولة لسلوكه طريقاً أقرب من طريق المبعوثين وراء موسى .

﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي فخرج موسى من مدينة فرعون خائفاً على نفسه يتلفّت ، ويترقب متابعة أحد له .

﴿ قال : ربِّ نجني من القوم الظالمين ﴾ أي قال موسى في هذه المحنة الشديدة : رب نجني من هؤلاء الظالمين : فرعون وملئه ، فاستجاب الله دعاه ونجاه ووصل إلى مدين ، كما قال تعالى : ﴿ وقتلتَ نَفْساً ، فنجَّيناك من الغمّ ، وفَتَنّاك فُتوناً ﴾ [طه ٤٠/٢٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وقوع حادثة قتل خطأ غير عمد من موسى عليه السلام .

٢ ـ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوَكْز (الضرب بجُمْع الكف مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين) ونسب الفعل إلى الشيطان ، وقال : رب ، إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغَفَر له ، وحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه ، قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ؛ ثم لم يزل عليه السلام يعدّد ذلك

على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه في القيامة يقول : إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها . وكان ذلك القتل قبل النبوة ، كما عرفنا .

والقتل الخطأ ذنب ، بدليل إيجاب الكفارة عليه في شرعنا ، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المألوفة ، قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمنٍ أن يقْتُلَ مؤمناً إلا خَطَأً ، ومن قَتَل مؤمناً خَطَأً فتحريرُ رَقَبةٍ مُؤْمنةٍ ، ودِيةٌ مسلَّمةٌ إلى أهلِه إلا أن يَصَّدَّقُوا ﴾ [النساء ٩٢/٤] .

٣ ـ كان من توابع توبة موسى عليه السلام من فعله أنه أقسم بما أنعم الله عليه ألا يظاهر ولا يعاون مجرماً .

ويصح أن يكون قوله : ﴿ ربِّ بما أنعمتَ علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ استعطافاً كأنه قال : رب اعصمني بحق ماأنعمت علي من المغفرة أو غيرها من النعم كالمعرفة والحكمة والتوحيد ، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً (معيناً) للمجرمين .

٤ ـ دلت آية ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة . قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ، ولا يكتب له ، ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين . وفي الحديث : « يُنادي منادٍ يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ، حتى من لاقَ لهم دواة ، أو بَرَى لهم قلماً ؟ فيُجمعون في تابوت من حديد ، فيُرمى به في جهنم » . وفي حديث آخر رواه الديلمي عن معاذ : « من مشى مع ظالم فقد أجرم » ويروى أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزلّ فيه الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام » .

٥ ـ دل قوله تعالى : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً ﴾ على أن الخوف غريزة

في النفس البشرية ، وإن كان المرء قوياً كموسى عليه السلام ، كما أن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه ، وهو أيضاً سبيل الأمان . وكان خوفه من الملاحقة والطلب ، فقد يؤخذ غِرَّة على حين غفلة .

٦ ـ يوصف الشرير بأنه غوي (خائب) مبين ، ويوصف القاتل بأنه جبار ، أي قتّال ، قال عكرمة والشعبي : لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق . والجبار : الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن .

٧ ـ إن الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين ، لذا بادر مؤمن آل فرعون وهو حزقيل بن صبور ، ابن عم فرعون إلى إخبار موسى عليه السلام بمكيدة فرعون وملئه له ، وأنهم يتشاورون في قتله بالقبطي الذي قتله بالأمس ، ونصحه بالخروج مسرعاً من مدينة فرعون أو من مصر .

٨ ـ شأن المؤمن دائماً أن يلجأ إلى الله تعالى ، فقد خرج موسى عليه السلام من مصر ، خائفاً يترقب الطلب ، قائلاً : ﴿ ربّ نجني من القوم الظالمين ﴾ . فنجاه الله ووصل إلى بلاد مدين .

ـ ٤ ـ

ذهاب موسى عليه السلام إلى أرض مدين وزواجه بابنة شعيب عليه السلام

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ

ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ
خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ
لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ
أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى
وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ حتى يُصدر الرعاء ﴾ ﴿ يصدر ﴾ بالضم : مضارع فعل رباعي ، والمفعول محذوف ، أي حتى يصدر الرعاء إبلهم ومواشيهم . وقرئ بالفتح على أنه مضارع فعل ثلاثي .

﴿ أجر ماسقيت لنا ﴾ ﴿ ما ﴾ مصدرية ، أي أجر سقيك لنا ، وليست موصولة ؛ لأنها لو كانت موصولة ، كان المعنيُّ بها الماء ، والأجر على السقي أو العمل لا على الماء أو العين .

﴿ تمشي على استحياء ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ إحداهما ﴾ وعامله ﴿ جاءت ﴾ و ﴿ على استحياء ﴾ في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿ تمشي ﴾ وعامله ﴿ تمشي ﴾ .

﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ أي تأجرني نفسك في ثماني سنوات ، و ﴿ ثماني ﴾ منصوب على الظرف .

﴿ أيّا الأجلين قضيتُ فلا عدوان علي ﴾ أي : منصوب بـ﴿ قضيت ﴾ وما : زائدة ، و ﴿ الأجلين ﴾ مجرور بالإضافة ، وتقديره : أيّ الأجلين قضيتُ ، و ﴿ قضيت ﴾ مجزوم

بـ﴿ أيما ﴾ وفاء ﴿ فلا ..﴾ مع مابعده مجزوم لأنه جواب الشرط ، والجملة : في موضع نصب مفعول ﴿ قال ﴾ .

﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ مبتدأ وخبر .

البلاغة :

﴿ ربّ إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ استعطاف وترحم .

﴿ وقص عليه القصص ﴾ بينهما جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ توجّه ﴾ قصد بوجهه ﴿ تلقاء ﴾ تجاه ﴿ مَدْين ﴾ قرية شعيب على مسيرة ثمانية أيام من مصر ، وسميت باسم مدين بن إبراهيم ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي قال ذلك توكلاً على الله وحسن ظن به ، لأنه لم يكن يعرف طريقها ، وسواء السبيل : الطريق الأقوم ، والطريق الوسط إليها ، وكان هناك ثلاثة طرق ، فأخذ في أوسطها ﴿ ورد ماء مدين ﴾ وصل إلى بئر فيها كانوا يستقون منها ﴿ وجد عليه أمة ﴾ جماعة كثيرة من الناس مختلفين ، يسقون مواشيهم .

﴿ ووجد من دونهم ﴾ سواهم ﴿ تذودان ﴾ تمنعان وتطردان أغنامهما عن الماء ، خوفاً من السقاة الأقوياء ﴿ قال ﴾ موسى لهما ﴿ ماخطبكما ﴾ أي ماشأنكما لاتسقيان مع هؤلاء ؟ ﴿ يُصدر الرعاء ﴾ يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، وحينئذ نسقي خوف الزحام ومزاحمة الرجال ، يقال : صدر عن الماء مقابل ورد : انصرف عنه ، وقرئ : يَصْدر الرعاء أي يرجعون من سقيهم ، والرعاء : جمع راعٍ ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ لا يقدر أن يسقي .

﴿ فسقى لهما ﴾ مواشيهما من بئر أخرى بقربها ، رحمة عليهما ، بأن رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس أو سبعة ، بالرغم من تعبه وجوعه وجرح قدمه . ﴿ ثم تولى ﴾ انصرف ﴿ إلى الظل ﴾ ظل شجرة كانت هناك ، هروباً من شدة الشمس ، وكان جائعاً ﴿ من خير ﴾ قليل أو كثير ، ويطلق على الطعام ، كما في الآية ، وعلى المال كما في آية ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة ١٨٠/٢] وعلى القوة كما في آية : ﴿ أهم خيرٌ أم قوم تُبَّع ﴾ [الدخان ٣٧/٤٤] وعلى العبادة كما في آية : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ [الأنبياء ٧٣/٢١] ﴿ فقير ﴾ محتاج .

فرجعتا إلى أبيهما في زمن أقل مما كانتا ترجعان فيه ، فسألهما عن ذلك ، فأخبرتاه بمن سقى لهما ، فقال لإحداهما : ادعيه لي ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي شدة حياء ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال ، أي مستحيية متخفرة ، قيل : كانت الصغرى منهما ، وقيل :

الكبرى ، واسمها صفوراء أو صفراء ، وهي التي تزوجها موسى ﴿ ليجزيك ﴾ ليكافئك أو ليثيبك ﴿ أجر ما سقيت لنا ﴾ جزاء سقيك لنا . وقد أجابها موسى ليتبرك برؤية الشيخ ، ويستظهر بمعرفته ، لا طمعاً في الأجر ، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً ، فامتنع عنه ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ، أو لا نطلب على عمل خير عوضاً ، فأجابه شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، أو قال : لا ، عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ، ونطعم الطعام . علماً بأن من فعل معروفاً ، فأهدي إليه شيء ، لم يحرم أخذه .

﴿ قص ﴾ روى له القصة وأخبره بحاله ﴿ القَصص ﴾ مصدر بمعنى الحديث المقصوص أي المخبر به ، من قتله القبطي ، وقصدهم قتله ، وخوفه من فرعون ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ فرعون وقومه ؛ إذ لا سلطان له على مدين .

﴿ قالت إحداهما ﴾ التي استدعته الكبرى أو الصغرى ﴿ استأجره ﴾ اتخذه أجيراً يرعى غنمنا بدلنا ﴿ إن خير من استأجرت القويُّ الأمينُ ﴾ فإنها أخبرته عن رفعه حجر البئر ، وعن قوله لها أثناء السير : امشي خلفي ، وقابل حياءها بحياء ، فلما جاءته وعلم بها ، صوَّب رأسه فلم يرفعه . والجملة تعليل جامع ، يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار . وللمبالغة فيه جعل خيراً اسماً ، وذكر الفعل بلفظ الماضي ، للدلالة على أنه أمين مجرب معروف .

﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾ الكبرى أو الصغرى ﴿ على أن تأجرني ﴾ تكون أجيراً لي أو تأجر نفسك مني في رعي غنمي ﴿ ثماني حجج ﴾ سنين ، جمع حجة أي سنة ﴿ فإن أتممت عشراً ﴾ رعي عشر سنين ﴿ فمن عندك ﴾ التام ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ باشتراط العشر ﴿ ستجدني إن شاء الله ﴾ للتبرك ﴿ من الصالحين ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة .

﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ الذي قلته ﴿ بيني وبينك ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه ﴿ أيما الأجلين ﴾ أطولهما وأقصرهما للرعي ﴿ قضيت ﴾ وفيتك إياه ﴿ فلا عدوان علي ﴾ بطلب الزيادة عليه ، أو فلا مجاوزة للحد ، أي فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثماني ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي على ما نقول أنا وأنت حفيظ أو شاهد ، فتم العقد بذلك .

المناسبة :

بعد أن تمالأ فرعون وقومه على قتل موسى ، وأخبره مؤمن من آل فرعون بما عزموا عليه ، ونصحه بالخروج من مصر ، فخرج متجهاً إلى أرض مدين ، ماشياً ، برعاية الله وهدايته الطريق ، للنسب الذي بين الإسرائيليين وبين أهل مدين ؛

لأن مدين من ولد إبراهيم ، والإسرائيليون من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . وهناك تزوج بابنة شعيب عليه السلام ، ثم عاد إلى مصر بعد أن أوتي النبوة في الطريق .

التفسير والبيان :

﴿ ولما توجه تلقاء مدين ، قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي لما اتجه موسى جهة مدين تاركاً مدينة فرعون ؛ لأنه كما بينا وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة ؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وهو كان من بني إسرائيل ، لكن لما لم يكن عالماً بالطريق ، اعتمد على فضل الله تعالى ، قائلاً : ربي اهدني الطريق الأقوم ، فامتن الله عليه ، وهداه إلى الصراط المستقيم ، واختار الطريق الوسط من بين ثلاث طرق ، وكان يسأل الناس عن كيفية الطريق ، بحكم العادة . قال ابن إسحاق : خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر (أي راحلة) وبينهما مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر . ومدين : شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين .

وكانت أحداث مدين كما يلي :

١ ـ حال الرعاء على الماء : ﴿ ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال : ما خَطْبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ﴾ أي ولما وصل إلى مدين ، وورد ماءها ، وكان لها بئر يردُه رعاة الماشية ، فوجد جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم ، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين ، لئلا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها ، فلما رآهما موسى عليه السلام رقّ لهما ورحمهما ، فسألهما : ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : لا نسقي غنمنا ، أي لا نتمكن من سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء

القوم من السقي ، وأبونا شيخ كبير هَرِم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه ، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى . وهذا شأن الضعيف مع القوي دائماً ، يشرب القوي أولاً من الماء الصافي ، ويشرب الضعيف بقية الماء . وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتها السقي بأنفسها ، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره ، واستعطاف لموسى في إعانتهما .

٢ ـ السقي للمرأتين والمناجاة : ﴿ فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : ربِّ ، إني لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ أي فسقى غنمها لأجلهما من بئر مغطىً بصخرة ، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، كما روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم أعاد الصخرة على البئر ، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة ، فناجى ربه قائلاً : إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام ، لدفع غائلة الجوع . وإنما عدى فقيراً باللام ؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب .

وفيه دلالة على أنه سقى لهما في حر من الشمس ، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام ، وعلى أنه رغم نعومة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشناً جَلْداً صابراً .

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى بِشقّ تَمْرة .

٣ ـ الفرج بعد الشدة : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت لنا ﴾ أي لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر ، مستحيية ، متخمرة بخمارها ، ساترة وجهها بثوبها ، ليست جريئة على الرجال ،

فقالت في أدب وحياء وخَفَر : إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا ، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا .

واختلف العلماء في تعيين الأب من هو ، والجمهور ـ أو المشهور عند كثير من العلماء ـ على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهما ابنتاه[1] . وليس في ذلك شيء يأباه الدين كما قال الرازي .

وقد أجابها موسى عليه السلام للتبرك بالشيخ ، لا طلباً للأجرة ، روي أنها لما قالت ﴿ ليجزيك ﴾ كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمناً ، حتى قال شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . هذا فضلاً عن أن الضرورات تبيح المحظورات .

وتبع موسى المرأة إلى منزل أبيها ، وطلب منها أن تسير خلفه كيلا ينظر إليها ، وأن ترشده إلى الطريق ، وهي خلفه ، وهذا من أدب الرجال الذين أعدهم الله للنبوة .

٤ ـ حديث الأمان مع الشيخ الكبير : ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي فلما جاء موسى إلى الشيخ ، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم ، وظلمهم بني إسرائيل ، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر ، قال له : لا تخف واطمئن وطب نفساً ، فإنك نجوت من سطوة الظالمين ، وخرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم في بلادنا ، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق .

٥ ـ طلب البنت استئجار القوي الأمين : ﴿ قالت إحداهما : يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرتَ القوي الأمين ﴾ أي قالت إحدى ابنتي الشيخ

(١) البحر المحيط : ١١٤/٧ ، تفسير ابن كثير : ٣٨٤/٣

الكبير التي ذهبت تدعوه لأبيها : يا أبتِ استأجره لرعي هذه الغنم ، فإن خير مستأجر هو ؛ لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها ، المؤتمن الذي لا تخاف خيانته .

وصفته بأفضل صفات الأجير : القوة في القيام بالأمر ، والأمانة في حفظ الشيء . ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلف عليَّ الطريق ، فاحذفي لي بحصاة أعْلَمُ بها كيف الطريق لأهتدي إليه .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿ أكرمي مثواه ﴾ وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يا أبتِ استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

٦ ـ مصاهرة موسى لشعيب : ﴿ قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حِجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندِك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين ، فقال له : أريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين ، فاختر ما تشاء ، وهما صفوريا وليا ، والمهر : أن ترعى غنمي ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين ، فهو إليك ، وإلا ففي الثماني كفاية .

ولا أشاقك بعد ذلك بشيء من المناقشة في الوقت أو غيره ، وستجدني صالحاً على العموم ، ومن ذلك حسن المعاملة ، ولين الجانب . وإنما قال : ﴿ إن شاء الله ﴾ للتبرك والاتكال على توفيق الله ومعونته .

فأجابه موسى بقوله :

﴿ قال : ذلك بيني وبينَك ، أيَّا الأجلين قضيتُ فلا عدوان علي ﴾ أي قال

موسى لصهره : الأمر على ما قلت ، لي الخيار في إحدى البنتين ، وفي إحدى المدتين : ثماني أو عشر سنين ، كل واحد على ما شرط على نفسه ، فإن أتممت عشراً فمن عندي ، وإن قضيت ثمانياً فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ، فلا حرج علي من اختيار إحدى المدتين ، وليس لك أن تطالبني بزيادة عليهما ، وإن كان المهيأ للنبوة سيختار الأكمل ، وإن كان مباحاً غير لازم ، وقد فعل موسى عليه السلام أكمل الأجلين .

روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل ، أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمها وأكملها »[1] هو المعاهدة التي حدثت بين موسى وشعيب عليهما السلام .

وقوله : ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ وقوله : ﴿ أيما الأجلين قضيت ﴾ أي أطول الأجلين الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان . وقوله : ﴿ فلا عدوان علي ﴾ أي لا يعتدي أحد على آخر في طلب الزيادة .

﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي والله حفيظ أو شاهد على ما ألزم كل واحد نفسه به للآخر . والوكيل في الأصل : الذي وكل إليه الأمر ، ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدّي بعلى . وهذا من قول موسى ، وقيل : هو من قول شعيب والد المرأة .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

أ ـ انتقل موسى عليه السلام ماشياً من مصر إلى مدين شمال خليج العقبة بفلسطين مدة ثماني ليال .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/٢٨٦

٢ً ـ ليس سقي ابنتي شعيب عليه السلام الماشية بمحظور في الدين ، ولا يأباه الدين والمروءة جرياً على عادة العرب وأحوالهم .

٣ً ـ لم يذق موسى عليه السلام طعاماً في طريقه إلى مدين سبعة أيام ، حتى التصق بطنه بظهره ، فلجأ إلى الدعاء تعريضاً ، ولم يصرح بالسؤال ، وإنما طلب إنزال أي خير قليل أو كثير ، فدل هذا الكلام على الحاجة إلى الطعام أو إلى غيره ، إلا أن المفسرين حملوا هذا الكلام على الطعام . قال ابن عباس : وكان قد بلغ به الجوع ، واخضر لونه من أكل البقل في بطنه ، وإنه لأكرم الخلق على الله .

وفي هذا إشعار بهوان الدنيا على الله .

٤ً ـ إن سقي موسى عليه السلام ماشية المرأتين اللتين عجلتا بالذهاب إلى أبيهما كان سبباً في دعوته وتناوله الطعام عند شعيب عليه السلام ، وإجابة لدعائه ومناجاته ربه .

وبالرغم من حاجته إلى الطعام قال موسى : لا آكل ، إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتي وعادة آبائي قِرى الضيف ، وإطعام الطعام ، فحينئذ أكل موسى عليه السلام .

٥ً ـ دل قوله : ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ على أن سلطان الحكام كان محصوراً في إقليم معين ، فكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون .

٦ً ـ دل قوله تعالى : ﴿ قالت إحداهما : يا أبت استأجره ﴾ على مشروعية الإجارة ، وهي فعلاً كانت مشروعة في كل ملة ، لحاجة الناس إليها ، وتحقيق مصالحهم بها .

٧ً ـ قوله تعالى : ﴿ إني أريد أن أنكحك ﴾ فيه دليل على جواز عرض الولي ابنته على الرجل لخطبتها ، وهذه سنة شائعة قديمة ، فقد عرض صالح

مدين ابنته على صالح بني إسرائيل ، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الواهبة نفسها على النبي ﷺ ، أخرج البخاري والنسائي عن ابن عمر قال : « لما تأيمت حفصة من حُذَافة بن خُنيس السهمي قال عمر لعثمان : إن شئتَ أُنكحك حفصة بنت عمر » وكذلك قال لأبي بكر ، لكنهما امتنعا لأن النبي ﷺ ذكرها بخير ، فلم يفشيا سره ، وفهما أنه يريد الزواج بها .

٨ ـ قوله : ﴿ أنكحك ﴾ دليل على أن النكاح إلى الولي ، لا للمرأة ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وهو رأي جمهور العلماء ، وخالف في ذلك أبو حنيفة ، كما تقدم في تفسير آيات النكاح .

٩ ـ والآية تدل أيضاً على أن للأب أن يزوّج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وهو قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها ؛ لأنها بلغت حد التكليف ، فأما إذا كانت صغيرة ، فإنه يزوجها بغير رضاها ؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

١٠ ـ استدل الشافعية بآية : ﴿ إني أريد أن أُنكحك ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح فقط . وقال المالكية : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ، بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، فكذلك النكاح ، والذي خص به النبي ﷺ كون الزواج بلا مهر ، لا الزواج بلفظ الهبة .

١١ ـ قوله تعالى : ﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾ عرض للزواج ، لا عقد ؛ لأنه لو كان عقداً لعين المعقود عليها له .

١٢ ـ قال مكيّ : في هذه الآية خصائص في النكاح ، منها أنه لم يعين الزوجة ، ولا حدَّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئاً .

أما التعيين فالواقع أنه تم في اتفاق آخر ، وإنما عرض الأمر مجملاً ، وعيّن بعد ذلك .

وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه ، بل هو مسكوت عنه ، فإما أنهما اتفقا عليه ، وإلا فهو من أول وقت العقد .

وأما الزواج بمنفعة الإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر أقره شرعنا ، بدليل ما روى الأئمة من الزواج على شيء من القرآن ، وفي بعض طرقه : « فعلّمْها عشرين آية وهي امرأتك » .

وللعلماء فيه ثلاثة أقوال : كرهه مالك ، ومنعه ابن القاسم ، والحنفية ، وأجازه ابن حبيب والشافعية والحنابلة ، بدليل هذه الآية .

وأما قول مكي : دخل ولم ينقد ، ففيه خلاف ، منعه ابن القاسم ، فليس للزوج الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ، وأجازه متأخرو المالكية ؛ لأن تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب .

١٣ ـ دلت الآية على اجتماع عقدين هما الإجارة والزواج ، وقد أجازه ابن العربي المالكي على الصحيح ؛ لأن الآية تدل عليه ، وقد قال مالك : النكاح أشبه شيء بالبيوع ، فأي فرق بين إجارة وبيع ، أو بين بيع ونكاح[1] . ومنعه ابن القاسم في المشهور ، وقال : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما ، كسائر العقود المتباينة .

١٤ ـ يدل قوله تعالى : ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ على جواز ذكر الخدمة مطلقاً ، دون بيان نوع العمل ، مع بيان الأجل فقط ، وقد أجازه مالك وقال : إنه جائز ويحمل على العرف . فلم يكن لصالح مدين إلا رعي الغنم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى نوع العمل ؛ لأنه مجهول .

١٥ ـ أجمع العلماء على جواز استئجار الراعي شهوراً معلومة ، بأجرة

(١) أحكام القرآن ١٤٦٤/٣

معلومة ، لرعاية غنم معدودة . فإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت الإجارة عند المالكية عملاً بالعرف . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز لجهالتها .

١٦ ـ دلت آية ﴿ ثماني حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ على مذهب الأوزاعي فيما إذا قال : بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة ، أنه يصح ويختار المشتري ، فبأيهما أخذ يصح ، وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود : « من باع بيعتين فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب .

١٧ ـ استدل الحنابلة بهذه الآية المتقدمة على صحة إستئجار الأجير بطعامه وكسوته ، ويؤيدهم ما رواه ابن ماجه في السنن عن عتبة بن المنذر السُّلَمي قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقرأ طسم ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه »[1] .

١٨ ـ قال مالك : وليس على الراعي ضمان ، وهو مصدّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل ، ولا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ، ولصاحب المال تضمينه إن كان من أهل الفسوق والفساد .

١٩ ـ روى عُيَيْنة بن حِصْن أن رسول الله ﷺ قال : « أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه » .

والإجارة بالعوض المجهول كشيء مما تلده الغنم لا تجوز ، فإن ولادة الغنم غير معلومة ؛ لأن النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة نهى عن الغَرَر ، وروى البزار بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه ﷺ نهى عن المضامين والملاقيح .

---

(١) لكن فيه راوٍ ضعيف الرواية عند الأئمة هو مسلمة بن علي الخشني الدمشقي البلاطي .

والمضامين : ما في بطون الإناث ، والملاقيح : ما في أصلاب الفحول . على أن راشد بن مَعْمَر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ، وبه قال أحمد .

٢٠ ـ الكفاءة في النكاح معتبرة ، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب أو في بعض ذلك ؟ والصحيح لدى المالكية جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً ، فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ، ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك .

٢١ ـ إذا اشترط ولي المرأة لنفسه شيئاً ، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ، ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما ـ أنه جائز ، والآخر ـ لا يجوز ، فهو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام .

ويؤيد الرأي الأول ما جرى من شعيب حيث اشترط لنفسه إجارة الرعي ثماني سنين ، وترك المهر مفوضاً ، ونكاح التفويض جائز ، ويجب حينئذ مهر المثل .

٢٢ ـ يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال : وتطوع بكذا ، فينفذ الشرط على حدة ، ويترك الطوع لتنفيذه مختاراً على حدة . وهذا ما فعله شعيب حيث ذكر اشتراط الإجارة ثماني سنين ، وترك التطوع لموسى ، وهو سنتان أخريان إن شاء .

٢٣ ـ قوله تعالى : ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ فيه جعل الإشهاد عليهما في الزواج بالله تعالى ، ولم يشهد شعيب وموسى عليهما أحداً من الخلق ، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في الزواج على قولين :

أحدهما ـ وهو قول الجمهور : أنه لا ينعقد الزواج إلا بشاهدين .

والثاني ـ قال مالك : إنه ينعقد دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة ، فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفَرْقُ ما بين النكاح والسفاح : الدُّفُّ .

ـ ٥ ـ
عودة موسى عليه السلام إلى مصر ونبوته

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

ـ الإعراب :

﴿ أن ياموسى ﴾ ﴿ أن ﴾ مفسرة لا مخففة في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : بأن ياموسى .

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أن ياموسى ﴾.

﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقّب ﴾ ﴿ تهتز ﴾ جملة فعلية ، في موضع الحال من الهاء والألف في ﴿ رآها ﴾ أي مهتزة مشبهة جاناً . ﴿ ولّى ﴾ : أصله ﴿ وَلَيَ ﴾ فتحركت الياء وانفتح ماقبلها ، فقلبها ألفاً ، وهو جواب « لمّا » . و ﴿ مدبراً ﴾ حال من ضمير ﴿ ولّى ﴾ وعامله ﴿ ولّى ﴾ . و ﴿ لم يعقب ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿ ولّى ﴾ وهو العامل فيها أيضاً .

﴿ فذانك برهانان ﴾ مبتدأ وخبر ، وذان : تثنية ذا ، قرئ بتخفيف النون وتشديدها ، والتشديد عوض عن حذف ألف ذا التي كانت في الواحد .

البلاغة :

﴿ تهتز كأنها جانّ ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، حذف فيه وجه الشبه ، فصار مجملاً .

﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ كناية ، كنى بالجناح عن اليد ؛ لأنها للإنسان كالجناح للطائر .

المفردات اللغوية :

﴿ قضى الأجل ﴾ أتم المدة المحددة المتفق عليها بينهما ، وهو رعيه عشر سنين ﴿ وسار بأهله ﴾ زوجته يأذن أبيها نحو مصر ، روي أنه قضى أقصى الأجلين ، ثم عزم على الرجوع ﴿ آنس ﴾ أبصر من بعيد ﴿ من جانب الطور ﴾ من الجهة التي تلي الطور ؛ وهو اسم لجبل في سينا ﴿ بخبر ﴾ عن الطريق ، وكان قد أخطأها ﴿ أو جذوة ﴾ جمرة ملتهبة أو عود غليظ في رأسه نار ﴿ تصطلون ﴾ تستدفئون .

﴿ من شاطئ الوادي ﴾ من جانب ﴿ الأيمن ﴾ لموسى ﴿ في البقعة المباركة ﴾ المكان الذي بارك الله فيه لموسى لسماعه كلام الله فيها ﴿ من الشجرة ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال ؛ لأنها كانت نابتة على الشاطئ ، وهي شجرة عناب أو عليق أو عوسج ﴿ أن ياموسى ﴾ أي ياموسى ﴿ تهتز ﴾ تتحرك ﴿ كأنها جانٌ ﴾ الجانّ : الحية الصغيرة التي توجد في الدور ولا تؤذي ، أي تشبه الحية في الهيئة والجثة ، أو السرعة ، أو الجني في سرعة الحركة وعظم الخلقة ﴿ ولّى مدبراً ﴾ أدبر هارباً منهزماً منها من الخوف ﴿ ولم يعقّب ﴾ لم يرجع ﴿ ياموسى ﴾ أي نودي ياموسى ﴿ إنك من الآمنين ﴾ من الخاوف ، فإنه لا يخاف لدي المرسلون .

﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ أي أدخلها في طوق قميصك وأخرجها ﴿ من غير سوء ﴾ أي عيب كبرص ونحوه ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ يديك المبسوطتين تتقي بها الحية كالخائف الفزع ﴿ من الرهب ﴾ الخوف الحاصل من إضامة اليد ، بأن تدخلها في جيبك (فتحة القميص من جهة الرأس) وعبر عن اليد بالجناح ؛ لأنها للإنسان كالجناح للطائر .

﴿ فذانك ﴾ أي العصا واليد ﴿ برهانان ﴾ دليلان مرسلان ، أو حجتان ﴿ فاسقين ﴾ خارجين عن حدود الله ، فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم .

المناسبة :

بعد أن أتم موسى عليه السلام أوفى الأجلين ، عزم على العودة إلى مصر ، لزيارة أقاربه ، وبينما هو في الطريق ، وكانت الليلة باردة شاتية ، أبصر من ناحية جبل الطور ناراً ، فطلب من أهله المكث في مكانهم ، ليحضر لهم جذوة نار ، فناداه ربه ، وآتاه النبوة والرسالة .

التفسير والبيان :

﴿ فلما قضى موسى الأجل ... لعلكم تصطلون ﴾ أي فلما أكمل الأجلين وأتمها وهو رعي غنم شعيب عشر سنين ، وهذا مستفاد أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكمل منهما ، وأن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين ، وليس فقط عقيب أحدهما ، وهو قضاء الأجل .

وسار إلى ما يريد مع أهله أي زوجته ، أبصر ناراً تضيء على بُعد من ناحية جبل الطور ، فطلب من أهله المكوث في مكانهم حتى يذهب إلى النار ، فيأتي من أهلها بخبر الطريق أو بقطعة أو شعلة من النار ليستدفئوا بها من البرد ، وذلك لأنه سار في ليلة مظلمة مطيرة باردة ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى منفرداً مع أهله .

وخاطب أهله بقوله : ﴿ امكثوا ﴾ بصيغة الجمع للتعظيم . وقوله : ﴿ بخبر ﴾ فيه دلالة على أنه ضل الطريق ، وقوله : ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ فيه دلالة على البرد .

﴿ فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى : إني أنا اللهُ ربُّ العالمين ﴾ أي فلما وصل إلى مكان وجود النار التي

رآها من بعيد ، ناداه ربه من جانب الوادي الأيمن ، أي عن يمين موسى من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنتَ بجانبِ الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمرَ ﴾ [القصص ٤٤/٢٨] مما يدل على أنه قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربي عن يمينه .

ناداه ربه في البقعة المباركة من ناحية الشجرة : ياموسى ، إني أنا الله رب العالمين ، إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادي المقدس طوى ، أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

ووصف البقعة بكونها مباركة ؛ لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة ، وتكليم الله تعالى إياه . ومن الأولى : ﴿ من شاطئ ﴾ والثانية : ﴿ من الشجرة ﴾ لابتداء الغاية ، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة .

وقد خلق الله تعالى في موسى أثناء ذلك علماً يقينياً بأن ذلك الكلام هو كلام الله ، وسمع الكلام القديم من الله تعالى ، لا من الشجرة ، على رأي أبي الحسن الأشعري ، وسمع الصوت والحرف المخلوق في الشجرة والمسموع منها ، على رأي أبي منصور الماتريدي .

ثم أيده بمعجزتين هما :

أولاً ـ ﴿ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جانّ ، ولّى مدبراً ، ولم يعقّب ﴾ أي ونودي بأن ألق عصاك التي في يدك ، فألقاها فصارت حية تسعى ، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء : ﴿ كن فيكون ﴾ فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات أو ثعبان ، لسرعة حركتها ، أو شبهها بالجانّ من حيث الاهتزاز والحركة ، لا من حيث المقدار ، ولّى هارباً ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه ؛ لأن طبع البشر ينفر من ذلك .

فهدأ الحق تعالى رَوْعه قائلاً :

﴿ يـاموسى ، أقبل ولا تخف ، إنـك من الآمنين ﴾ أي يـامـوسى ارجع إلى مكانـك أو مقـامـك الأول ، ولا تخف من الحيـة أو الثعبـان ، فـأنت آمن من كل سوء .

ثـانيـاً ـ ﴿ اسلُك يـدك في جيبـك تخرج بيضـاء من غير سوء ﴾ أي أدخل يـدك في جيب أو فتحـة قميصـك العليـا من جهـة الرأس ، ثم أخرجهـا ، تخرج تتلألأ ، ولها شعاع ، كأنها قطعة قمر ، من غير عيب ولا برص فيها .

وإزالة لخوفه من الآيتين المعجزتين السابقتين قال تعالى له :

﴿ واضمم إليك جناحك من الرَّهب ﴾ أي وضع يدك على صدرك ، يـذهب عنك ما تجده من الخوف ، فكان إذا خاف من شيء ضم إليه يده ، فإذا فعل ذلـك ذهب ما طرأ عليه من الخوف . وقوله : ﴿ من الرهب ﴾ أي من أجل الرهب .

وربما إذا استعمل أحـد ذلـك على سبيل الاقتـداء ، فوضع يـده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخيفه ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة سبحانه .

قـال ابن عبـاس : كل خـائف إذا وضـع يـده على صـدره ، زال خـوفـه . ﴿ فذانك برهـانـان من ربـك إلى فرعون وملئـه ، إنهم كانوا قومـاً فـاسقين ﴾ أي فتلك الآيتان المعجزتان وهما إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخال يـدك في جيبك ، فتخرج بيضاء من غير سوء ، هما دائماً دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله وصحة نبوتك ، يؤيدانك في رسالتك إلى فرعون وقومه من الرؤسـاء والكبراء والأتبـاع ، إنهم قوم خـارجون عن طـاعـة الله ، مخـالفون لأمره ودينـه ، فكانـوا جديرين بإرسالك إليهم مؤيداً بهاتين المعجزتين .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الآتي :

١ ـ يسير المهيَّؤون للنبوة بتوجيه وإلهام من الله تعالى ، فلما انتهى موسى من الوفاء بما عاهد عليه شعيب من رعي غنمه مهراً للزواج بابنته ، اتجه عائداً مع زوجته إلى مصر ، في ليلة ظلماء شاتية باردة ، مشياً من دون راحلة في الإياب كما كان الحال في الذهاب من مصر إلى مدين ، وكان قد أتم أكمل الأجلين ، عملاً بخلق النبوة ، وأخذاً بالأكمل ، كما ثبت في الخبر عن نبينا عليه السلام .

وفي أثناء الطريق الذي أخطأه وفي شدة البرد التي ألمت به وبأهله رأى ناراً من بعيد ، فطلب من أهله المقام في المكان الذي وقفا فيه ، وبادر إلى الإتيان بشعلة نار أو قطعة جمر للتدفئة ، وللسؤال من أهل النار عن الطريق .

٢ ـ دل قوله : ﴿ وسار بأهله ﴾ على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ، لما له عليها من فضل القَوَامة وزيادة الدرجة ، إلا أن يلتزم لها أمراً ، فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به شروط الزواج .

٣ ـ كان ترائي النار استدعاء من رب الكون لمائدة تكليم رب العزة وإيتائه النبوة والرسالة ، وهنيئاً لموسى عليه السلام بتلك الدعوة التي هي أكرم وأشرف دعوة على الإطلاق ، إذ صار بضيافتها كليم الله ، ورسول رب العالمين إلى عظيم الطغاة فرعون وحاشيته .

٤ ـ ناداه ربه بكلام لطيف في بقعة مباركة من شاطئ الوادي المقدس الأيمن : على يمين موسى ، طوى من ناحية شجرة ، على الجانب الغربي اتجاهاً ، من جبل الطور ، وكان مطلع النداء التعريف بالمنادي : إني أنا الله رب العالمين . وهذا نفي لربوبية غيره سبحانه .

فصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل ، لا من رسله ؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة ، وقد أمر بها بعد هذا الكلام وهو : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ أي من المرسلين ؛ لقوله تعالى : ﴿ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ وقوله ﴿ إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾

٥ ـ أيده الله بمعجزتي العصا واليد ، فخاف منها لأول وهلة ، ثم هدأ الله رَوْعه ، وسَكّن خوفه ، وأعاده بعد الهرب إلى ساحة المناجاة مع ربه ، وجعل له علاجاً للخوف بضم يده إلى صدره ، وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون ، وإما من الثعبان ، فأوحى الله له : إذا هالك أمر يدك وشعاعها ، فأدخلها في جيبك وارددها إليه تعد كما كانت .

٦ ـ قدمنا قول ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده ، فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . وهكذا تكون مِحَنُ الأنبياء عليهم السلام دائماً فرجاً ومخرجاً للأمة . وبه تبين الهدف من قوله : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ وهو خروج اليد بيضاء ، ومن قوله : ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ وهو إخفاء الرهب .

وقد تساءل الزمخشري ثم الرازي بقوله : قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً : ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ وفي الآخر مضموماً إليه : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ والجواب أن المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه اليد اليسرى ، وكل من اليدين جناح[1] .

(١) الكشاف : ٤٧٣/٢ ، تفسير الرازي : ٢٤٧/٢٤ ومابعدها .

ـ ٦ ـ
نبوة هارون وتكذيب فرعون

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ
الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ يصدقني ﴾ بالرفع وصف لـ ﴿ ردءا ﴾ . وقرئ بالجزم على أنه جواب الأمر بتقدير حرف الشرط ، أو على أن جزم القاف لكثرة الحركات ، كقولهم في : عضد : عضْد ، والوجه الأول أوجه .

﴿ بآياتنا ﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا ، أو متعلق بـ ﴿ نجعل ﴾ أي نسلطكما بها .

﴿ بينات ﴾ حال ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ الهاء : ضمير الأمر والشأن .

البلاغة :

﴿ يصدقني ﴾ ﴿ يكذبون ﴾ بينهما طباق .

﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ مجاز مرسل عن التقوية ، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب ؛ لأن شد العضد يستلزم شد اليد ، وشد اليد مستلزم للقوة .

المفردات اللغوية :

﴿ إني قتلت منهم نفساً ﴾ هو القبطي (المصري ، الفرعوني) ﴿ أن يقتلون ﴾ أي به ﴿ أفصح مني لساناً ﴾ أبين ﴿ ردءاً ﴾ معيناً ﴿ يصدقني ﴾ بتوضيح ماقلته ، وتقرير الحجة وإقامة الأدلة ، ومجادلة المشركين وتزييف الشبهة .

﴿ سنشد عضُدك بأخيك ﴾ سنقويك به ونعينك به ، والعضد : مابين المرفق إلى الكتف ﴿ سلطاناً ﴾ غلبة وتفوقاً أو حجة قوية ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ بسوء ﴿ بينات ﴾ واضحات ﴿ مفترى ﴾ مختلق ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ أي كائناً في أيامهم ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ أي عالم يعلم أني محق وأنتم مبطلون والضمير في ﴿ عنده ﴾ عائد للرب ﴿ ومن ﴾ معطوف على ﴿ من ﴾ المتقدمة ﴿ عاقبة الدار ﴾ العاقبة المحمودة في الآخرة ، والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها الأصلية هي الجنة ؛ لأن الدنيا خلقت جسراً للآخرة ، والمقصود منها بالذات : هو الثواب والعقاب ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة ، والظالمون : الكافرون .

المناسبة :

بعد أن قال الله سبحانه : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾ علم موسى عليه السلام أنه يذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ، فطلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ، ويزيل خوفه من فرعون ، فيرسل معه أخاه هارون وزيراً ، فأجابه الله إلى طلبه .

وكان الرسولان موسى وهارون محاجين فرعون في الربوبية بحجة ساطعة ، فلم يكن منه إلا المكابرة والعناد ، والافتراء والاتهام الزائف بأن المعجزتين سحر مختلق .

التفسير والبيان :

لما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون ، الذي خرج من ديار مصر فراراً منه ، وخوفاً من سطوته :

﴿ قال : ربِّ إني قتلت منهم نفساً ، فأخاف أن يقتلون ﴾ أي قال موسى : يا ربِّ كيف أذهب إلى فرعون وقومه ، وقد قتلت منهم فرعونياً ، فأخاف إذا رأوني أن يقتلوني ثأراً منهم .

﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي رِدْءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون ﴾ أي إن أخي هارون أفصح لساناً مني ، وأحسن بياناً بسبب ما في لساني من لَثْغة أو عُقْدة من حين الصغر حين تناولت الجمرة ، لما خيرت بينها وبين التمرة ، فوضعتها على لساني ، فحصل فيه شدة في التعبير ، فاجعل معي هارون أخي رسولاً وزيراً ومعيناً يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ، ويوضح البراهين والأدلة ، ويفنِّد الشبهات المثارة من قبل هؤلاء الجاحدين ، وإني أخاف أن يكذبوني في رسالتي . ونظير الآية : ﴿ واحلُلْ عُقدةً من لساني يَفْقَهوا قولي ، واجعلْ لي وزيراً من أهلي ، هارونَ أخي ، أشدد به أزري ، وأشركه في أمري ﴾ [طهٰ ٢٠/٢٧ ـ ٣٢] .

فأجابه الله تعالى إلى طلبه :

﴿ قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً ، فلا يصلون إليكما ﴾ أي قال الرب لموسى : سنقويك ونعزِّز جانبك بأخيك الذي سألت أن يكون نبياً معك ، كما قال تعالى : ﴿ قد أُوتيت سُؤْلَك ياموسى ﴾ [طهٰ ٢٠/٣٦] ﴿ ووَهَبْنا له من رحمتِنا أخاه هارونَ نبياً ﴾ [مريم ١٩/٥٣] ونجعل لكما حجة قاهرة ، وغلبة ظاهرة على عدوكما ، فلا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما ، بسبب إبلاغكما آيات الله تعالى .

قال بعض السلف عن طلب موسى بعثة أخيه هارون : ليس أحد أعظم مِنَّةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام ، فإنه شفع فيه ، حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال تعالى في حق موسى : ﴿ وكان

عند الله وجيهاً ﴾ [الأحزاب ٦٩/٣٣] . وقال السدي : إن نبيين وآيتين أقوى من نبي واحد وآية واحدة .

﴿ بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ أي اذهبا بآياتنا ، أو نجعل لكما سلطاناً ، أي نسلطكما بآياتنا ، أو لا يصلون إليكما أي تمتنعون منهم بآياتنا ، أنت ياموسى وأخوك ومن آمن بكما وتبعكما في رسالتكما الغالبون بالحجة والبرهان ؛ لأن حزب الله دائماً هم الغالبون .

وتعليق الآيات بالسلطان يجعل انقلاب العصا حية معجزة ، ومانعاً أيضاً من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام ، ولذا يجوز الوقوف على ﴿ إليكما ﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير ، كما يجوز الوصل .

ثم أبان تعالى موقف فرعون من محاجة موسى وهارون فقال : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ، قالوا : ماهذا إلا سحرٌ مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي حين عرض موسى وهارون على فرعون وملئه ماآتاهما الله من المعجزات الباهرة الواضحة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره ، قالوا : ماهذا إلا سحر مفتعل مصنوع ، مكذوب موضوع ، وما سمعنا بما تدعونا إليه من عبادة الله وحده لاشريك له في أيام الأسلاف ، وما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى .

وهذا مجرد تمسك بالتقليد الذي لا دليل على صحة العمل به . فأجابهم موسى :

﴿ وقال موسى : ربّ أعلم من جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي أجاب موسى فرعون وملأه بقوله : ربي الله الذي لا إله غيره الذي خلق كل شيء ويعلم غيب السموات والأرض أعلم مني ومنكم

بالحق من المبطل ، وبين جاء بالحق الداعي إلى الرشاد ، وأهّله للفلاح الأعظم ، ومن الذي له العاقبة المحمودة في الدنيا بالنصر والظفر والتأييد ، وفي الآخرة بالثواب والرحمة والرضوان كقوله : ﴿ أولئك لهم عُقْبى الدارِ ، جَنّاتُ عدن ﴾ [الرعد ٢٢/١٣ ـ ٢٣] ﴿ وسيعلمُ الكفارُ لمن عُقبى الدار ﴾ [الرعد ٤٢/١٣] ، وسيفصل بيني وبينكم ، إنه لا يفلح المشركون بالله عز وجل ، ولا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع ، بل يكونون على ضد ذلك .

وفي الآية أسلوب أدبي رفيع من الخطاب والجدل والمناظرة ، فهو لم يعلن أنه المحق وغيره المبطل الضال ، وإنما ردد ذلك ليجعل للعقل في النقاش دوراً في الحكم النهائي وتغليب الأصح الأصوب ، وهذا كقوله ﷺ للمشركين : ﴿ وإنّا أو إياكم لَعَلى هُدىً أو في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [سبأ ٢٤/٣٤] .

كما أن نهاية الآية زجر لهم عن العناد الذي ظهر منهم ، وإيماء بأنهم خاسرون في هذا الجدال ، وسيكون لهم الخيبة والفشل في المستقبل .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ ضرورة التسلح بمختلف القوى المادية والمعنوية عند لقاء العدو ، فقد طلب موسى من ربه تأييده بأخيه هارون ، ليكون له عوناً ووزيراً ، ومدافعاً ومبيناً حجج الله وبيّناته في دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، فإنه إذا لم يكن له وزير ولا معين لا يكادون يفقهون عنه ، وربما تعرّض لأذى ، فيدفعه عنه .

٢ ـ إن السؤال المنطقي والدعاء المناسب للحال مستجاب متحقق ، لذا أجاب الله طلب موسى عليه السلام ، وقال له : سنقويك بأخيك ، ونجعل لكما حجة

وبرهاناً ، فلا يصلون إليكما بالأذى ، وتمتنعان منهم بآياتنا ، فأنتما وأتباعكما الغالبون عليهم بآياتنا ، أي سائر المعجزات .

٣ ـ لقد أعمى فرعونَ وقومَه إدراكُ الحق ، فتمسكوا بالمكابرة والعناد ، واعتصموا بتقليد الآباء والأسلاف الذي لا حجة ولا دليل عليه ، وهذا مذموم عقلاً وعادة ، لذا قالوا : ما هذه المعجزات إلا سحر مكذوب مفترى ، ولم نسمع بدعوة التوحيد والتخلي عن الإشراك في التاريخ الغابر ، ولا قيمة لتلك الحجج العقلية التي أوردها موسى لإثبات توحيد الله تعالى !!.

٤ ـ لابد من استعمال الحكمة في الإجابة والجدال والمناظرة للسلاطين والحكام الجبابرة ، كفرعون الطاغية ، توقياً من الأذى ، وتأملاً في اللين ، والإذعان للحق ، لذا كان جواب موسى حكيماً حين أعلن أن الله أعلم بمن جاء بالرشاد من عنده سبحانه ، ومن المستحق لدار الجزاء ، وإنه لا يظفر الظالمون أنفسهم بالشرك والكفر والمعصية بشيء عند الله وفي الآخرة .

ـ ٧ ـ

محاجة فرعون في ربوبية الله تعالى وعاقبة عناده مع قومه

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ
فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾
وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

الإعراب :

﴿ ويوم القيامة ﴾ ﴿ يوم ﴾ منصوب من أربعة أوجه : إما لأنه مفعول به توسعاً ، كأنه قال : وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وإما معطوف بالنصب على موضع الجار والمجرور وهو : ﴿ في هذه الدنيا ﴾ وإما منصوب بما دل عليه قوله : ﴿ من المقبوحين ﴾ لأن الصلة لاتعمل فيما قبل الموصول ، وإما منصوب على الظرف بالمقبوحين ، أي وهم من المقبوحين يوم القيامة .

﴿ بصائر للناس وهدىً ورحمةً ﴾ كلها منصوبات على الحال من ﴿ الكتاب ﴾

البلاغة :

﴿ فأوقد لي ياهامان على الطين ﴾ قال الزمخشري (٤٧٧/٢): ولم يقل : اطبخ لي الآجرّ : لأنه أول من عمل الآجرّ ، فهو يعلمه الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة . وأمر هامان ـ وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين ـ منادىً باسمه بيا في وسط الكلام : دليل التعظيم والتجبر .

﴿ بصائر للناس ﴾ تشبيه بليغ ، حذفت فيه أداة الشبه ووجه الشبه ، أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس .

المفردات اللغوية :

﴿ هامان ﴾ وزير فرعون ﴿ فأوقد لي ياهامان على الطين ﴾ فاصنع لي الآجرّ أي الطوب ، قال عمر رضي الله عنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجرّ : ماعلمت أن أحداً بنى بالآجر

غير فرعون ﴿ صرحاً ﴾ قصراً عالياً ﴿ لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾ أصعد وأرتقي ، ثم أنظر إليه وأوقف عليه ، كأنه توهم أنه لو كان ، لكان جسماً في السماء يمكن الترقي إليه ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ في ادعائه إلهاً آخر وأنه رسول .

﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ بغير الحق ﴾ بغير استحقاق ﴿ لا يرجعون ﴾ بالنشور ﴿ فنبذناهم ﴾ طرحناهم ﴿ في اليم ﴾ في البحر المالح ، ففرقوا ﴿ كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ حين صاروا إلى الهلاك . وقوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ قال البيضاوي : فيه تفخيم لشأن الآخذ ، واستحقار للمأخوذين ، كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف ، وطرحهم في اليم .

﴿ أئمة ﴾ قادة ، قدوة للضلال ﴿ يدعون إلى النار ﴾ يدعون إلى موجبات النار من الكفر والمعاصي ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ لعنة ﴾ طرداً عن الرحمة ، وخزياً ﴿ المقبوحين ﴾ للمطرودين المبعدين المخزيين .

﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة ﴿ القرون الأولى ﴾ قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ﴿ بصائر للناس ﴾ أنوار للقلوب في عصرهم ، تبصر بها الحقائق ، وتميز بين الحق والباطل ﴿ وهدى ﴾ إلى الشرائع التي هي سبيل الله تعالى ﴿ ورحمة ﴾ لمن آمن به ؛ لأنهم لو عملوا بالتوراة لنالوا رحمة الله ﴿ يتذكرون ﴾ يتعظون بما في ذلك الكتاب من المواعظ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

قوبل موسى وهارون في دعوتهما القوية إلى توحيد الله تعالى بكفرين عظيمين :

الأول - ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ أي نفي إله غيره ، وادعاء ألوهية نفسه .

والثاني : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ أي محاولة الصعود والارتقاء إلى السماء لرؤية إله موسى . وكل من الأمرين جهل وعتو وطغيان واستكبار ، فكانت عاقبته الغرق في الدنيا ، والطرد من رحمة الله في الآخرة .

وفي مقابل هذا الكفر آتى الله موسى التوراة نوراً وهدى ورحمة .

التفسير والبيان :

﴿ وقال فرعون : يا أيها الملأ ، ما علمت لكم من إله غيري ﴾ أي وقال فرعون الطاغية الجبار ملك مصر : يا أيها القوم ، لم أعلم بوجود إله غيري ، أي إن إله موسى غير موجود ، وإنما أنا الإله ، كما قال تعالى في آية أخرى حاكياً عنه : ﴿ فحَشَر فنَادى ، فقال : أنا ربُّكم الأعلى ، فأخذَه اللهُ نكالَ الآخرةِ والأُولى ، إن في ذلك لعبرةً لمن يَخْشَى ﴾ [النازعات ٧٩/٢٣ ـ ٢٦] . دعا قومه إلى الاعتراف بألوهيته ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ، كما قال تعالى : ﴿ فاستخفَّ قومَه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [الزخرف ٤٣/٥٤] .

وليس قصده من ادعاء الألوهية كما أبان الرازي[1] كونه خالقاً السموات والأرض ، وإنما وجوب تعظيمه وعبادته ، أي عبادة الملك صاحب السلطة والنفوذ المطلق والانقياد التام لأوامره . وهذا من إغراءات الحكم والسلطان ، وغرور المُلْك والعظمة .

﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ أي فاصنع لي يا هامان الوزير آجرّاً ، تبني لي به قصراً عالياً جداً ، شامخاً في الفضاء حتى أصعد به وأرتقي إلى السماء ، فأشاهد إله موسى الذي يعبده ، توهماً منه أنه جسم كالأجسام المادية الأخرى . وإني لأعتقد أنه كاذب في قوله : إن هناك رباً آخر غيري ، كما في آية أخرى : ﴿ وقال فرعَون : يا هامانُ ابنِ لي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسبابَ ، أسبابَ السمواتِ ، فأطَّلِعَ إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زُيِّنَ لفرعون سوءُ عمله ، وصُدَّ عن السبيل ، وما كَيْدُ فرعون إلا في تَبَاب ﴾ [غافر ٤٠/٣٦ ـ ٣٧] .

وقد أراد فرعون بادعاء الألوهية وبناء أعلى صرح في زمانه التلبيس

(١) تفسيره المعروف بالتفسير الكبير : ٢٥٣/٢٤

والترويج على الناس ، والإظهار لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون . ثم ذكر الله تعالى سبب غروره وعناده فقال :

﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون ﴾ أي لقد طغى فرعون وقومه وأتباعه وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ، ولا حساب ولا عقاب ، وكل من توهم ذلك هان عليه الطغيان والاستكبار والاستعلاء في الأرض ، ولم يعلموا أن الله رقيب عليهم ومجازيهم بما يستحقون ، لذا أبان تعالى عقابهم العاجل في الدنيا بعد تهديدهم بعقاب الآخرة فقال :

﴿ فأخذناه وجنوده ، فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، فانظر أيها المتأمل في قدرة الله وعظمته وآياته كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذي ظلموا أنفسهم ، وكفروا بربهم ، وادعى كبيرهم الألوهية من دون الله .

ثم ذكر الله تعالى ما يوجب مضاعفة عذابهم فقال :

﴿ وجعلناهم أئمة يَدْعون إلى النار ، ويوم القيامة لا يُنصرون ﴾ أي وجعلنا فرعون وأشراف قومه قادة ضلال في تكذيب الرسل وإنكار وجود الإله الصانع ، فلم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل قاموا بإضلال غيرهم ، فاستحقوا جزاءين : جزاء الضلال والإضلال ، ولا أمل لهم في النجاة ونصرة الشفعاء ، فهم يوم القيامة لا نصير ولا شفيع لهم ينصرهم من بأس الله ويدفع عنهم عذاب الله ، فاجتمع عليهم خزي الدنيا وذل الآخرة ، كما قال :

﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ أي وألزمناهم بصفة دائمة في الدنيا لعنة وخزياً وغضباً على ألسنة المؤمنين والأنبياء المرسلين ، كما أنهم يوم القيامة من المطرودين المبعدين عن رحمة الله ، كما قال تعالى :

﴿ وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ، بئس الرِّفْدُ المرفود ﴾ [هود ١١/٩٩] .

وأما موسى وجند الإيمان بعد إغراق فرعون وقومه ، فلهم نور التوراة :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائرَ للناس وهدى ورحمة ، لعلهم يتذكرون ﴾ أي لقد أنعم الله على عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام بإنزال التوراة بعدما أهلك فرعون وقومه ومن تقدمهم من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ليكون ذلك الكتاب مصدر إشعاع للحياة وأنواراً للقلوب ، يميز به بين الحق والباطل ، وهداية من الضلال والعمى ، ورحمة لمن آمن به ، وإرشاداً إلى العمل الصالح ، لعل الناس يتذكرون به ويتعظون ، ويهتدون بسببه .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مُسخوا قردة بعد موسى ، ثم قرأ : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ الآية » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ نفي فرعون ألوهية الله عز وجل وادعاؤه الألوهية ، قال ابن عباس : كان بين قوله : ﴿ وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وبين قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ أربعون سنة ، وكذب عدو الله ، بل علم أن له ثَمَّ رباً هو خالقه وخالق قومه : ﴿ ولئن سألتَهم من خَلَقَهم ؟ ليقولُنَّ اللهُ ﴾.

٢ ـ بناء أعلى صرح شامخ للصعود إلى الله ورؤيته ، فخاب وضل وخسر .

٣ ـ تعاظم فرعون وجنوده عن الإيمان بموسى ظلماً وعدواناً دون أن تكون

لهم حجة تدفع ما جاء به موسى ، وتوهموا أنه لا معاد ولا بعث . ويقابل الاستكبار بالباطل الاستكبار بالحق الذي هو لله تعالى ، فهو المتكبر في الحقيقة ، المبالغ في كبرياء الشأن ، قال النبي ﷺ فيما حكى عن ربه فيما رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة وابن عباس : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار ، ولا أبالي ».

٤ ـ بالرغم من أن فرعون وقومه كانوا عارفين بوجود إله هو الله تعالى ، كما تبين ، إلا أنهم كانوا ينكرون البعث : ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون ﴾ فلأجل ذلك تمردوا وطغوا .

٥ ـ كان عقابهم في الدنيا الإغراق في البحر المالح وهو البحر الأحمر ، في صبيحة يوم واحد ، بل في دقائق معدودة ، وإلزامهم اللعن أي البعد عن الخير ، وفي الآخرة هم من المطرودين ، المبعدين عن رحمة الله ، الممقوتين .

٦ ـ لهم عقاب مضاعف ؛ إذ كانوا في ضلال وأئمة ضلال ودعاة إلى عمل أهل النار ، وزعماء كفر ، يدعون الناس إلى الكفر ويتبعونهم فيه ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أشد وأكثر ، جاء في الحديث النبوي الذي رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي عن أبي هريرة وجرير بن عبد الله البَجَلي : « من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ».

٧ ـ البقاء للأصلح ، فقد نجى الله موسى وقومه ، وأنزل عليه التوراة مناراً للحق وتبصراً به ، وهدى من الضلالة إلى الرشاد ، ورحمة للمؤمنين بها ، لعل الناس يتعظون ويرجعون إلى ربهم من قريب ، ويذكرون هذه النعمة ، فيؤمنوا في الدنيا ، ويثقوا بثواب الله في الآخرة . قال يحيى بن سلاّم : هو أول كتاب ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام .

وكان إنزال التوراة بعد إهلاك القرون الأولى (الأمم الماضية المكذبة) مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، وقيل : من بعد إغراق فرعون وقومه وخسف الأرض بقارون ، ولعل ذلك إشعار بشدة الحاجة إليها ، فإن إهلاك القرون الأولى دليل على اندراس معالم شرائعها ، وحاجة الناس إلى تشريع جديد ينظم لهم شؤون حياتهم .

الحاجة إلى إرسال الرسل وبعثة محمد ﷺ

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

الإعراب :

﴿ تتلو عليهم آياتنا ﴾ خبر ثان لـ ﴿ كنت ﴾ .

﴿ ولكن رحمةً من ربك ﴾ ﴿ رحمة ﴾ : إما منصوب على المصدر ، وإما مفعول لأجله ، أي ولكن فعل ذلك لأجل الرحمة ، وإما خبر كان مقدرة ، أي ولكن كان رحمة من ربك .

البلاغة :

﴿ أنشأنا قروناً ﴾ مجاز عقلي ، أريد به : أمماً في تلك الأزمنة ، والعلاقة زمانية .

﴿ تصيبهم مصيبة ﴾ جناس اشتقاق . وقوله : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ حذف منه الجواب لدلالة السياق عليه ، أي ولولا خشية وقوع المصيبة بهم ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم ، فهو إيجاز بالحذف .

﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أريد به بما كسبوا ؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بالأيدي .

المفردات اللغوية :

﴿ وما كنت ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أي ماكنت حاضراً ﴿ بجانب الغربي ﴾ أي بجانب الجبل أو الوادي أو المكان الغربي من موسى حين المناجاة ، فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى ﴿ إذ قضينا ﴾ أوحينا ﴿ إلى موسى الأمر ﴾ أي أمر الرسالة إلى فرعون وقومه ، والمعنى : كلفناه وعهدنا إليه بالرسالة أمراً ونهياً ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ الحاضرين لما حدث ، فتعلمه وتخبر به .

﴿ أنشأنا قروناً ﴾ أوجدنا أمماً مختلفة من بعد موسى ﴿ فتطاول عليهم العمرُ ﴾ أي بعُد الأمد وطال عمرهم ، فنسوا العهود ، وحرّفت الأخبار ، وتغيرت الشرائع ، واندرست العلوم ، وانقطع الوحي . وحذف المستدرك بعد ﴿ لكن ﴾ وأقام سببه مقامه وتقديره : فجئنا بك رسولاً ، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره ﴿ ثاوياً ﴾ مقيماً ، يقال : ثوى بالمكان يثوي به : أقام ﴿ أهل مدين ﴾ قوم شعيب ﴿ تتلو عليهم آياتنا ﴾ تقرأ عليهم آياتنا التي فيها قصتهم ، فتخبر بها بعد معرفتها ﴿ كنا مُرْسِلين ﴾ إياك ومخبرين لك بها ، أي أرسلناك بالرسالة المتضمنة أخبار المتقدمين .

﴿ بجانب الطور ﴾ جبل الطور ﴿ إذ نادينا ﴾ حين نادينا موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ولكن علمناك وأرسلناك رحمة من ربك ﴿ لتنذر قوماً ﴾ هم أهل مكة وغيرهم ﴿ يتذكرون ﴾ يتعظون ﴿ لولا ﴾ الأولى امتناعية ﴿ مصيبة ﴾ عقوبة أو عذاب في الدنيا والآخرة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بما كسبوا من الكفر والمعاصي ﴿ لولا أرسلت ﴾ أي هلا ، وهي تحضيضية ، تفيد الحث على حدوث مابعدها ﴿ فنتبع آياتك ﴾ المرسل بها ، وجواب لولا محذوف ، أي لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ، لما أرسلناك رسولاً . والمراد أن إرسال النبي محمد ﷺ وكل رسول قبله كان لقطع أعذار الناس ، وإبطال احتجاجهم بعدم الإعلام والتبليغ .

المناسبة :

بعد أن قص الله تعالى قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه وما تضمنه من غرائب الأحداث والعبر ، وأوحى الله تعالى بجميع تلك الأخبار إلى نبيه محمد ﷺ ، ذكّره بإنعامه عليه بذلك وبما خصه من المغيبات التي لا يعلمها ، لا هو ولا قومه ، وأبان الحاجة إلى رسالته ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد

الرسل . وكل ذلك برهان على أن القرآن وحي من عند الله ، وعلى نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبر بالغيوب الماضية وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب .

التفسير والبيان :

﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ﴾ أي وما كنت يا محمد حاضراً بجانب المكان أو الجبل الغربي ـ غرب موقف موسى حين كلم الله موسى ، وأوحى إليه أمر الرسالة ، وأعطاه ألواح التوراة ، وألزمه العهد ، وما كنت من الحاضرين لذلك ، فتعلمه وتخبر به .

ولكنا أعلمناك بخبره ليكون برهاناً على نبوتك ، إذ تخبر بأخبار الماضين كأنها واقعة أمامك ، وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب ، مما يدل على كون ذلك الإخبار بوحي من عند الله تعالى ، ثم بين سبب ذلك الإخبار :

﴿ ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمُر ﴾ أي والسبب الداعي إلى الإخبار عن الماضين وإنزال الوحي مجدداً في القرآن الكريم وجود أمم كثيرة من بعد موسى ، بعُد بها الأمد ، وطال عليها العهد ، فاندرست العلوم ، وتغيرت الشرائع ، ونسي الناس حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، فجئنا بك يا محمد رسولاً تجدد العهد الإلهي ، وتبين للناس رسالة الله إليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ يا أهل الكتابِ ، قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم على فَتْرةٍ من الرُّسُل أن تقولوا : ما جاءَنا من بَشيرٍ ولا نَذيرٍ ، فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ ، واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ ﴾ [المائدة ١٩/٥] .

والآية تنبيه على المعجزة ، إذ الإخبار عن قصة مضى عليها مئات السنوات ، دون مشاهدة ولا حضور لأحداثها ، دليل واضح على نبوة المخبر ، وهو رسول الله ﷺ . وتلا ذلك مؤيدات أخرى مشابهة :

١ ـ ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مُرْسِلين ﴾ أي وما كنت مقيماً بين قوم شعيب في مدين ، تقرأ عليهم آياتنا المنزلة ، حين أُخبرتَ عن النبي شعيب عليه السلام وما قال لقومه وما ردوا عليه ، ولكن ـ ذات الجلالة ـ نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولاً ، وأيدناك بهذه الآيات المعجزات ، لتكون برهاناً على صحة نبوتك وصدق رسالتك ، ولولا خبر الوحي ما علمت بذلك ولا أخبرت أحداً بشيء .

٢ ـ ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ أي وما كنت يا محمد أيضاً بجانب جبل الطور حين مناداة موسى وتكليمه ومناجاته ، حتى تعرف تفاصيل الخبر وتحدث به الناس . وهذا شبيه بقوله المتقدم : ﴿ وما كُنتَ بجانبِ الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمْرَ ﴾ ولكنه ورد بصيغة أخرى أخص مما سبق وهو النداء ، أي مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه[1] .

ولكن علمناك وأخبرناك وأنزلنا عليك القرآن المتضمن تلك الأخبار وغيرها ، وأرسلناك رحمة مهداة منه بك وبالعباد المرسل إليهم ، لتنذر قوماً هم العرب لم ينذروا قبل ، بأس الله وعذابه إن لم يؤمنوا به ، وظلوا على وثنيتهم وضلالهم ، لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل ، فيصيروا من أهل السعادة .

والثابت تاريخياً أنه لم يأت إلى العرب رسول بعد إسماعيل عليه السلام ، وأما رسالة موسى وعيسى فكانت خاصة ببني إسرائيل فقط .

---

(١) الظاهر أن الله تعالى كلم موسى مرتين : مرة حين البعثة ، ومرة حين اختار سبعين رجلاً من شيوخ بني إسرائيل للميقات ليظهروا توبتهم من عبادة العجل ، ولما كلمه الله وهم يسمعون كلام الله تمردوا وعصوا وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

ثم صرح الله تعالى بسبب إرسال النبي محمد ﷺ فقال :

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين ﴾ أي ولولا قول الناس ومنهم العرب إذا أصابتهم مصيبة العذاب على كفرهم : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبين لنا صحة الاعتقاد أو التوحيد ، ونظامك الشرعي للحياة ، فنؤمن بك رباً واحداً ، ونعمل بشريعتك ، ما أرسلناك للناس رسولاً .

ولكنا بعثناك رسولاً نذيراً تقيم عليهم الحجة ، وتبلغهم رسالة ربهم في العقيدة والأخلاق ودستور الحياة ، وتقطع عذرهم وتبطل حجتهم بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشِّرين ومنذِرين لئلا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ ، وكان اللهُ عزيزاً حكيماً ﴾ [النساء ١٦٥/٤] وقال سبحانه : ﴿ أن تقولوا : إنما أُنزِلَ الكتابُ على طائفتين من قَبْلنا ، وإن كُنَّا عن دراستِهم لغافلِين ، أو تقولوا : لو أنا أُنزل علينا الكتابُ لكنا أهْدى منهم ، فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من ربِّكم وهدىً ورحمةٌ ..﴾ [الأنعام ١٥٦/٦ـ١٥٧] . وهذا كله من رحمة الله بعباده ألا يعذب إنساناً إلا بعد بيان ، ولا يعاقب إلا بعد تكليف وإرسال رسول .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات موضوعين :

الأول ـ إقامة بعض الأدلة على كون القرآن موحى به من عند الله وعلى صحة نبوة النبي محمد ﷺ : وهي الإخبار عن أحوال الأنبياء المتقدمين وقصصهم مع أقوامهم . وخص بالذكر قصتين : هما أولاً ـ مناجاة الله موسى وتكليمه في جبل الطور في المكان الغربي من موقف موسى في الوادي المقدس طوى ، حيث

بعثه رسولاً ، وأنزلَ عليه ألواح التوراة ، وثانياً ـ قصة شعيب مع قومه أهل مدين .

ولولا الإخبار القرآني بذلك ، ما علم بالخبر محمد ﷺ وقومه العرب ومنهم أهل مكة ،.وإنما فعل تعالى ذلك رحمة منه برسوله ﷺ وبعباده ، لينذرهم بها ، وينذر العرب الذين لم يشاهدوا تلك الأخبار .

الثاني ـ بيان الحكمة من إرسال النبي محمد ﷺ بل وكل الرسل : وهي تبليغ شريعة الله ووحيه ، وتصحيح العقيدة ، وإعلان كلمة التوحيد ، حتى لا يبقى لهم عذر بالجهل بالأحكام أو الاعتقاد بعد بلوغ خبر الرسل لهم ، وإكمال البيان ، وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان وإقامة الحجة وبعثة الرسل .

وهذا يدل على مبلغ الحاجة الداعية إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية .

تكذيب أهل مكة بالقرآن وبرسالة النبي ﷺ

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

البلاغة :

﴿ لولا أوتي مثل ماأوتي موسى ﴾ ﴿ لولا ﴾ هنا : أي هلا للتحضيض ، لا لامتناع الوجود .

﴿ قل : فأتوا بكتاب ﴾ يراد بالأمر هنا التعجيز .

المفردات اللغوية :

﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ أي الأمر الحق وهو القرآن المنزل على محمد الرسول المؤيد بالمعجزات . ﴿ لولا أوتي ﴾ هلا . ﴿ مثل ماأوتي موسى ﴾ من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما والكتاب جملة واحدة . ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أولم يكفر أمثالهم من بني جنسهم في الرأي والمذهب ، وهم كفرة زمان موسى ، وكان فرعون عربياً من أبناء عاد . ﴿ قالوا : سحران ﴾ أي القرآن والتوراة ، وقرئ : ساحران ، أي موسى وهارون أو موسى ومحمد . ﴿ تظاهرا ﴾ تعاونا وتناصرا . ﴿ وقالوا : إنا بكلٍّ ﴾ أي من النبيين والكتابين . ﴿ كافرون ﴾ جاحدون .

﴿ هو أهدى منهما ﴾ من الكتابين ، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين : موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ﴿ صادقين ﴾ في قولكم : إنا ساحران مختلفان ، ويراد بذلك الإلزام والتبكيت . ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي لدعائك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فحذف المفعول للعلم به ، ولأن فعل الاستجابة يعدّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي ، فإذا عدّي إليه حذف الدعاء غالباً ، والمراد : فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به . ﴿ يتبعون أهواءهم ﴾ في كفرهم ، إذ لواتبعوا حجة لأتوا بها . ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه .. ﴾ استفهام بمعنى النفي . ﴿ بغير هدى من الله ﴾ في موضع الحال للتأكيد ، أو التقييد ، فإن هوى النفس قد يوافق الحق . ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى . ﴿ وصّلنا لهم القول ﴾ أي أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير ، فنزل القرآن منجماً مفرقاً يتصل بعضه ببعض ، ويتبع نزول الكتب المتقدمة . ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيؤمنوا ويطيعوا .

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن كفار مكة وغيرهم أنهم عند الخوف من المصيبة

قالوا : هلا أرسلت إلينا رسولاً ، فنتّبع آياتك ، بيّن أنه بعد إرسال الرسول محمد ﷺ إلى أهل مكة قالوا : لولا أوتي مثل ماأوتي موسى من قبل ، فكفروا وكذبوا بالقرآن وبرسالة محمد ، وتعلقوا بشبهة قبل البعثة ، وبعد البعثة ، مما يدل على أنه لاقصد لهم سوى الزيغ والعناد ، لذا طلبوا معجزات مادية كمعجزات موسى كاليد والعصا ، وقد كفر أمثالهم المعاندون قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات ، ووصفوه بالسحر ، فإن استطاعوا الإتيان بكتاب آخر غير كتابي موسى ومحمد ، فليأتوا به ، وما أنزل القرآن منجماً إلا لتجديد الذكرى والعبرة .

التفسير والبيان :

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثل ماأوتي موسى ﴾ أي حينما جاء الحق من عند الله وهو القرآن المنزل على رسول الله ، قال أهل مكة الذين لم يأتهم رسول من قبل ، على وجه التعنت والعناد والتمادي في الكفر والجهل والضلال : هلا أوتي محمد مثلما أوتي موسى قبله من المعجزات والآيات الكثيرة مثل العصا واليد وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وانفجار الماء من الحجر ، ونحو ذلك من الآيات الباهرة التي أجراها الله على يدي موسى حجةً وبرهاناً له على فرعون وقومه وبني إسرائيل .

ولكن هذا مجرد عناد ومكابرة وتهرب من الإيمان :

﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أولم يكفر أمثالهم من البشر المعاندين بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ، وهم الذين كفروا في زمان موسى بما جاء به ، فهذا شأن المكابرين المعاندين دائماً .

﴿ قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكلٍّ كافرون ﴾ أي قال هؤلاء القوم المشركون في مكة : القرآن والتوراة سحران ، ومحمد وموسى ساحران ، تعاونا على التدجيل والتضليل ، وصدّق كلٌّ منهما الآخر ، وإنا بكلٍّ منهما

كافرون ، لانصدق بما جاءا به .

فتحداهم الله بأن يأتوا بكتاب آخر أهدى للبشر :

﴿ قل : فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ، إن كنتم صادقين ﴾ أي قل يا محمد لقومك : ائتوا بكتاب آخر من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، وأكثر نفعاً وهداية ، لكي أتبعه مع غيري ، إن كنتم صادقين فيما تقولون أو تدّعون ، وتدافعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل . وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتّبعون أهواءهم ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ، ولم يفعلوا ما كلفتهم به من الإيمان بالقرآن وبرسالتك ، فاعلم أنهم في عقائدهم الباطلة يتبعون أهواءهم بلا دليل ولا حجة ، فهم جماعة أهواء .

﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير علم ﴾ أي وليس هناك أشد ضلالاً عن طريق الهدى والرشاد ممن سار مع هواه ، وانقاد لشهواته بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ولم يقم له دليل صائب عن الله ، وهذا دليل على بطلان أو فساد التقليد في العقائد ، وأنه لابدّ من الحجة والاستدلال .

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي إن الله لا يوفق للحق والرشاد الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والعصيان ، وتكذيب الرسل ، واتّباع الأهواء . وهذا عام يتناول كل كافر .

وأما حكمة إنزال القرآن منجماً فهي :

﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ أي ولقد أتبعنا بعض القرآن بعضاً في النزول لقريش ، حسبما تقتضي الحكمة ، وتدل عليه المصلحة ، ويلائم كل

عصر وأوان ، لعلهم وأمثالهم من البشر يتعظون ويتنبهون إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فيؤمنوا بالقرآن وبمن أنزله وبمن أُنزل عليه ، وهو مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن خطة الكفار واحدة في كل زمان ، دأبهم المكابرة والعناد والإنكار ، وطلب المعجزات المادية المحسوسة ، فإنه بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا ؛ لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات .

وإذا نزل على محمد ﷺ مثل معجزات موسى عليه السلام كانقلاب العصا حية ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانفجار الحجر بالماء ، وإنزال المنّ والسلوى ، وكتابة الألواح في التوراة ، وتكليم الله له ، وإنزال القرآن جملة واحدة كالتوراة ، إذا نزل مثل ذلك فهم معتصمون بالكفر مقيمون عليه .

٢ ـ إن حجة الكفار في تكذيب كتب الله ورسله واحدة أيضاً ، وهي الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق ، وأولئك الرسل سحرة مبطلون ، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل ، كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

٣ ـ إن اليهود علّموا المشركين أن يقولوا لمحمد ﷺ : لولا أُوتيت مثل ما أُوتي موسى ، فإنه أُوتي التوراة دفعة واحدة . وهؤلاء اليهود الذين توارثوا الكفر هم الذين كفروا بما جاء به موسى من قبل ، فقالوا في موسى وهارون : هما ساحران ، فقلدهم كفار قريش وقالوا عن موسى ومحمد مثل ذلك القول ، واتفق الفريقان على الكفر بكلٍّ من التوراة والإنجيل والقرآن ، وعلى الكفر بموسى وعيسى ومحمد على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

٤ ـ يقابل التحدي والعناد بتحدٍّ أشد منه ، فإذا كفرتم معاشر اليهود والمشركين بكتب الله المنزلة على رسله ، فأحضروا كتاباً أهدى منها يتبعه الناس ، ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ، ومسوغاً لما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين في أن تلك الكتب سحر مفترى ، وقد مهر اليهود والعرب بالسحر .

٥ ـ إذا لم يؤمن الناس بهذا القرآن ولم يأتوا بكتاب من عند الله ، فهم أهل ضلال وأهواء ، يتبعون ما تملي عليهم شهواتهم وآراؤهم الخاصة وشياطينهم ، دون حجة لهم ولا دليل .

٦ ـ لا أحد أضل ممن سار مع هواه ، فهو ظالم ، والله لا يوفق الظالمين للخير ، وهداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين .

٧ ـ لقد تتابع إنزال الكتب من عند الله ، وإرسال الرسل ، وأخبار الأنبياء بعضها ببعض ، كتاباً بعد كتاب ، ورسولاً بعد رسول ، وخبراً بعد خبر ، وتتابع أيضاً نزول القرآن منجماً مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات ، وعلى وفق الحكمة والمصلحة ، ليستمر صوت التذكير والتنبيه ، وتتجدد الدعوة إلى الإيمان حالاً بعد حال ، وزماناً إثر زمان .

ثم خلد الله صوت الحق الإلهي بهذا القرآن ، وجعله ذكرى متجددة دائمة للأجيال ، بما تكفل له من الصون والحفظ عن التغيير والتبديل ، والتحريف والتصحيف ، وبما اشتمل عليه من التنوع في الأسلوب والخطاب وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ونصائح ومواعظ ، إرادة أن يتذكر الناس به فيؤمنوا به ويعملوا بموجبه ، فيفلحوا ، ويقلعوا عن اتباع الأديان الباطلة المنسوخة ، وعن الأهواء والشهوات البائدة الفارغة ، والوثنية البدائية المنافية لكرامة الإنسان ، والمصادمة للعقل البشري السوي .

٨ ـ لا يقبل التقليد في العقائد ، وإنما لابدّ من غرس العقيدة بالحجة والبرهان .

٩ ـ نبّه القرآن بتحدي العرب وغيرهم الإتيان بمثله على عجز محاكاته على الدوام ، وأنه كتاب موحى به من عند الله تعالى ، فهو حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة : ﴿ وإنهُ لكتابٌ عزيزٌ ، لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خَلْفِهِ ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾ [فصلت ٤١/٤١ ـ ٤٢] .

١٠ ـ تنطق الآيات جملةً وتفصيلاً بالدلالة على نبوة النبي محمد ﷺ .

إيمان طوائف من أهل الكتاب بالقرآن

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات اللغوية :

﴿ من قبله ﴾ أي قبل القرآن ، بدليل قوله الآتي : ﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ﴾ أي صدقنا بأنه كلام الله تعالى . ﴿ مسلمين ﴾ منقادين خاضعين لله تعالى . ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ بإيمانهم بالكتابين : كتابهم والقرآن . ﴿ بما صبروا ﴾ بصبرهم على العمل بها . ﴿ ويدرؤون ﴾ يدفعون . ﴿ بالحسنة السيئة ﴾ أي بالطاعة المعصية ، لقوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذرّ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » . ﴿ ينفقون ﴾ يتصدقون .

﴿ اللغو ﴾ هو الساقط من القول ، والمقصود به هنا الشتم والأذى من الكفار . ﴿ أعرضوا عنه ﴾ تكرماً . ﴿ سلام عليكم ﴾ سلام متاركة لهم وتوديع أو دعاء لهم بالسلامة مما هم فيه . ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها ، ولا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنعاملكم بالمثل .

سبب النزول :

نزول الآية (٥٢) :

﴿ وإذا يتلى عليهم ﴾ : أخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب ، منهم رفاعة ـ يعني أباه ـ إلى النبي ﷺ ، فآمنوا فأوذوا ، فنزلت : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ . وأخرج أيضاً عن قتادة قال : كنا نتحدث أنها نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على الحق ، حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فآمنوا به ، منهم سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام .

وقال سعيد بن جُبَيْر : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يسّ والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون ، وأسلموا[1] .

وعلى كل حال ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى الدليل على أن القرآن وحي من عند الله ، وعلى صحة نبوة محمد ﷺ ، أكد ذلك بأن جماعات من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله وحده قبل نزول القرآن ، أسلموا وآمنوا بمحمد ﷺ ، حين اقتنعوا بصدقه وصحة ماأنزل عليه ، فكان غير أهل الكتاب أولى بالإيمان أو الإسلام .

التفسير والبيان :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ أي إن جماعة من علماء أهل الكتاب الأولياء الأصفياء ، من اليهود والنصارى ، الذين عاصروا النبي محمداً ﷺ ، آمنوا بالقرآن ، لمطابقته لأصول كتبهم المتقدمة ، وبشارة تلك

(١) تفسير ابن كثير : ٣٩٣/٣

الكتب بمحمد وتطابق الأوصاف عليه . فقوله : ﴿ من قبله ﴾ أي قبل القرآن . و ﴿ هم به ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد ﷺ أو بهما معاً يصدّقون .

وللآية نظائر كثيرة منها : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به ﴾ [البقرة ١٢١/٢] ، ومنها : ﴿ وإنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ لَمَنْ يؤمنُ باللهِ ، وما أُنزلَ إليكم وما أُنزلَ إليهم خاشعينَ لله ﴾ [آل عمران ١٩٩/٣] ، ومنها : ﴿ إنَّ الذينَ أُوتوا العِلْمَ من قَبْلِهِ إذا يُتْلى عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ، ويقولونَ : سُبْحانَ ربِّنا إنْ كانَ وَعْدُ ربِّنا لمفعولاً ﴾ [الإسراء ١٠٧/١٧ ـ ١٠٨] .

﴿ وإذا يُتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنّه الحقُّ من ربِّنا ، إنّا كنّا من قبله مسلمينَ ﴾ أي وإذا قرئ عليهم القرآن ، قالوا : صدقنا به ، وآمنا بأنه الكلام الحق الصدق الثقة من ربِّنا ، وكنا مصدقين بالله مسلمين له أي موحدين ، مخلصين لله ، مستجيبين له ، من قبل نزول هذا القرآن ، أو من قبل بعثة محمد ﷺ .

وهذا دليل على قدم إيمانهم ، لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدم النبي محمد ﷺ ، فمدحهم تعالى بهذا المدح العظيم وقال :

﴿ أولئكَ يؤتَوْنَ أجرهم مرّتينِ بما صبروا ﴾ أي إن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول وهو كتابهم ، ثم بالثاني وهو القرآن لهم ثواب مضاعف مرتين ، جزاء صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس ، فإنهم لم يأبهوا بإيذاء قومهم .

ونظير الآية : ﴿ يؤتكم كِفْلَين من رحمتهِ ﴾ [الحديد ٢٨/٥٧] ، وورد في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ يؤتَوْنَ أجرَهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن

بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت لـه أَمَة ، فأدّبها ، فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها » .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : إني لَتَحْتَ راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتاب ، فله أجره مرتين ، وله مالنا ، وعليه ماعلينا » .

وبعد أن مدحهم الله تعالى بالإيمان أولاً ، أثنى عليهم بالطاعات البدنية في قوله : ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ ثم بالطاعات المالية في قوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ثم باشتغالهم بالطاعات والأفعال والأخلاق الحسنة في قوله : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ فقال :

ـ ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة ، فلا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون .

ـ ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون من رزق الله الحلال في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة ، والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات .

ـ ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لانبتغي الجاهلين ﴾ أي وإذا سمعوا من المشركين أو غيرهم لغو الكلام وهو الساقط من القول من أذى وتعيير وسبّ وشتم وتكذيب ، أعرضوا عن أهله ، ولم يخالطوهم ولم يعاشروهم ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿ وإذا مَرُّوا باللغوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ [الفرقان ٧٢/٢٥] .

وقالوا إذا سَفِه عليهم سفيه ، وكلّمهم بما لا يليق : لنا أعمالنا فنحن المسؤولون عنها ثواباً وعقاباً ، ولكم أعمالكم عليكم تبعاتها ، لانرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، أو سلمكم الله مما أنتم فيه ، لانريد اتباع طريق

الجاهلين ولا نحبها ولا نصاحب أهلها ، ونؤثر الكلام الطيب ، ولا نقابل الكلام القبيح بمثله . ونظير الآية ﴿ وإذا خَاطَبَهُم الجاهلونَ قالوا : سلاماً ﴾ [الفرقان ٦٣/٢٥] قال الحسن رحمه الله عن كلمة ﴿ سلام عليكم ﴾ : هذه الكلمة تحية بين المؤمنين ، وعلامة الاحتمال من الجاهلين .

روى محمد بن إسحاق في سيرته : أنه قدم على رسول الله ﷺ ، وهو بمكة ، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن .

فلما سمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله ، وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيَّبكم الله من رَكْب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركباً أحمق منكم .

فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

ويقال : إن هؤلاء النفر النصارى من أهل نجران[1] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣٩٤/٣ ، وهو مروي عن عروة بن الزبير .

١ ـ إذا كان الإيمان بالله صحيحاً منسجماً مع الوحي الثابت الصحيح ، سَهُل التقاء رافدي الإيمان ، وتيسر الدمج بين الإيمانين ، إن تجرد الإنسان عن العصبية والهوى ، والمصلحة الذاتية ، والنفع المادي . وهذا ما تحقق لجماعة من أهل الكتاب من بني إسرائيل ، آمنوا بالله ربّاً واحداً لا شريك له قبل القرآن بمقتضى كتابهم السماوي ، ثم آمنوا بالقرآن ، لمطابقته مع أصل ذلك الكتاب المتقدم ، وهؤلاء كعبد الله بن سَلام وسلمان الفارسي ، ومن أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام ، وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيرا الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . وقيل : أكثر من ذلك .

٢ ـ هؤلاء المؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب يضاعف لهم الثواب أو الأجر مرتين : مرة لإيمانهم بكتابهم ، ومرة لإيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم على الأذى الذي يلقونه من الكفار .

٣ ـ المؤمن الكامل الإيمان شأنه الاشتغال بمرضاة الله تعالى ، فيبادر إلى الطاعات البدنية والمالية ، ويتحلى بالخلق الفاضل ، وقد وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يقابلون السيئة بالحسنة ، أي بالاحتمال والعفو والصفح والكلام الحسن ، وهذا من مكارم الأخلاق ؛ وينفقون من أموالهم في الطاعات والقربات ، فيحسنون إلى البائسين والمعوزين ، وفي ذلك حضّ على الصدقات ؛ ويعرضون عن لغو الكلام ، فلا يتكلمون بالكلام القبيح ، وإنما ينطقون دائماً بالكلام الطيب ، فإذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم ، أعرضوا عنه ، أي لم يشتغلوا به ، قال ﷺ لمعاذ في حديث أبي ذر المتقدم والمروي أيضاً عن معاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ومن الخلق الحسن : دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا ، بالإعراض عنه ولين

الحديث . وهذا مؤيد لمعنى الآية : ﴿ وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ﴾ أي سلام متاركة ومفارقة ، لنا ديننا ولكم دينكم ، فهذا ليس من التحية في شيء .

ولا نبتغي الجاهلين ، أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة ، ولا نرغب في مصاحبتهم ، ولا نودّ معاشرتهم ، ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم .

الرد على شبهات المشركين

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

الإعراب :

﴿ رزقاً من لدنا ﴾ مفعول لأجله .

﴿ وكم أهلكنا ﴾ ﴿ كم ﴾ : منصوبة بـ ﴿ أهلكنا ﴾ .

﴿ بطرت معيشتها ﴾ منصوب بحذف حرف الجر ، أي بطرت في معيشتها ، ولا يجوز نصبه على التمييز ؛ لأن التمييز لا يكون إلا نكرة ، ومعيشتها : معرفة .

البلاغة :

﴿ إنك لاتهدي ﴾ ﴿ ولكن الله يهدي ﴾ بينهما طباق السلب .

﴿ حرماً آمناً ﴾ مجاز عقلي ، نسب الأمن إلى الحرم ، وهو لأهله ، وعلاقته المكانية .

﴿ أفن وعدناه وعداً حسناً ... ﴾ أورد الكلام بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا .

المفردات اللغوية :

﴿ إنك لاتهدي من أحببت ﴾ هدايته ، أي لاتقدر أن تدخله في الإسلام . ﴿ يهدي من يشاء ﴾ فيدخله في الإسلام ، والهداية نوعان : الدلالة والإرشاد إلى الخير ، والتوفيق بعد توافر أصل الهداية . ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ عالم بالمستعدين للهداية . ﴿ وقالوا ﴾ أي قريش . ﴿ نُتخَطَّف من أرضنا ﴾ ننتزع منها بسرعة ، أي نخرج من البلاد . ﴿ أولم نمكّنْ لهم حرماً آمناً ﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن من الإغارة والقتل ، بحرمة البيت الذي فيه ويتناحر العرب حوله ، وهم آمنون فيه . ﴿ يجبى إليه ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه ، جبى الماء : جمعه ، والجابية : الحوض العظيم . ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ من كل مكان . ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ رزقاً لهم من عندنا . ﴿ لا يعلمون ﴾ أن مانقوله حق ، فهم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا . والمعنى المراد : فإذا كان هذا حالهم ، وهم عبدة الأصنام ، فكيف نعرّضهم للخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد ؟

﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أي كم من أهل قرية كانت حالهم كحالكم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا ، فدمر الله عليهم وخرب ديارهم . فقوله : ﴿ بطِرَت معيشتها ﴾ من البطر : وهو الأشر وقلة احتمال النعمة ، والمراد من بطرت : بغت وتجبرت ولم ترع حق الله في زمن معيشتها . ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي لم تسكن إلا فترات قليلة للمارة يوماً أو بعضه ، من شؤم معاصيهم . ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ منهم ؛ إذ لم يخلفهم أحد في ديارهم وتصرفاتهم .

﴿ وما كان ربك ﴾ وما كانت عادته . ﴿ أمها ﴾ أصلها وعاصمتها (قصبتها) وأعظمها .

﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة . ﴿ ظالمون ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر . ﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ من أسباب الدنيا . ﴿ فتاع الحياة الدنيا وزينتُها ﴾ أي تتمتعون وتتزينون به أيام حياتكم ثم يفنى . ﴿ وما عند الله ﴾ أي ثوابه . ﴿ خير ﴾ في نفسه من ذلك ؛ لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة . ﴿ وأبقى ﴾ أدوم وأبدي . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ تتفكرون ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وقرئ ﴿ يعقلون ﴾ وهو أبلغ في الموعظة . ﴿ وعدناه وعداً حسناً ﴾ وعداً بالجنة ، فإن حسن الوعد بحسن الموعود . ﴿ فهو لاقيه ﴾ مدركه لا محالة ، لامتناع الخلف في الوعد ، ولذلك عطفه بالفاء المتضنة معنى السببية .

﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ الذي يزول عن قريب ، ويختلط بالآلام والمتاعب . ﴿ من المحضَرين ﴾ للحساب والعذاب بالنار ، وقوله : ﴿ ثم ﴾ للتراخي في الزمان أو الرتبة . والمراد بقوله : ﴿ أفمن وعدناه ﴾ المؤمن ، وبقوله : ﴿ كمن متعناه ﴾ الكافر ، أي لاتساوي بينهما ، وهذه الآية كالنتيجة للتي قبلها ، ولذلك رتب عليها بالفاء .

سبب النزول :

نزول الآية (٥٦) :

﴿ إنك لاتهدي ﴾ : أخرج مسلم وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لعمه : قل : لاإله إلا الله ، أشهد لك يوم القيامة ، قال : لولا أن تعيرني نساء قريش ، يقلن : إنه حمله على ذلك الجزع ، لأقررت بها عينك ، فأنزل الله : ﴿ إنك لاتهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ .

وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال : سألت ابن عمر عن هذه الآية : ﴿ إنك لاتهدي من أحببت ﴾ في أبي جهل وأبي طالب ؟ قال : نعم .

نزول الآية (٥٧) :

﴿ وقالوا : إن نتّبع الهدى معك ﴾ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ : إن نتبعك تخطفنا الناس ، فنزلت .

وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن عامر بن نوفل بن عبد مناف هو الذي قال ذلك ، وعبارته ـ كما في البيضاوي ـ : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ـ وإنما نحن أكَلة رأس ، أي قليلو العدد ـ أن يتخطفونا من أرضنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى ﴾ الآية .

نزول الآية (٦١) :

﴿ أفمن وعدناه ﴾ : أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ أفمن وعدناه ﴾ الآية ، قال : نزلت في النبي ﷺ وفي أبي جهل بن هشام . وأخرج من وجه آخر عنه : أنها نزلت في حمزة وأبي جهل .

المناسبة :

بعد بيان إيمان طوائف من أهل الكتاب ، ذكر الله تعالى شبهة المشركين في امتناعهم عن الإيمان ، ثم رد عليها بأجوبة ثلاثة ، مفتتحاً الكلام بتقرير أن الهداية للدين وهي هداية التوفيق هي لله تعالى لا لرسوله ، وأثبت له في آية أخرى هي ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى ٥٢/٤٢] هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

التفسير والبيان :

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحببت هدايته هداية توفيق ، فليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، والله هو الذي يستطيع هداية من يشاء هداية توفيق وشرح صدر ، بأن يقذف نوراً في قلبه ، فيحيي به ، كما قال سبحانه : ﴿ أو من كانَ ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناسِ ﴾

[الأنعام ١٢٢/٦] وله الحكمة البالغة ، وربّك هو العالم بالمستعدين للهداية ، فيهديهم ؛ لأنهم مستحقون لها ، وعالم أيضاً بالمستعدين للغواية ، فلا يهديهم ؛ لأنهم لا يستحقونها . والمراد بالآية تسلية الرسول ﷺ في عدم تمكنه من هداية قومه .

ويلاحظ أنه لا دلالة في ظاهر هذه الآية على كفر أبي طالب ، لكن الثابت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ ، كما بينت ، قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بني عبد مناف ، أطيعوا محمداً وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا ، فقال ﷺ : « يا عم ، تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك ! قال : فما تريد يا ابن أخي ؟ قال : أريد منك كلمة واحدة ، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله تعالى ، قال : يا ابن أخي ، قد علمت أنك صادق ، ولكني أكره أن يقال : جزِع عند الموت ، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبَّة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ : عبد المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف » . قال القرطبي : والصواب أن يقال : أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ ، وهو نص البخاري ومسلم .

ونظير الآية : ﴿ ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [البقرة ٢٧٢/٢] وقوله تعالى : ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾ [يوسف ١٠٣/١٢] .

والخلاصة : أن الهداية ـ كما ذكر الرازي ـ **بمعنى الإلجاء والقسر غير جائز** ؛ لأن ذلك قبيح من الله تعالى في حق المكلف ، وفعل القبيح مستلزم للجهل أو

الحاجة ، وهما محالان ، ومستلزم المحال محال ، فذلك محال من الله تعالى ، والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة[١] .

ثم أخبر الله تعالى عن شبهة المشركين في عدم إيمانهم بالنبي ﷺ ، واعتذارهم بعذر واهٍ ، فقال :

﴿ وقالوا : إن نتّبع الهدى معك نُتخطّفْ من أرضنا ﴾ أي قال المشركون : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا ما حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، ويخرجونا من ديارنا .

فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بثلاثة أجوبة :

١ ـ تأمين الحرم : ﴿ أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمراتُ كل شيء رزقاً من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إن هذا الاعتذار كذب وباطل ؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين ، وحرم آمن معظّم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم إن أسلموا واتبعوا الحق ؟

ومن خصائص الحرم المكي : أنه يحمل إليه من سائر الثمار في كل البلدان ، كما تحمل إليه أصناف المتاجر والأمتعة ، تفضلاً بالرزق من عند الله ، ولكن أكثرهم جهلة لا يَفْطُنون[٢] لما فيه الخير والسعادة ، ولا يتفكرون ليعلموا الأحق بالعبادة ، ويقلعوا عن عبادة ماسواه .

٢ ـ التذكير بإهلاك الأمم : ﴿ وكم أهلكنا من قريةٍ بَطِرَت معيشتَها ، فتلك مساكنُهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين ﴾ أي ليعلم

(١) تفسير الرازي : ٣/٢٥

(٢) فَطَن للشيء يفطُن بالضم فطنة ، وفَطِن ـ بالكسر ـ فِطنة أيضاً .

هؤلاء المعتذرون من أهل مكة عن الإيمان خوفاً من زوال النعم أن عدم الإيمان هو الذي يزيل النعم ، فكثيراً ماأهلك الله من القرى أي أهلها التي أبت الإيمان ، وكفرت ، وبغت وطغت وأشرت ، وجحدت بأنعم الله وأرزاقه المغدقة ، فأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها ، لا يسكن فيها أحد إلا لمدة قليلة ، يبيت فيها المارة يوماً أو بعض يوم ، وأصبح الوارث هو الله ؛ لأنها رجعت خراباً ليس فيها أحد يخلفهم فيها . ويقال للشيء الذي ترك بلا مالك : إنه ميراث الله ؛ لأنه المالك الحقيقي للكون ، والباقي بعد فناء خلقه .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وضَرَبَ الله مَثَلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ ، فكَفَرت بأنْعُمِ الله ، فأذاقَها اللهُ لِباسَ الْجُوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنعون ﴾ [النحل ١١٢/١٦] .

ثم أخبر تعالى عن عدله في إنزال العقاب ، فقال :

﴿ وما كان ربُّك مُهلكَ القُرى حتى يَبْعَثَ في أُمِّها رسولاً يتلو عليهم آياتِنا ، وما كُنّا مُهْلكي القُرى إلا وأهلُها ظالمون ﴾ أي وما كانت عادة ربك وسنته أن يهلك المدن والقرى بأهلها حتى يرسل في أصلها وعاصمتها وأكبرها رسولاً يبين لهم الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وأحقيته بالعبادة ، حتى لا يبقى لهم حجة بالجهل ولا عذر بعدم معرفة الحق ، فيهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولا يهلك أهل القرى أو أحداً من خلقه إلا وهم ظالمون أنفسهم بتكذيب الرسل وجحود الآيات .

وهذا دليل على عدل الله في خلقه ، فلا عقاب إلا بعد بيان ، ولا إهلاك مع إيمان ، وإنما العقاب والهلاك حال الظلم واجتراح المعاصي ، واقتراف المنكرات والآثام التي أكبرها الشرك بالله تعالى .

وللآية نظائر كثيرة منها : ﴿ وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء ١٥/١٧] .

وفي الآية دليل على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى (مكة) رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم ، كما قال تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ أمَّ القُرى ومن حَوْلَها ﴾ [الشورى ٧/٤٢] وقال سبحانه : ﴿ قل : يا أيُّها الناسُ ، إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً ﴾ [الأعراف ١٥٨/٧] وقال عز وجل : ﴿ لأُنذِرَكُمْ به ومن بَلَغ ﴾ [الأنعام ١٩/٦] .

٣ ـ التدين أو الإيمان لا يضيع منافع الدنيا : ﴿ وما أُوتيتم من شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا وزينتُها ، وما عند الله خيرٌ وأبْقى ، أفلا تَعْقلون ﴾ أي إن الدنيا وما فيها من زينة وزخرف ومتاع فانية حقيرة بالنسبة لما أعده الله لعباده الصالحين من المنافع والنعم في الدار الآخرة ، فكل ماأعطيتم أيها الناس من أموال وأولاد وزينة وزخارف ، فهو مجرد متاع مؤقت وزينة زائلة ، لا يجدي عند الله شيئاً ، وهو زائل وزهيد إذا قيس بنعم الآخرة ، فنعيم الآخرة باقٍ دائم خير في ذاته من متاع الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ ماعِنْدكم يَنْفَدُ وما عند اللهِ باقٍ ﴾ [النحل ٩٦/١٦] وقال سبحانه : ﴿ وما عِنْدَ اللهِ خيرٌ للأبرار ﴾ [آل عمران ١٩٨/٣] وقال عز وجل : ﴿ بل تُؤْثرون الحياةَ الدُّنيا ، والآخرةُ خيرٌ وأبْقى ﴾ [الأعلى ١٦/٨٧ـ١٧] وقال رسول الله ﷺ في الحديث الثابت : « والله ، ما الحياةُ الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدُكم أصبعه في اليمِّ ، فلينظر ماذا يرجع إليه » !!

أفلا يعقل ويتفكر من يُقدِّم الدنيا على الآخرة ، أفلا يتدبر من يؤثر الفاني على الباقي !! ألا فليفكر الإنسان في اختيار ماهو الخير الدائم له ، ويترك الشر الذي يصيبه بالأذى .

ثم أكّد الله تعالى ذلك المعنى فقال :

﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ، ثم هو يوم القيامة من المحضَرين ﴾ أي فليقارن الإنسان ليعلم ترجيح ما عند الله وتفضيله على زينة الدنيا ، وكيفية المقارنة : أفمن هو مؤمن بكتاب الله مصدق بوعد الله وثوابه على صالح الأعمال بالجنة وجزيل النعيم ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ، ثم يصير أمره يوم القيامة من المعذبين في نار جهنم ؟!

فقولهم : إنا تركنا الدين خشية فوات منافع الدنيا خطأ وقول غير سديد ؛ لأن الدين لا يفوت تلك المنافع ، فهي حقيرة في ميزان الله ، وإنما يكون إيثار الدنيا مفوتاً لمنافع الآخرة ، وسبباً أيضاً للعقاب الدائم في الآخرة .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يلي :

١ ـ يخص الله تعالى بعض خلقه بخلق الهداية ومعرفة طريق الجنة ، ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل . وليس معنى الهداية والضلال القسر والإلجاء عليها فذلك غير جائز شرعاً وعقلاً ، وهو قبيح من الله تعالى في حق الإنسان المكلف بالتكاليف الشرعية .

ولقد بان من سبب النزول الثابت في الصحيحين أن أبا طالب مات على غير الإيمان ، والله أعلم .

٢ ـ الله تعالى هو المختص بعلم الغيب ، فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي .

٣ ـ قال مشركو مكة للنبي ﷺ معتمدين على شبهة واهية وتعلل مرفوض أو عذر غير واقعي ولا منطقي : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (مكة)

لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي .

٤ً ـ أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بأجوبة ثلاثة :

الأول ـ أنه سبحانه جعل حرم مكة ذا أمن ، فكانت العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فقد أمّنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم ، فما الذي يمنعهم من الإيمان بعد توافر الأمان ؟!

ومن مزايا الحرم المكي بعد الأمن أنه يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ، فضلاً ورزقاً من عند الله ، ولكن أكثر المكيين لا يعقلون ، أي هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم .

وخلاصة هذا الجواب : أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً ، وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى ، مقبلين على عبادة الأوثان ، فلا حرج في إيمانهم ؛ إذ لو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى .

فهذا رد أول على تعللهم بترك الإيمان .

الثاني ـ بعد أن بيّن تعالى ما خص به أهل مكة من النعم ، أتبعه ببيان ما أنزله على الأمم الماضية المنعمين بنعم الدنيا بسبب تكذيب الرسل ، فإذا توهموا أنه لو آمنوا لقاتلتهم العرب ، فذلك وَهْم باطل ؛ لأن الخوف في ترك الإيمان أكثر .

فكم من قوم كفروا ، ثم حلّ بهم الدمار ، ولما قالوا : إنا لانؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، بيّن الله تعالى لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان : والدليل أنه تعالى أهلك كثيراً من

الأقوام بسبب البطر وهو ألا يحفظ حق الله تعالى في الغنى ، فأصبحت مساكنهم غير مسكونة بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من السكنى أو سكوناً قليلاً ، فلم يسكنها إلا المسافرون أو المارة بالطريق يوماً أو بعض يوم ، وكان الله هو الوارث لها بعد هلاك أهلها .

ومن المعلوم أنه إذا لم يبق للشيء مالك معين قيل : إنه ميراث الله ؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه .

ثم أوضح الله تعالى سنته في الإهلاك : وهي أنه لم تكن عادة الله أو سنته أن يهلك القرى الكافرة ، حتى يبعث في عاصمتها وأعظمها رسولاً ، كما أرسل إلى أهل مكة محمداً ﷺ ، ثم لم يهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لظلمهم ولإصرارهم على الكفر بعد إعذارهم وإنذارهم . وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم .

والخلاصة : أن إهلاكهم لا يكون إلا بأمرين :

استحقاقهم الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة ، والإلزام ببعثة الرسل .

الثالث ـ إن قول أهل مكة : تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا خطأ عظيم ؛ لأن ما يتمتعون به مدة حياتهم زائل ، وما عند الله خير وأبقى ، أي أفضل وأدوم ، أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟!

أما إنه خير : فلأن المنافع في الآخرة أعظم ، ولأنها خالصة عن الشوائب ، أما منافع الدنيا فمشوبة بالمضار ، بل المضار فيها أكثر .

وأما إنها أبقى : فلأنها دائمة غير منقطعة ، ومنافع الدنيا منقطعة ، وإذا قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً ، ثم إن نصيب كل واحد من منافع الآخرة إذا قورن بمنافع الدنيا كلها يعدُّ كالذرة بالقياس إلى البحر .

وهل يعقل التسوية بين الموعود وعداً حسناً وهو الجنة وما فيها من الثواب والممتع بمتع الدنيا ، أي الذي أعطي منها بعض ماأراد ، ثم يوم القيامة كان من المحضرين في النار . قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . وقال الثعلبي : وبالجملة ، فإنها نزلت في كل كافر مُتّع في الدنيا بالعافية والغنى ، وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله ، وله في الآخرة الجنة .

والخلاصة : تترجح منافع الآخرة على منافع الدنيا بأمرين : الدوام والبقاء ، وعدم العقاب ، أما منافع الدنيا فهي إلى انقطاع وفناء ، ويحصل بعدها العقاب الدائم إذا لم تقترن بطاعة الله .

٥ ـ دل قوله سبحانه : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ على أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، كان خارجاً عن حد العقل السليم .

واستدل الشافعي رحمه الله بهذا القول على أن من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس ، صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ؛ لأن أعقل الناس من أعطى القليل ، وأخذ الكثير ، وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى .

تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

الإعراب :

﴿ كنتم تزعمون ﴾ حذف مفعولا الفعل : ﴿ تزعمون ﴾ ، أي تزعمونهم شركائي .

﴿ هؤلاء الذين أغوينا ﴾ ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، و ﴿ الذين أغوينا ﴾ خبر المبتدأ الثاني ، أي : هؤلاء هم الذين أغوينا .

﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما نافية ، وإما مصدرية ، أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والوجه الأول أوجه .

البلاغة :

﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ ؟ استفهام على سبيل التهكم والسخرية .

﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ تشبيه مرسل .

﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية ، وقلب ، وتضمين ، استعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يهتدون للأنباء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم ، وأصله : فعموا عن الأنباء ، وضُمّن معنى الخفاء فعدي بـ (على) .

المفردات اللغوية :

﴿ ويوم يناديهم ﴾ منصوب بفعل محذوف : اذكر ، أو معطوف على : يوم القيامة في الآية السابقة (٦٦) . ﴿ كنتم تزعمون ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليها . ﴿ حق عليهم القول ﴾ وجب وثبت مقتضى القول وحصل مؤداه ، وهو قوله تعالى : ﴿ لأملأنّ جَهَنَّمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾ [السجدة ١٣/٣٢] وغيره من آيات الوعيد ، أي ثبت القول عليهم بدخول النار ، وهم رؤساء الضلالة .

﴿ هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ﴾ قال صاحب الكشاف : ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، و ﴿ الذين أغوينا ﴾ أي أضللنا : صفة المبتدأ . و ﴿ أغويناهم ﴾ الخبر ، وكاف ﴿ كما ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره : أغويناهم ، فغووا غياً ، مثل ما غوينا ، يعنون أنا لم نقو إلا باختيارنا ، ولم نكرههم على الغي ؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً ، لا قسراً وإلجاء ، فلا فرق إذن بين

غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر ، والغواية : الضلال . ﴿ تبرأنا إليك ﴾ منهم أي من عبادتهم إيانا . ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ ﴿ ما ﴾ نافية ، أي ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم .

﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ أي الأصنام الذين تزعمون أنهم شركاء الله . ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي فلم يجيبوا دعاءهم ، لعجزهم عن الإجابة والنصرة . ﴿ ورأوا العذاب ﴾ أبصروه هم . ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ في الدنيا ، لما رأوه في الآخرة .

﴿ فعميت ﴾ خفيت . ﴿ الأنباء ﴾ الأخبار والحجج التي تنجيهم . ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ، لم يجدوا خبراً لهم فيه نجاة ، أي فصارت الأنباء كالْعُمْي عليهم لا تهتدي إليهم ، وأصله : فعموا عن الأنباء ، لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يأتي من خارج . ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة .

﴿ فأما من تاب ﴾ من الشرك . ﴿ وآمن ﴾ صدق بتوحيد الله . ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أدى الفرائض ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح . ﴿ من المفلحين ﴾ الناجحين عند الله ، وعسى : تحقيق على عادة الكرام ، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح .

المناسبة :

بعد بيان كون التمتع في الدنيا بزخارفها دون طاعة الله وشكره على نعمه سبباً في عذاب الكافر يوم القيامة ، أبان الله تعالى حالة الإهانة والتقريع للمشركين أو الكافرين حين يسألهم الله تعالى يوم القيامة ثلاثة أسئلة يحارون في الجواب عنها ، وهي السؤال عن آلهتهم التي عبدوها في الدنيا ، وعن دعوتهم لها ، وعما أجابوا به الرسل الذين دعوهم إلى الإيمان بربهم .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة بحيث يناديهم ويسألهم عن ثلاثة أشياء :

الأول ـ السؤال عن نصرة الآلهة المزعومة : ﴿ ويوم يناديهم فيقول : أين شركائيَ الذين كنتم تزعمون ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الحق تعالى

هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من الملائكة والجن والكواكب والأصنام والأنداد والأشخاص ، وتزعمون أنهم شركائي ، هل يشفعون لكم ، وهل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ والمقصود من السؤال الإهانة والتحقير ، والتقريع والتنديد ، فلا جواب لديهم ؛ لأنهم عرفوا يوم القيامة بطلان ما كانوا عليه ، وأدركوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة .

ونظير الآية : ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرّة ، وتركتم ما خوّلناكم وراءَ ظُهوركم ، وما نَرى مَعَكم شُفَعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شُرَكاءُ ، لقد تقطّع بينكم ، وضلّ عنكم ما كُنتم تَزْعمون ﴾ [الأنعام ٩٤/٦] .

ثم ذكر جواب أئمة الضلال ودعاة الكفر ، فقال :

﴿ قال الذين حق عليهم القول : ربّنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ أي قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق فيهم مؤداه ولزمهم الوعيد ، بقوله تعالى : ﴿ لأملأنّ جهنم من الجِنّة والناس أجمعين ﴾ [السجدة ١٣/٣٢] : ربنا هؤلاء الأتباع الذين آثروا الكفر على الإيمان كان غيهم باختيارهم ، كما أن غينا باختيارنا ، فإن إغواءنا وإضلالنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية والضلال قسراً وإكراهاً ، بل كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد والأعمال . والمراد أن تبعة غيهم عليهم لا علينا .

ونحن نتبرأ إليك منهم ، ومن عقائدهم وأعمالهم ، ومما اختاروه من الكفر والعصيان ، وهم في الحقيقة ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ، ويطيعون شياطينهم ، فالمعبودون شهدوا أنهم أغووا الأتباع فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم .

وذلك كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ واتّخَذُوا من دونِ اللهِ آلهةً ليكونوا لهم

عِزّاً ، كلا سَيَكفُرون بعبادتِهم ، ويكونون عليهم ضِدّاً ﴾ [مريم ٨١/١٩ـ٨٢] وقال سبحانه : ﴿ ومن أضلُّ ممن يَدْعو من دُونِ الله من لا يَسْتجيبُ له إلى يوم القيامةِ ، وهم عن دُعائهم غافلون . وإذا حُشر الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادتِهم كافِرين ﴾ [الأحقاف ٥/٤٦ـ٦] وقال عز وجل : ﴿ إذ تبرَّأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعوا ، ورأوا العذابَ ، وتقطَّعت بهم الأسبابُ ﴾ [البقرة ١٦٦/٢] .

السؤال الثاني ـ السؤال عن جواب الآلهة لدفع العذاب : ﴿ وقيل : ادعوا شركاءكم ، فدعوهم ، فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب ، لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي وقيل للمشركين بالله : ادعوا شركاءكم آلهتكم ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون في الدار الدنيا ، فدعوهم لفرط الحيرة والدهشة ، فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الجواب ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب المحدق بهم لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا . وعلى هذا جواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، أي ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون .

ونظير الآية : ﴿ ويوم يقول : نادوا شركائيَ الذين زعمتم ، فدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم مَوْبقاً . ورأى المجرمون النارَ فظنُّوا أنهم مُواقِعُوها ، ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفاً ﴾ [الكهف ٥٢/١٨ـ٥٣] .

والقصد من هذا السؤال التوبيخ والتقريع وكشفهم أمام الناس ، بدعائهم من لا نفع له ولا فائدة ترتجى منه ، فهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة ، وأن العذاب مقرر لهم ثابت عليهم . وفي ذلك ردع وزجر عن الشرك وخرافاته في الدنيا .

السؤال الثالث ـ السؤال عن التوحيد وإجابة الأنبياء : ﴿ ويوم يناديهم فيقولُ : ماذا أجَبْتُم المرسلين ﴾ ؟ أي واذكر يوم ينادي الله تعالى المشركين لمعرفة جوابهم للمرسلين إليهم ، وكيف كان حالهم معهم ، وعن التوحيد الذي دعوا

إليه ، وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من ربُّك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لاإله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لاأدري ، فلا جواب له يوم القيامة غير السكوت . وفي هذا إثبات النبوات ، وإعلان التوحيد ، والبراءة عن الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها .

﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون ﴾ أي فخفيت عليهم الحجج ، وعموا عن أوجه الدفاع عن أنفسهم يوم القيامة ، ولم يجدوا بداً من السكوت ، ولا يسأل بعضهم بعضاً كما يسأل الناس في المشكلات ، لما اعتراهم من الدهشة والذهول ، ولتساوي الناس جميعاً في عمى الأنباء عنهم والعجز عن الجواب ، حتى الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ يوم يَجْمعُ اللهُ الرسلَ ، فيقولُ : ماذا أُجبتم ، قالوا : لا عِلْمَ لنا ، إنك أنت علاَّمُ الغيوبِ ﴾ [المائدة ١٠٩/٥] فما ظنك بهؤلاء الضّلال ؟! وسميت حججهم أنباء (أخباراً) لأنها أخبار يخبرونها .

وبعد بيان الصورة القاتمة لحال هؤلاء المشركين وتوبيخهم ، ذكر الله تعالى حال التائبين ترغيباً في التوبة والبراءة عن الكفر ، فقال :

﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ أي فأما الذين تابوا من المشركين ، وصدقوا بالله وتوحيده ، وأخلصوا العبادة له ، وآمنوا بنبيه محمد ﷺ ، وعملوا الأعمال الصالحة في الدنيا من فرائض وغيرها ، فهم ناجون فائزون برضوان الله ونعيمه في الجنة يوم القيامة . وعسى من الله على سبيل التحقق ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة ، وأما من العبد فتوقع وترج أن يفلح ويفوز بما طلب .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات تنبيهاً وإنذاراً مسبقاً ، وتوبيخاً ، وزجراً عن الكفر ، كي يتدارك الإنسان أمره في الدنيا ، كيلا يفاجأ بالمصير المشؤوم يوم القيامة .

وفيها تفنيد لمزاعم الكفار في شفاعة الآلهة المختلقة ، ونصرتها لعابديها في عالم الحساب في الآخرة .

ففي التساؤل الأول تتبدد الآمال ، وتزول الرجاءات ، وتنقطع الأطماع ، فلا يجد العابدون فائدة في نصرة الشركاء وشفاعتهم لهم ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، فالشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل منهم ، وتقع الكارثة ، ويبهت المجرمون الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿ الأخلاءُ يومئذ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين ﴾ [الزخرف ٦٧/٤٣] .

وفي التساؤل الثاني تشتد الحيرة وتسيطر الدهشة ، فيستغيث الكفار بآلهتهم التي عبدوها في الدنيا لتنصرهم وتدفع عنهم عذاب يوم القيامة ، فلا يجدون جواباً لاستغاثتهم ، ولا صدى لدعائهم ، ولا ينتفعون أصلاً بهم ، وودُّوا حين رأوا العذاب محدقاً بهم لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إلى الإيمان بالله تعالى والعمل بكتابه وبما جاء به رسوله .

وفي التساؤل الثالث وهو الأمر الحاسم يطلب منهم الجواب عما أجابوا به رسل الله وأنبياءه الكرام لما بلغوهم رسالات ربهم ، ولكنهم يسكتون بسبب الحيرة والهول واستيلاء الدهشة عن الجواب ، وتخفى عليهم الحجج ، فلا يجدون حجة لهم يوم القيامة ، ولا يتمكنون من سؤال بعضهم بعضاً عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم ، وأخرس ألسنتهم ، إذ كل ما يقولونه باطل محض لا خير فيه . وفي هذا إثبات التوحيد والنبوة .

وأمام هذه الصورة الكئيبة والحالة المفجعة ، فتح الله أمام أولئك المشركين والكفار باب الأمل بالفوز والفلاح وإحراز السعادة ، وهو باب التوبة ، وطريق أهل الحق والإيمان ، وحكَم سبحانه أنه بالرغم من سوء حال المشركين الماضية في الدنيا لو تابوا من الشرك ، وصدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ،

وعملوا الصالحات بأداء الفرائض والإكثار من النوافل ، لكانوا بالتأكيد من جانب الله من الفائزين بالسعادة ، فإن « عسى » من الله واجبة ، ومن جانبهم على طريق الأمل والرجاء وتوقع النجاة والفوز .

وفي هذا ترغيب في التوبة والتخلص من ظلمة الكفر ، وضلال الشرك ، وإعمال الفكر في طريق العودة إلى الله إيماناً بوجوده ووحدانيته ، وتصديقاً بالكتب والرسل والبعث ، ومبادرة إلى القيام بالتكاليف الإلهية .

صاحب الحق المطلق في الاختيار المستحق للحمد والعبادة

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

الإعراب :

﴿ ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ﴾ : ﴿ ما ﴾ الأولى : اسم موصول بمعنى الذي ، في موضع نصب مفعول به لـ ﴿ يخلق ﴾ . و ﴿ ما ﴾ الثانية : نافية لاموضع لها من الإعراب .

البلاغة :

﴿ تكنّ ﴾ و ﴿ يعلنون ﴾ ﴿ الأولى والآخرة ﴾ بين كل طباق .

المفردات اللغويّة :

﴿ وربُّك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ فيه إثبات حرية الخلق والاختيار لله عز وجل ، دون موجب عليه ولا مانع له . ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ فيه نفي الاختيار عن المشركين وغيرهم ، والخِيَرة : هي الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ﴿ سبحان الله ﴾ تنزيهاً لله أن ينازعه أحد في اختياره . ﴿ تعالى ﴾ تعاظم وتقدس عن إشراكهم . ﴿ تكِنُّ صدورهم ﴾ تخفي أو تسرّ قلوبهم من

الكفر وعداوة الرسول ﷺ والحقد عليه وغير ذلك . ﴿ وما يعلنون ﴾ يظهرون بألسنتهم من الطعن في الرسول ﷺ وغيره . ﴿ وهو الله ﴾ المستحق للعبادة . ﴿ لاإله إلا هو ﴾ لاأحد يستحقها إلا هو . ﴿ في الأولى ﴾ الدنيا . ﴿ والآخرة ﴾ الجنة . ﴿ له الحكم ﴾ القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة أحد . ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بالنشور .

المناسبة :

بعد توبيخ المشركين على اتخاذ الشركاء ودعوتهم للشفاعة والنصرة ، أبان الله تعالى أنه هو صاحب الاختيار المطلق في تعيين الشفعاء ، لا المشركون ، وكذا في اصطفاء بعض المخلوقات للرسالة والنبوة وتمييزهم عن غيرهم ، فكان اختيار المشركين جهلاً وغباءً وضلالاً . وسبب كون الاختيار لله : أنه العالم بالخفايا والظواهر ، وأنه لإنعامه المستحق للعبادة ، فلا يستحقها إلا هو ، وأنه صاحب القضاء النافذ في كل شيء ، وأن إليه المرجع والمآب للسؤال والحساب .

التفسير والبيان :

﴿ وربُّك يخلُق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخِيَرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي أنه تعالى يخبر أنه المنفرد بالخلق والاختيار دون منازع ولا معقب ، والمعنى : ربك يا محمد وكل سامع صاحب الحق المطلق في خلق ما يشاء ، واختيار ما يريد ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، والأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه ، يختار أقواماً لأداء الرسالة ، ويصطفي من الملائكة والناس رسلاً لأداء المهمة ، ويمنح الحق في الشفاعة لمن يريد ، يميز بعض مخلوقاته على بعض .

وليس للمشركين ولا لغيرهم أن يختاروا شيئاً ، فيقولوا مثلاً : ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف ٣١/٤٢] أي إما على الوليد بن المغيرة أو على عروة بن مسعود الثقفي شيخ الطائف . فقوله تعالى ﴿ ما كان ﴾ :

﴿ ما ﴾ نافية على الصحيح كما نقل عن ابن عباس وغيره ، ولأن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ، ولهذا نزّه تعالى نفسه في منازعة أحد في سلطانه ، فقال : ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزيهاً لله وتقديساً وتعالياً عن إشراك المشركين ، وعن أن ينازعه أحد في اختياره وخلقه من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً .

والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إلى الله تعالى ، ليس لأحد فيه شركة ومنازعة .

ثم بيَّن الله تعالى كون اختياره مبنياً على علم ثابت صحيح فقال :

﴿ وربك يعلم ماتُكِنُّ صدورهم وما يعلنون ﴾ أي وربك أيها العبد المخلوق يعلم ما تخفيه صدورهم وما تنطوي عليه ضمائرهم وسرائرهم من الكيد لرسول الله ﷺ وعداوته ، كما يعلم ماتبديه الظواهر من سائر الخلائق ، كما قال : ﴿ سواء منكم من أسرَّ القول ومن جَهَر به ، ومن هو مستخفٍ بالليل ، وسارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد ١٠/١٣] .

وهذا العلم الشامل المطلق صادر ممن له خصائص الألوهية وكونه الإله الفرد الصمد ، فقال :

﴿ وهو الله لاإله إلا هو ﴾ أي هو المنفرد بالألوهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار غيره ، فهو العليم بكل شيء القادر على كل شيء .

وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات ، منزهاً عن النقائص والآفات ، لذا كان هو المستحق للحمد والشكر كما قال :

﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ أي إنه تعالى وحده المستحق للحمد والشكر ، والعبادة ، المحمود في جميع ما يفعله في الدنيا والآخرة ؛ لأنه بعدله وحكمته يمنح النعم ويفيض الخير على مخلوقاته .

﴿ وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ أي وهو تعالى له القضاء النافذ في كل شيء ، فلا معقّب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحيم اللطيف الخبير ، وإليه ترجع جميع الخلائق يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير أو شر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء .

وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ، ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، فلا يخل بميزان العدل ، يجازي المحسنين على طاعتهم ، ويعاقب العصاة على عصيانهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء ، لا إلى المشركين .

٢ ـ الخلق أو الاختيار لله تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، كما قال : ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٦] .

روى الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمراً قال : اللهم خِرْ لي واختر لي » وروى ابن السني مرفوعاً عن أنس أن النبي ﷺ قال له : « يا أنس ، إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق قلبك ، فإن الخير فيه » .

ومن هنا شرعت صلاة الاستخارة ، بأن يتوضأ ويصلي ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (الكافرون) وفي الثانية (الإخلاص) . روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : « كان النبي ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلّها ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا همّ أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل :

اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدرُ ولا أقدر ، وتعلمُ ولا أعلمُ ، وأنت علاّم الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدُرْه لي ويسّره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدُر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به » قال : ويسمي حاجته . قال العلماء : وينبغي له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر ، حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور ، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه ، فإن الخير فيه إن شاء الله ، فإن وجد انشراحاً وسروراً وارتياحاً فالأمر خير ، وإن وجد انقباضاً وضيقاً ، فالأمر شر .

٣ ـ إن اختيار الملائكة والرسل لأداء الرسالة إلى الله ، فهو يصطفي منهم ما يشاء على وفق الحكمة والمصلحة والعلم الشامل ، وليس ذلك لأحد من الناس ، كما تبادر إلى بعض المشركين أن تكون الرسالة لأحد زعيمين قويين في المال والأولاد والسلطة والنفوذ : إما الوليد بن المغيرة ، وإما عروة بن مسعود ، كما تقدم بيانه .

٤ ـ تقدس وتمجد الله عن إشراك المشركين .

٥ ـ الله تعالى عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء .

٦ ـ الله جل جلاله هو المنفرد بالألوهية والوحدانية ، وجميع المحامد له ، ولا حكم إلا إليه ، وإليه المرجع والمصير .

أدلة العظمة والسلطان الإلهي وتأكيد تقريع المشركين

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

الإعراب :

﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ، ولم يقل : لتسكنوا فيها ؛ لأن السكون إنما يكون بالليل لا بالنهار ، وقوله : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في النهار ؛ لأن الابتغاء للرزق إنما يكون بالنهار في العرف والعادة .

البلاغة :

﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ وكذا ﴿ يأتيكم بليل ﴾ ؟ استفهام للتبكيت والتوبيخ .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ لف ونشر مرتب ، ذكر الليل والنهار ، ثم أعاد السكن إلى الليل ، وابتغاء الرزق إلى النهار بالترتيب .

المفردات اللغوية :

﴿ قل ﴾ لأهل مكة وغيرهم . ﴿ أرأيتم ﴾ أخبروني . ﴿ سرمداً ﴾ دائماً متصلاً متتابعاً . ﴿ بضياء ﴾ نهار تطلبون فيه المعيشة . ﴿ أفلا تسمعون ﴾ ذلك سماع تدبر وتفهم واستبصار ، فترجعوا عن الإشراك . ﴿ تسكنون فيه ﴾ تستقرون وتستريحون فيه من متاعب الأشغال . ﴿ أفلا

تبصرون ﴾ ماأنتم عليه من الخطأ في الإشراك ، فترجعوا عنه . وقدم السمع لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر .

﴿ لتسكنوا فيه ﴾ في الليل . ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ لتطلبوا الرزق من فضل الله في النهار بأنواع المكاسب . ﴿ ويوم يناديهم ﴾ اذكر يوم . ﴿ أين شركائي .. ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لاشيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ؛ أو أن الأول لتقرير فساد آرائهم ، والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند أو دليل ، وإنما كان محض تشهٍ وهوى . ﴿ ونزعنا ﴾ أخرجنا . ﴿ شهيداً ﴾ هو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه . ﴿ فقلنا ﴾ للأمم . ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ماقلتم من الإشراك وما كنتم تدينون به . ﴿ فعلموا ﴾ حينئذ . ﴿ أن الحق لله ﴾ أي في الألوهية ، لايشاركه فيها أحد . ﴿ وضل عنهم ﴾ غاب عنهم غيبة الضائع ، أو تاه . ﴿ ماكانوا يفترون ﴾ في الدنيا من الباطل وهو أن معه شريكاً آخر ، تعالى عن ذلك .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أنه الخالق المختار ، وسفّه آراء المشركين في عبادتهم غير الله ، وبعد أن أبان أنه المستحق للحمد على ماتفضل به من النعم ، أردفه بإيراد بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه وهي النعم التي لا يقدر عليها سواه ، لتذكير الناس بما يجب عليهم من الحمد له ، وشكر المنعم المتفضل به . ثم كرر قوله : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ على جهة الإبلاغ والتأكيد ، ثم ذكر شهادة نبي كل أمة على أعمالهم في الدنيا ، زيادة في الغم وإثباتاً للجرم .

التفسير والبيان :

يمتن الله على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لاقوام لهم بدونها فقال :

ـ ﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ﴾ ؟ أي قل أيها الرسول للمشركين بالله : أخبروني إن جعل الله وقتكم كله ظلاماً ، فجعل الليل عليكم دائماً متتابعاً إلى يوم القيامة ، فيحصل لكم السأم والضجر والضرر ، كالمناطق القطبية التي يكون فيها

الزمن كله ليلاً لمدة ستة أشهر ، ثم يكون مثلها نهاراً ، فمن الإله غير الله الذي يتمكن من الإتيان بضياء النهار ، أفلا تسمعون ذلك سماع تدبر وتفهم وتفكر ، فتقلعوا عن الإشراك بالله ؛ لأن كل من سوى الله عاجز عن ذلك وغيره ؟ ثم ذكر العكس فقال :

ـ ﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ﴾ ؟ أي وقل لهم أيضاً أيها الرسول : أخبروني إن جعل الله زمنكم كله نهاراً ، فجعل النهار دائماً متصلاً إلى يوم القيامة دون أن يعقبه ليل ، فتتعب الأبدان وتكل الأجسام من كثرة الحركات والأشغال ، فمن ذلك الإله غير الله يستطيع الإتيان بليل تستقرون وتستريحون فيه من عناء التعب ، أفلا تبصرون هذه الظاهرة والحقيقة الدالة على القدرة الإلهية التامة ، فتعلموا أن المستحق للعبادة والتأليه هو الله المنعم بهذه النعم ؟

ـ ﴿ ومن رحمته جَعَل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ أي ومن رحمته بكم أيها الخلق تعاقب الليل والنهار وتفاوتها ، فجعل لكم الليل ظلاماً للراحة والسكن والاستقراء وهدوء النفس من عناء العمل النهاري ، وجعل لكم النهار مضيئاً لتبصروا فيه منافعكم ، وتحصلون فيه معايشكم ، وتتنقلوا فيه بالأسفار من بلد لآخر ، ويمتلئ بالحركات والأشغال ، بحثاً عن موارد الرزق ، وقضاء الحاجات بأنس ومتعة لا يتوافران في العمل الليلي ، فتشكروا الله بأنواع العبادات ليلاً ونهاراً على ماأنعم به عليكم من هذه النعم دون أن يشاركه فيها شريك ؟

دلَّ هذا بحق على أن تعاقب الليل والنهار من أعظم النعم على المخلوقات ، بل ومن البراهين الدالة على كمال القدرة الإلهية ، كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذي جَعَل الليلَ والنهارَ خِلْفة لمن أراد أن يَذَّكَّر أو أرادَ شكوراً ﴾ [الفرقان ٦٢/٢٥]

ونحو ذلك من الآيات الكثيرة . وهذا التعاقب لأغراض ثلاثة : أن تسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر ، وهو النهار ، ولإرادة شكركم على المنفعتين معاً .

ويلاحظ أنه تعالى قرن قوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ بالليل ، لمناسبته له ، ففي سكون الليل وظلامه يكون إعمال السمع أفيد ، ففيه يدرك الإنسان مالا يدركه بالبصر من منافع وفوائد . ثم قرن قوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ بالنهار ، لمناسبته له ، ففي ضوء النهار يكون إعمال البصر أوقع ، ففيه يدرك الإنسان بعينه من المنافع والفوائد والعظات مالا يدركه السمع أثناء الضجة والحركة ، وعلى هذا كان التذييل بما هو الأليق بكل من الليل والنهار .

وأما سبب التذييل بكل منهما فهو الحث على الانتفاع بما يسمعون ويبصرون تأملاً وتدبراً ، فلما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزّلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر .

ثم أعاد الله تعالى النداء لمن عبد مع الله إلهاً آخر على رؤوس الأشهاد على سبيل التوبيخ والتقريع فقال :

﴿ ويوم يناديهم فيقول : أين شركائيَ الذين كنتم تزعمون ﴾ ؟ أي واذكر ايها الرسول للمشركين يوم يناديهم ربك ، فيقول لهم : أين شركائي الذين كنتم تزعمون في دار الدنيا أنهم شركائي ، ليخلّصوكم مما أنتم فيه .

والقصد من تأكيد هذا النداء مرة ثانية التنبيه على أنه لاشيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به ، كما أنه لاشيء أدعى لمرضاته من توحيده تعالى .

قال القرطبي : والمناداة هنا ليست من الله ؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار ؛ لقوله تعالى : ﴿ ولا يكلّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ﴾ [البقرة ١٧٤/٢] لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكّتهم ، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب[1] .

(١) تفسير القرطبي : ٢٠٩/١٣

ويترتب على هذا النداء التوبيخي زيادة غمهم وفرط حزنهم وألمهم ، وقد أكد ذلك بالإشهاد عليهم ، ليعلم أن التقصير منهم ، فيكون ذلك زائداً في غمهم ، فقال :

﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ، فقلنا : هاتوا برهانكم ، فعلموا أن الحق لله ، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وأخرجنا أو أحضرنا من كل أمة شاهداً عليهم وهو نبيهم أو رسولهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ [الزمر ٦٩/٣٩] وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء ٤١/٤] فكل رسول يشهد على قومه بأعمالهم في الدنيا ، ويشهد محمد ﷺ على الأنبياء جميعاً .

وقلنا لهم : أحضروا برهانكم على صحة ماادعيتموه من أن لله شريكاً ، فلم يتمكنوا ولم يجيبوا ، وعلموا علم اليقين حينئذ أن الحق في الألوهية لله وحده ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا شريك له في ملكه وسلطانه ، وذهب عنهم أو تبدد باطلهم وافتراؤهم ، وتضليلهم وكذبهم الذي كان منهم في الدنيا بنسبة الشريك لله ، فلم ينفعهم شيئاً ، كما غابت عنهم آلهتهم غيبة الشيء الضائع ، فلم ينفعوهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ إن تعاقب الليل والنهار دليل على عظمة الله وقوة سلطانه وتوحيده ، وهو أيضاً نعمة ورحمة بالمخلوقات جميعاً من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، أما بالنسبة للإنسان ففي الليل دعة وهدوء ، وسكون وراحة من عناء العمل ، وفي النهار حركة وعمل وتكسب وطلب لرزق الله تعالى .

وتلك النعمة تستوجب الشكر ، وتستحق حمد الله على الدوام ، ويكون

الشكر بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل .

٢ ـ تتكرر مناداة الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها أمام الله تعالى يوم القيامة ، ففي المرة الأولى لا يستجيبون ، فتظهر حيرة أتباعهم وعابديهم ، وفي المرة الأخرى يسكتون ، وذلك كله توبيخ وتقريع للمشركين وزيادة خزي وتحقير أمام الخلائق قاطبة .

٣ ـ يزداد غم المشركين وتتضاعف حسرتهم وكمدهم وألمهم حين يشهد عليهم بأعمالهم نبيهم المبعوث إليهم في الدنيا لدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته ، ويطلب منهم إحضار حجتهم على صحة أو صدق ادعائهم ، ولكنهم يعجزون ، ويدركون إدراكاً جازماً أن الأنبياء صادقون فيما جاؤوا به ، وأن الله وحده هو الإله الحق ، ويذهب عنهم ويبطل كل ما كانوا يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة أخرى تعبد .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قصة قارون

ـ ١ ـ

بغيه على قوم موسى واغتراره بماله

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

الإعراب :

﴿ ما إن مفاتحه ﴾ ﴿ ما ﴾ اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب بـ ﴿ آتيناه ﴾ وصلته : ﴿ إن ﴾ وما عملت فيه . وكسرت ﴿ إن ﴾ لأنها متى وقعت في موضع يصلح اسماً وفعلاً ، كانت مكسورة ، والاسم الموصول يدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية . و ﴿ أولي ﴾ واحدها ﴿ ذو ﴾ من غير لفظها .

﴿ على علم عندي ﴾ في موضع الحال .

البلاغة :

﴿ لاتفرح ﴾ ﴿ الفرحين ﴾ وكذا ﴿ الفساد ﴾ ﴿ المفسدين ﴾ بين كل جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ قارون ﴾ هو قارون بن يصْهُر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام . ﴿ من قوم موسى ﴾ كان ابن عمه : لأن موسى هو ابن عمران بن قاهث ، وكان أيضاً ابن خالته ، وممن آمن به . ﴿ فبغى عليهم ﴾ تكبر عليهم وتجبر بكثرة المال وظلمهم وطلب أن يكونوا تحت أمره . ﴿ الكنوز ﴾ جمع كنز : وهو المال المدخر ، يقال : كنز المال : جمعه وادخره . ﴿ مفاتحه لتنوء ﴾ تثقل خزائنه أي صناديقه ، جمع مفْتح ، أو مقاليده أي مفاتيحه جمع مِفْتح وهو ما يفتح به . ﴿ بالعصبة ﴾ الجماعة الكثيرة . ﴿ أولي القوة ﴾ أصحاب الشدة . ﴿ قومه ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل . ﴿ لاتفرح ﴾ بكثرة المال ، أي لاتبطر وتتمسك بالدنيا دون الآخرة .

﴿ وابتغ ﴾ اطلب . ﴿ فيما آتاك الله ﴾ من المال . ﴿ الدار الآخرة ﴾ أي ثوابها ، بأن تنفقه في طاعة الله . ﴿ ولا تنس ﴾ تترك ترك المنسي . ﴿ نصيبك من الدنيا ﴾ أي حظك منها بأن تأخذ منها ما يكفيك أو أن تعمل فيها للآخرة . ﴿ وأحسن ﴾ للناس بالصدقة . ﴿ ولا تبغ ﴾ تطلب . ﴿ الفساد في الأرض ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي أي بعمل المعاصي . ﴿ لايحب المفسدين ﴾ أي يعاقبهم .

﴿ أوتيته ﴾ أي المال . ﴿ على علم عندي ﴾ أي معرفة مني ومهارة في اكتساب المال ، قيل : إنه علم التجارة . ﴿ من القرون ﴾ الأمم . ﴿ وأكثر جمعاً ﴾ للمال . ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ سؤال استعلام ، فإنه تعالى مطلع عليها ، معاقبهم عليها لا محالة .

المناسبة :

بعد تقريع المشركين وتوبيخهم ، ذكر الله تعالى قصة قارون لبيان عاقبة الكافرين والمتجبرين في الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف والزلزلة ، وهو في الآخرة كالمشركين من أهل النار .

أضواء من التاريخ على قصة قارون :

عرفنا أن قارون هو ابن يصْهُر بن قاهَثَ جدّ موسى ، فهو ابن عمه ، وقال ابن عباس : وكان أيضاً ابن خالته . وكان يسمى المنوّر لحسن صورته ، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم ، فنافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

فهو رجل من بني إسرائيل ، آتاه الله مالاً كثيراً ، حتى إن مفاتيح خزائنه كان تنوء بحملها عصبة من الرجال . نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر والإفساد في الأرض ، وأن يستعمل ماله في مرضاة الله ، مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا بقدر الكفاية ، وألا ينفقه فيما يغضب الله تعالى ، حتى لا يتعرض لزوال النعمة ، فأبى الامتثال لنصح الناصحين ، وقال في ماله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ والظاهر أنه جمعه بما لديه من ذكاء وخبرة في شؤون التجارة ، ولكنه غفل عن بطش الله بالمتجبرين المتكبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال .

وقد استبد به الكبر والخيلاء أن كان يخرج في موكب مهيب وزينة فاخرة باهرة ، فافتتن بعض الناس بمظاهره ، وتمنوا أن يؤتوا مثله من المال ، فقال لهم

أهل العلم والبصر والحكمة : لاتفتتنوا به ولا تطمعوا ، فثواب الله خير للمؤمن الذي يعمل الصالحات ، فكان عاقبة طغيانه وظلمه وجحوده نعمة الله أن خسف الله به وبداره الأرض ، دون أن يجد له نصيراً أو معيناً .

التفسير والبيان :

﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ﴾ أي إن قارون الذي أصبح مضرب المثل والغنى والثروة والظلم والعتو كان من بني إسرائيل ، فتجبر وتكبر بكثرة ماله ، وتجاوز الحد في ظلمهم ، وطلب منهم أن يكونوا تحت إمرته ، مع أنه قريبهم :

وظلم ذوي القربى أشد غضاضة على المرء من وقع الحسام المهنَّد

﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولي القوة ﴾ أي وأعطيناه من الأموال النقدية والعينية المدخرة التي يثقل بحمل مفاتيح خزائنها العصبة (الجماعة الكثيرة) القوية من الناس . قال ابن عباس : إن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلاً من الأقوياء .

فنصحه الوعاظ بمواعظ خمس قائلين :

١ ـ ﴿ إذ قال له قومه : لاتفرح ، إن الله لايحب الفرِحين ﴾ أي قال له جماعة من بني إسرائيل من النصحاء ، حينما أظهر التفاخر والتعالي : لاتبطر ولا تفرح بما أنت فيه من المال ، فإن الله لايحب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ماأعطاهم ، ولا يستعدون للآخرة ، أي يبغضهم ويعاقبهم ، كقوله تعالى : ﴿ لكيلا تَأْسَوْا على مافاتكم ، ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم ، والله لايحب كل مختال فخور ﴾ [الحديد ٢٣/٥٧] .

٢ ـ ﴿ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أي استعمل ماوهبك الله من هذا

المال الجزيل ، والنعمة الطائلة ، في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القُرُبات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة .

٣ ـ ﴿ ولا تنْسَ نصيبك من الدنيا ﴾ أي لاتترك حظك من لذات الدنيا التي أباحها الله من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والزواج ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزَوْرك (زوارك) عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه . وهذه هي وسطية الإسلام في الحياة ، قال ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

٤ ـ ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي وأحسن إلى خلقه كما أحسن الرب إليك ، وهذا أمر بالإحْسان مطلقاً بعد الأمر بالإحسان بالمال ، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه ، وطلاقة الوجه ، وحسن اللقاء ، وحسن السمعة ، أي أنه جمع بين الإحسان المادي ، والإحسان الأدبي أو الخلقي .

٥ ـ ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لايحب المفسدين ﴾ أي ولا تقصد الإفساد في الأرض بالظلم والبغي والإساءة إلى الناس ، فإن الله يعاقب المفسدين ، ويمنعهم رحمته وعونه وودّه .

ولكن قارون أبى النصح فقال :

﴿ قال : إنما أوتيتُه على علم عندي ﴾ أي قال قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : أنا لاأحتاج لما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال ، لعلمه بأني أستحقه ، ولمعرفتي وخبرتي بكيفية جمعه ، فأنا له أهل ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسانَ ضرٌّ دعانا ، ثم إذا خَوَّلناه نِعْمةً منا ، قال : إنما أوتيتُه على عِلْمٍ ﴾ [الزمر ٣٩/٤٩] أي على علم من الله بي ، وقال سبحانه : ﴿ ولئنْ أذَقْناه رحمةً منا من بَعْدِ ضَرّاءَ مسّته ، ليقولَنّ : هذا لي ﴾ [فصلت ٤١/٥٠] أي هذا أستحقه .

فأجابه الله بقوله :

﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوة ، وأكثر جمعاً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي أو لم يدر في جملة ماعنده من الدراية والعلم حتى لا يغترّ بكثرة ماله وقوته أنه قد كان من هو أكثر منه مالاً ، وما كان ذلك منا عن محبة له ، أو أنه أهل له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولا يسأل المجرمون عن كثرة ذنوبهم ، أي إذا عاقب الله تعالى المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن أنواع ذنوبهم ومقدارها ؛ لأنه تعالى عالم بكل المعلومات ، فلا حاجة به إلى السؤال . فالمراد بذلك سؤال الاستفسار والاستعلام ، كقوله تعالى : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ وسؤال الاستعتاب ، كما قال تعالى : ﴿ ثم لا يُؤذَن للذين كفروا ، ولا هم يُستعتبون ﴾ [النحل ٨٤/١٦] . ﴿ هذا يوم لا يَنْطقون ولا يُؤْذَن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات ٢٥/٧٧ ـ ٣٦] .

ونظير الآية : ﴿ فيومئذ لا يُسْأَلُ عن ذَنْبِه إنسٌ ولا جَانّ ﴾ [الرحمن ٣٩/٥٥] .

ولا يتنافى هذا مع سؤالهم في وقت آخر سؤال توبيخ وإهانة ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فوربّك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون ﴾ [الحجر ٩٢/١٥ ـ ٩٣] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ البغي مرتعه وخيم ، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار .

٢ ـ إن كثرة المال محنة وبلاء ، وسبب للطغيان والفساد .

٣ ـ الجاهل الذي لاعلم لديه ، أو علمه ناقص هو الذي يغترُّ بماله ، ويبطر

عند النعمة ، فإن الله تعالى يعاقب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون نعمة الله تعالى عليهم .

٤ ـ إن أصول الحضارة الإسلامية أربعة : العمل الصالح ابتغاء ثواب الآخرة ، وعمارة الدنيا بإتقان دون أن تستولي على مشاعر الإنسان ، والإحسان إلى الناس إحساناً مادياً ومعنوياً أو خلقياً ، وقمع الفساد والعصيان والخراب .

فمن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في التجبر والبغي ، وألا يضيع عمره في غير العمل الصالح في دنياه ؛ إذ الآخرة هي التي يعمل لها ، فنصيب الإنسان : عمره وعمله الصالح فيها ، بأن يطيع الله ويعبده كما أنعم عليه ، وألا يعمل بالمعاصي والإفساد ، فإن الله يجازي المفسدين .

٥ ـ الله تعالى مصدر الخير والرزق ، وما العبد إلا وسيلة ، يجب عليه أن يعمل ويكتسب ، والله هو الرازق الميسر له أسباب الرزق ، المانح له الثراء والمال ، فيكون هو المستحق للشكر على تلك النعمة .

فمن الغباء والجهل أن ينسب الإنسان الخير والفضل لنفسه ومواهبه ، أو يدعي أنه الحقيق الجدير بما أعطي ، أو ينخدع بأن ماأعطيه دليل على محبة الله ورضاه عنه ، فقد يكون العطاء فتنة واستدراجاً ، وليس قرينة الرضا والمودة .

لذا كان اغترار قارون بكثرة ماله ، وادعاؤه أنه أهل له عبثاً باطلاً .

٦ ـ أهلك الله كثيراً من الأمم الخالية الكافرة ، وهم أشد قوة من قارون ، وأكثر جمعاً للمال منه ، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم .

٧ ـ لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب ، فالله عليم بكل شيء ، ولا يقبل اعتذارهم ولا عتبهم ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ كما بينا .

- ٢ -
بعض مظاهر بغي قارون وكبريائه

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ أراد : وقال الذين فحذف الواو كما حذفت من قوله تعالى : ﴿ سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم ﴾ [الكهف ٢٢/١٨] أي ورابعهم .

﴿ ويكأن الله ﴾ ﴿ ويكأن ﴾ « وي » : منفصلة من « كأن » بمعنى أعجب ، وهي كلمة يقولها المتندم إذا أظهر ندامته . وكأن الله : بلفظ التشبيه ، لكن ليس بمعنى التشبيه ، أي إن الله .

﴿ لولا أن مَنَّ الله .. ﴾ أن مخففة من الثقيلة من غير عوض ، وإنْ كانت قد دخلت على الفعل ، وتقديره : لولا أن الأمر والشأن منّ الله علينا لخسف بنا . وقرئ ﴿ لخسف ﴾ و ﴿ خُسِفَ ﴾ و ﴿ لا يُخْسَفُ بنا ﴾ . فعلى القراءة الأولى : معناه : ﴿ لخسف الله بنا ﴾ والجار والمجرور في موضع نصب بالفعل ، وعلى القراءة الثانية : الجار والمجرور في موضع رفع ، لقيامه مقام نائب الفاعل ، وعلى القراءة الثالثة حذفت الكسرة تخفيفاً ، والقراءة الرابعة كقراءة ﴿ لُخسف بنا ﴾ للبناء للمجهول .

البلاغة :

﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ تأكيد الجملة بإن واللام ؛ لأن السامع شاك متردد .

﴿ تمنوا مكانه بالأمس ﴾ كناية ، كنّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ ﴿ الأمس ﴾ .

﴿ يبسط الرزق ﴾ ﴿ ويقدر ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ فخرج ﴾ قارون ﴿ على قومه في زينته ﴾ في موكب مهيب يتبعه الركبان متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية ، وكانوا أربعة آلاف . ﴿ يا ﴾ للتنبيه ﴿ مثل ما أوتي قارون ﴾ في الدنيا ، تمنوا مثله ، لا عينه حذراً من الحسد ، ﴿ إنه لذو حظ ﴾ لصاحب نصيب ﴿ عظيم ﴾ وافٍ في الدنيا ﴿ أوتوا العلم ﴾ بأحوال الآخرة وما وعد الله فيها ، فالمراد بالعلم : علم الدين وأحوال المتقين ﴿ ويلكم ﴾ الويل : الهلاك أو العذاب ، والمراد هنا : الزجر عما لا ينبغي ﴿ ثواب الله ﴾ في الآخرة بالجنة ﴿ خير ﴾ مما أوتي قارون في الدنيا ﴿ ولا يلقّاها إلا الصابرون ﴾ أي لا يتلقى الجنة المثاب بها ﴿ إلا الصابرون ﴾ على الطاعات وعن المعاصي .

﴿ فخسفنا به ﴾ أي بقارون ، وخسف : غار في الأرض ، والمراد : جعلنا عاليها سافلها ﴿ فئة ﴾ جماعة أعوان ﴿ من دون الله ﴾ أي غيره ، بأن يمنعوا عنه الهلاك ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾ الممتنعين من عذاب الله تعالى ﴿ بالأمس ﴾ من قريب ﴿ ويكأن الله ﴾ أي ألم تر أن الله ، وكلمة « وي » اسم فعل بمعنى أتعجب ، وكأن : للتشبيه في الأصل ، وليس المراد بها هنا التشبيه ، وإنما المراد : بل إن الله ﴿ يبسط ﴾ يمدّ ويعطي ﴿ ويقدر ﴾ يضيق ويقتر بمقتضى مشيئته ، لا لكرامة تقتضي البسط ، ولا لهوان يوجب القبض .

المناسبة :

هذا فصل آخر من قصة قارون ، فبعد أن ذكر الله تعالى بغيه على بني إسرائيل وتجبره عليهم ، أعقبه ببيان بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فقام باستعراض عظمته وقوته وأبهته ، تعالياً على الناس ، وإذلالاً للنفوس ، وكسراً للقلوب ، فعاقبه الله بالخسف والزلزال ، وأصبح المعجبون بحاله متعجبين مما حل به ، وأدركوا أن الإمداد بالرزق الإلهي لا لكرامة ومنزلة للإنسان عند الله ، كما أن حجب الرزق لا لهوان وسخط .

التفسير والبيان :

﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ أي فخرج قارون يوماً على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى حاشيته ، بقصد التعالي على الناس ، وإظهار العظمة والأبهة . قال الرازي : وليس في القرآن إلا هذا القدر[١] ، يعني أن وصف الزينة كما يذكر بعض المفسرين لا دليل عليه .

﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثلَ ماأُوتي قارون ، إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي فلما خرج في مظاهر الأبهة كان طبيعياً أن يفتتن بعض الناس به ، وهم السُذَّج والجهال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ويميلون إلى زخارفها وزينتها ، فتمنوا أن لو كان لهم مثل ماأُعطي ، وقالوا : ياليت لنا من الأموال والثروات والأوضاع مالقارون ، لنتمتع بها مثله ، فإنه ذو نصيب وافر من الدنيا . وهذه نزعة جِبلِّيَّة في الإنسان ، فهو دائماً يطمع في السعة واليسار : ﴿ وإنه لحُبِّ الخيرِ لشديدٌ ﴾ [العاديات ٨/١٠٠] .

وفي مقابلة هذا الفريق يوجد فريق آخر هم أهل الحكمة والعلم وبعد النظر : ﴿ وقال الذين أُوتوا العلم : ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقّاها إلا الصابرون ﴾ أي وقال علماء الدين وأهل العلم النافع : ويلكم أي انزجروا وارتدعوا عن هذه التمنيات والأقوال ، فإن جزاء الله ومثوبته لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وماتتمنون ، ولكن لا يتلقى الجنة أو المثوبة ولا يوفق لها إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي ، الراغبون في الدار الآخرة ، الراضون بقضاء الله في كل ماقسم من المنافع والمضار ، المترفعون عن محبة الدنيا ، وذلك كما جاء في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٧/٢٥

واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّة أَعْيُن ، جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة ١٧/٣٢] .

ثم ذكر تعالى عقاب قارون فقال :

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ أي بعد أن اختال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم ، زلزلنا به وبداره الأرض ، فابتلعته وغاب فيها جزاء بطره وعتوه ، كما ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يجرُّ إزاره ، إذ خَسَف الله به ، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة ».

﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ماأغنى عنه ماله ولا حاشيته ، ولادفعوا عنه نقمة الله ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصراً لها ، فأصبح لاناصر له من نفسه ولا من غيره .

ولا داعي لبيان أسباب الخسف المروية في التفاسير ، فإنها كما ذكر الرازي في أكثر الأمر متعارضة مضطربة ، والأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب[1] .

وحينئذ ظهرت العبرة للمعتبر ، وتبين المفتونون بمال قارون حقيقة الأمر :

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدِر ﴾ أي صار الذين رأوه في زينته وتمنوا في الماضي القريب أن يكونوا مثله يقولون : ألم تر أن الله يمدّ الرزق لمن يشاء من خلقه ويضيقه على من يشاء ، وليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسّع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، كما

(١) تفسير الرازي : ١٨/٢٥

جاء في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقَكم كما قَسَم أرزاقَكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ».

﴿ لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لولا لطف الله بنا ، وإحسانه إلينا ، لخسف بنا الأرض ، كما خسف بقارون ؛ لأنا وددنا أن نكون مثله ، وألم تر أن الله لا يحقق الفوز والنجاح للكافرين به ، المكذبين رسله ، المنكرين ثواب الله وعقابه في الآخرة ، مثل قارون .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ لقد استبد البغي والغرور والبطر والكبر بقارون ، فتعالى على قومه بني إسرائيل ، وأراد إظهار أبهته وعظمته أمامهم ، فخرج عليهم في يوم عيد في موكب مهيب مزدان بمتاع الحياة الدنيا من الثياب والتجمل والدواب .

٢ ـ انقسم الناس في شأن قارون بعد هذا الاستعراض فريقين : فريق ينبهر بسطحيات الأمور ، فأعجب بهذا المظهر ، وتمنى أن يكون مثل قارون في الثروة والمال والعزة والجاه ، وهؤلاء هم الماديون في كل زمان .

وفريق نور الله بصيرته ، ولم يغتر بمظاهر الدنيا وزخارفها ، وإنما نظر إلى الحقائق ، وأدرك أن الدنيا فانية ، وأن السعادة بالفوز في الآخرة ، وهؤلاء هم العلماء المؤمنون العارفون بمصير العالم والإنسان وهم أحبار بني إسرائيل ، فقالوا لأصحابهم الفريق الأول : ويلكم (كلمة زجر) ثواب الله أي الجنة ونعيمها خير من مال قارون وجاهه ، وهي لمن آمن وعمل الأعمال الصالحة ، ولا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . ويلاحظ أن الضمير في قوله : ﴿ ولا يلقّاها ﴾ يراد به الجنة ؛ لأنها المعنية بقوله تعالى : ﴿ ثواب الله ﴾ .

٣ ـ كان عقاب قارون في الدنيا الخسف به وبداره الأرض ، فأصبح كأن لم يكن ، وله في الآخرة عذاب النار ، ولم يكن له في الحالين جماعة ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله ، وما كان من المنتصرين الممتنعين من العذاب .

٤ ـ إن في ذلك لعبرة للمتأمل ، فقد ندم الذين تمنوا أن يكونوا مثله ، وتنبهوا إلى حقيقة الأمر ، وتعجبوا من تعجيل العقاب ، وأدركوا أن سعة الرزق ليست دليلاً على رضوان الله ، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سخط الله ، وحمدوا الله على فضله ورحمته وعصمته من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر وما نزل به من العقاب ، وأيقنوا أن لا فلاح ولا فوز عند الله للكافرين به ، المكذبين رسله ، الجاحدين نعمته .

٥ ـ إن عاقبة الكبر والتعالي وخيمة ، وإن الاغترار بالأموال والأوصاف نذير سوء ، ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب « العجائب الغريبة » عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً في مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه ، وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : مالك تنظر إلي ؟ فقلت : أتعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب مني ، قال : فما زال ينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته في كمه ، وذهب به .

وهذا واضح اليوم حين يفترس السرطان جسد الإنسان ، فيتآكل عظمه من الداخل تدريجياً ، ويضر ويصيبه الهزال الشديد ، حتى يصبح قَزَماً صغيراً ، ثم يموت .

ـ ٣ ـ

محل الجزاء ومقداره والعبرة من قصة قارون

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

الإعراب :

﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ ﴿ تلك ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ الدار الآخرة ﴾ : إما خبر ، فيكون قوله تعالى : ﴿ نجعلها ﴾ في موضع نصب على الحال أو في موضع رفع خبر بعد خبر ، وإما عطف بيان ، فيكون قوله : ﴿ نجعلها ﴾ خبر المبتدأ .

البلاغة :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ بينهما مقابلة .

﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ وضع الظاهر وهو السيئات موضع الضمير أي « عملوها » تهجيناً لحالهم ، بتكرير إسناد السيئة لهم .

المفردات اللغوية :

﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ أي الجنة ، وتلك : إشارة تعظيم ، كأنه قال : تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿ علواً في الأرض ﴾ قهراً وتكبراً وغلبة ﴿ ولا فساداً ﴾ ظلماً على الناس ، كما أراد فرعون وقارون ﴿ والعاقبة ﴾ المصير المحمود ﴿ للمتقين ﴾ عقاب الله أو ما لا يرضاه الله ، بفعل الطاعات .

﴿ بالحسنة ﴾ الفعلة الطيبة ﴿ فله خير منها ﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ الفعلة المنكرة الخبيثة ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون ، فحذف المثل ، وأقام مقامه : ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ مبالغة في المماثلة .

المناسبة :

بعد بيان قول أهل العلم : ﴿ ثواب الله خير ﴾ أبان الله تعالى محل هذا الجزاء وهو الدار الآخرة ، وجعله للمؤمنين المتقين المتواضعين الذين لا يتكبرون على الناس ولا يفسدون فيهم ، بظلمهم وأكل حقوقهم ، ثم بيّن بعدئذ مقدار ذلك الجزاء الذي يحصل لهم : وهو أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف ، فأكثر ، فضلاً من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها ، لطفاً من الله وعدلاً . وذلك كله عبرة بقصة قارون المتجبر المتكبر الباغي .

التفسير والبيان :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ أي إن الدار الآخرة ونعيمها الدائم الذي لا يحول ولا يزول ، ولا عناء فيه ولا مشقة ، يجعلها ربك لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم بغير حق ، ولا فساداً بأخذ أموالهم بغير حق . ولم يعلق الوعد بالنعيم بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتها وميل القلب إليها . وقال : ﴿ تلك ﴾ على جهة التعظيم للجنة والتفخيم لشأنها ، يعني تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها .

قال علي رضي الله عنه ـ فيما رواه ابن جرير عنه ـ : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل في قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة ..﴾ الآية . قال ابن كثير : وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :

« إنه أُوحِيَ إلي أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » .

وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل ، فهذا لا بأس به ، فقد ثبت ـ فيما روى مسلم وأبو داود ـ أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبْر : بطَرُ الحق ، وغَمْط الناس » .

﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ أي والمصير المحمود وهو الجنة لمن اتقى عذاب الله وخاف عقابه ، بعمل الطاعات ، وترك المحظورات المحرَّمات ، ولم يكن كفرعون الطاغية الجبار الكافر بالله ، ولا كقارون الباغية الفاجر المكذب رسل الله ، الذي يريد الفساد في الأرض والاستعلاء .

ثم بين الله تعالى حال الجزاء على الأعمال فقال :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ أي من جاء بالخصلة الحسنة يوم القيامة ، فله خير منها ذاتاً ومقداراً وصفة ، فثواب الله خير من حسنة العبد ، والله يضاعفه أضعافاً كثيراً ، فضلاً من الله ورحمة وإحساناً .

﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي ومن أتى بالفعلة القبيحة المنكرة شرعاً وعقلاً وعرفاً صحيحاً مقبولاً ، فلا يجزى عليها إلا مثلها رحمة وعدلاً ، كما قال تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكُبَّت وجوههم في النار ، هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [النمل ٢٧/٩٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الآتي :

١ ـ الجنة ونعيمها والعاقبة المحمودة للمؤمنين المتقين المتواضعين الذين لا يقصدون رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ، ولا فساداً بعمل المعاصي وأخذ المال بغير حق ، وذلك من لم يكن مثل فرعون وقارون . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يردد هذه الآية حتى قبض .

وقوله : ﴿ علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ دليل على أن كل واحد من العلوّ والفساد مقصود ، لا مجموعهما . والعلو : الرفعة والتكبر . والفساد : يعم كل أنواع الشر .

٢ ـ من أتى بالخصلة الحسنة ، ومنها : لا إله إلا الله ، فله منها خير ، ومن جاء بالفعلة السيئة ، ومنها الشرك فيعاقب بما يليق بعمله .

وهذا من فضل الله العظيم ورحمته بالناس أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها ، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ، إلى سبع مئة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، والله يضاعف لمن يشاء .

قصص النبي ﷺ وأصحابه مع قومه

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

الإعراب :

﴿ أعلم من جاء ..﴾ ﴿ من ﴾ : في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه ﴿ أعلم ﴾ وتقديره : يعلم من جاء بالهدى ، كقوله : ﴿ أعلم من يضل عن سبيله ﴾ [الأنعام ١١٧/٦] أي يعلم من يضل ، ووجب التقدير لامتناع الإضافة .

﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ﴿ وجهه ﴾ : مستثنى منصوب . ويجوز فيه الرفع على الصفة ، وتكون ﴿ إلا ﴾ بمعنى غير ، مثل : قام القوم إلا زيد ، بالرفع على الوصف ، كقولهم : قام القوم غير زيد ، وكقول الشاعر :

وكل أخ مفارقُه أخوه لعمرُ أبيك إلا الفرقدان

أي غيرَ الفرقدين .

البلاغة :

﴿ إلا وجهه ﴾ مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أي ذاته المقدسة .

المفردات اللغوية :

﴿ فرض عليك القرآن ﴾ أنزله عليك ، وأوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ أي بلده مكة ، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظافراً منتصراً ، علماً بأن السورة مكية . وقيل : المعاد : هو المقام المحمود الذي وعده ربه أنه يبعثه فيه يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة .

﴿ أعلم من جاء بالهدى ﴾ ﴿ أعلم ﴾ بمعنى عالم ، و﴿ من ﴾ منتصب بفعل يفسره : أعلم ، أي فالنبي هو الجائي بالهدى ، جواباً لقول كفار مكة : إنك في ضلال ، والحقيقة أنهم هم في ضلال ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ إلا رحمة ﴾ أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك ، أي لأجل الترحم ﴿ ظهيراً ﴾ معيناً وناصراً ﴿ للكافرين ﴾ على دينهم الذي دعوك إليه ، بمداراتهم ، والتحمل منهم ، والإجابة إلى طلبهم .

﴿ ولا يَصُدُّنَّك ﴾ أصله : ولا يصدونك ، حذفت نون الرفع للجازم ، والواو الفاعل ؛ لالتقائها مع النون الساكنة ﴿ عن آيات الله ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها . ﴿ بعد إذ أنزلت إليك ﴾ أي لا ترجع إليهم في ذلك ﴿ وادع إلى ربّك ﴾ أي وادع الناس إلى توحيده وعبادته ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ بإعانتهم ، علماً بأنه لم يؤثر الجازم في الفعل لبنائه ﴿ ولا تدْعُ ﴾ تعبد ﴿ هالك ﴾ معدوم ﴿ إلا وجهه ﴾ إلا ذاته ﴿ له الحكم ﴾ القضاء النافذ ﴿ وإليه ترجعون ﴾ بالنشور من قبوركم .

سبب النزول :

نزول الآية (٨٥) :

﴿ إن الذي فرض ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ .

وقال مقاتل : إنه ﷺ خرج من الغار - غار ثور حين الهجرة - وسار في غير الطريق ، مخافة الطلَب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجُحْفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال له : تشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال ﷺ : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ يعني إلى مكة ظاهراً عليهم . قال الرازي : وهذا المعنى أقرب ؛ لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه ، وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملاً ، لكن ذلك أقرب[1] .

المناسبة :

قال الرازي أيضاً : ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة ، واستقصى في ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله ، فقال : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾[2] .

وهذا يعني أن الله تعالى بعد أن قص في هذه السورة على رسوله قصص موسى مع فرعون ، وقصص قارون مع قومه بني إسرائيل ، وبيَّن هلاك كل من

---

(١) تفسير الرازي : ٢١/٢٥

(٢) المرجع والمكان السابق .

الطاغيتين ، أعقبه بذكر قصص النبي ﷺ وأصحابه مع قومه ، وإخراجهم أو تهجيرهم إياه من مكة ، ثم عوده إليها ظافراً منتصراً ، متابعاً دعوته إلى عبادة الله وتوحيده .

التفسير والبيان :

يأمر الله رسوله بإبلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ويخبره بأنه سيرده إلى معاد فقال :

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ أي إن الله الذي أوجب عليك العمل بالقرآن وافترض عليك أداءه إلى الناس ، لرادّك إلى بلدك الحبيب : مكة فاتحاً ظافراً منتصراً ، بعد خروجك منها مهاجراً . وكان هذا هو الفتح الأعظم الذي تم به الاستيلاء على معقل الكفر والوثنية ، وتحطيم الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة .

وهو وعد صادق منجز من الله لرسوله ، حينما كان في مكة في طريقه إلى المدينة ، فاطمأن لذلك وهدأت نفسه . قال المحققون : وهذا أحد ما يدل على نبوته ؛ لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر ، فيكون معجزاً .

ولما وعد الله تعالى رسوله الرد إلى معاد أمره أن يقول للمشركين (كفار مكة) توبيخاً لهم حينما اتهموه بأنه في ضلال القول الآتي :

﴿ قل : ربي أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو في ضلال مبين ﴾ أي قل أيها الرسول لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم : الله تعالى العالم البصير الذي يعلم الغيب والشهادة هو عالم بالمهتدي مني ومنكم ، وعالم بالضال ضلالاً بيناً ظاهراً ، وعالم بمن جاء بالهدى ـ يعني نفسه ﷺ ـ وهو القرآن ، وبما يستحقه من الثواب في معاده ، وإعزازه بالإعادة إلى مكة ،

وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ، فينصر المؤمن ، ويخذل الكافر .

ثم قال تعالى مذكراً نبيه نعمته العظيمة عليه وعلى الناس إذ أرسله إليهم :

﴿ وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلا رحمة من ربك ﴾ أي وما كنت أيها النبي تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل إليك ، وأن القرآن ينزل على قلبك ، فتعلم به أخبار الماضين ، وتعرف منه دستور الحياة ، وتشريع المجتمع الذي فيه سعادتهم ونجاتهم ، ولكن إنما أنزل ربك الوحي عليك وألقى عليك الكتاب ، رحمةً منه بك وبالعباد بسببك .

وبناء عليه كلفه ربه بأمور خمسة هي :

١ ـ ﴿ فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ أي فلا تكن معيناً للكفار بأي حال ، ولكن فارقهم وخالفهم ، وكن عوناً للمسلمين ، والله مؤيدك وحافظك .

٢ ـ ﴿ ولا يصدُّنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تتأثر بهم ولا لمخالفتهم لك ، ولا تركن إلى قولهم ، فيصدُّوك عن اتباع آيات الله المنزلة إليك ، وتبليغها للناس ، فإن الله معك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك ، وإن لم تفعل ، فما بلَّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة ٦٧/٥] .

٣ ـ ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أي وادع إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، وبلِّغ دينه ، وأعلن رسالته دون تردد ولا خوف ولا تمهل . وهذا أمر بالصدع أو الجهر بالدعوة ، وفيه تشدد بدعوة الكفار والمشركين ، ولكن في مظلة الأمن والسلام ، والمهادنة والموادعة .

٤ ـ ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي واحذر أن تكون مع الذين أشركوا بربهم ، فجعلوا له شريكاً ونداً ، فتكون من الهالكين ؛ لأن من رضي بطريقتهم كان منهم .

وهذا النهي عن مظاهرة المشركين ونحو ذلك من باب إلهاب الحماس ، وتهييج العاطفة ، وإثارة الغيرة على استقلال دين التوحيد وعبادة الله .

ثم فسر ذلك بقوله :

٥ ـ ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ﴾ أي ولا تعبد مع الله إلهاً آخر ، ولا تدع في أي عمل من الأعمال إلهاً غير الله ؛ لأنه لا تليق العبادة إلا له ، ولا جدوى في الدعاء لغيره ، ولا تنبغي الألوهية إلا لعظمته ، ولا معبود يستحق العبادة سواه ، كما قال : ﴿ ربُّ المشرقِ والمغربِ ، لا إلهَ إلا هو ، فاتخذْهُ وكيلاً ﴾ [المزمل ٧٣/٩] أي فاتخذه وكيلاً في أمورك ، وهو نعم الوكيل .

وهذا وإن كان واجباً على الكل ، إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم .

ثم بيَّن الله تعالى صفات الألوهية التي تفرد بها فقال :

أولاً ـ ﴿ كل شيء هالك إلا وجهَه ﴾ أي كل من في الوجود فانٍ إلا ذات الله المقدسه ، فهو الدائم الباقي ، الحي القيوم ، الذي يميت الخلائق ولا يموت ، كما قال سبحانه : ﴿ كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن ٥٥/٢٦-٢٧] . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد :

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل »

ومقتضى هذا أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول والآخر ، الذي هو قبل كل شيء ، وبعد كل شيء .

ثانياً ـ ﴿ له الحكم ﴾ أي له الملك والتصرف والقضاء النافذ في الخلق ، ولا معقب لحكمه .

ثالثاً ـ ﴿ وإليه تُرجعون ﴾ أي مصير جميع الخلائق إليه ، فإليه ترجعون يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ ختم الله تعالى سورة القصص ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة ، قاهراً لأعدائه ، فاتحاً البلد الحرام ، مكسراً الأصنام ، معلنا انتهاء عهد الشرك والوثنية ، رافعاً راية التوحيد إلى الأبد بأنه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ . وهذا إشارة إلى الهجرة وإلى فتح مكة أيضاً .

٢ ـ يستخدم القرآن أحياناً أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه والتفكير في حقيقة دعوة الإسلام ، فلا يحسم الأمر ليترك سبيلاً للمناقشة والأخذ والرد ، وهذا من فنون السياسة الرفيعة المستوى ، لذا أمر الله نبيه أن يقول : ﴿ قل : ربي أعلمُ من جَاءَ بالهُدى ، ومن هُو في ضلالٍ مبين ﴾ أي قل لكفار مكة وأمثالهم إذا قالوا : إنك لفي ضلال مبين : ربي هو العالم بالمهتدي والضال : أنا أم أنتم .

٣ ـ لا علم لأحد ، ولا علم لرسوله أن الله تعالى يرسله نبياً رسولاً إلى الخلق أجمعين ، وينزل عليه القرآن نوراً وهدى ونبراساً ودستوراً للحياة وتشريعاً خالداً صالحاً على الدوام للإنسانية جمعاء .

ولكن رحمة الله برسوله وبعباده اقتضت إرسال الرسول ، وإنزال القرآن حكماً عدلاً وقولاً فصلاً .

٤ ـ كُلّف الرسول ﷺ بخمسة أمور : ألا يكون عوناً ولا مساعداً للكافرين في جميع الأحوال ، وأن يمضي في تبليغ رسالة ربه وأمره وشأنه دون أن تمنعه أقوال الكفار وكذبهم وأذاهم عن مواصلة الطريق في الدعوة إلى الله ، وأن يعلن الدعوة إلى توحيد الله ، وألا يكون مع المشركين ؛ لأن من رضي بطريقتهم كان منهم ، وألا يعبد مع الله إلهاً غيره ، فإنه لا إله إلا هو ، وهذا نفي لكل معبود وإثبات لعبادة الله تعالى .

٥ ـ وصف الحق تعالى نفسه بصفات ثلاث : هي كل شيء في الوجود هالك فانٍ غير الله تعالى ، وله الحكم النافذ في الدنيا والآخرة ، وكل المخلوقات راجعة إليه للحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

وهذا يعني : ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع ، بل كل شيء هالك ، وله رجوع إلى الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

مكية ، وهي تسع وستون آية .

تسميتها :

سميت سورة العنكبوت ؛ لأن الله تعالى شبّه الذين اتخذوا الأصنام وغيرها آلهة بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً ضعيفاً واهناً ، فقال : ﴿ مَثَل الذين اتخذوا من دُون اللهِ أولياءَ كمَثَل العنكبوت اتخذت بيتاً .. ﴾ الآية [٤١] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

موضوعها :

موضوع السورة كسائر السور المكية تقرير أصول العقيدة وهي الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء ، وتثبيت الإيمان في القلوب في جميع الأحوال ، وبخاصة وقت الابتلاء والمحنة ، فافتتحت بالإخبار عن فتنة الإنسان ، وختمت بالحديث عن هداية المجاهدين نفوسهم إلى أقوم السبل ونصرة الله لهم .

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في بيان أمثلة واقعية من الصراع بين الحق والباطل ، وبين الضعف والقهر ، وبين أثر الصمود والصبر على الإيمان وأثر الانسلاخ منه ، ففي سورة القصص ذكر الله تعالى استعلاء فرعون وجبروته ، وتفريقه الناس شيعاً ، واستضعافه بني إسرائيل بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ،

ونجاة موسى عليه السلام مع قومه ، ونصره على الطغاة وإغراقهم ، كما ذكر الله قصة قارون الباغية وعقابه بالخسف .

وفي هذه السورة ذكر الله قصة المسلمين في مكة الذين فتنهم المشركون عن دينهم ، وعذبوهم على الإيمان بنحو أقل من تعذيب فرعون بني إسرائيل ، حثاً لهم على قوة التحمل والصبر ، وتسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، ثم ذكر نجاة نوح عليه السلام في سفينته مع جند الإيمان ، وإغراق قومه الذين كذبوه .

كما أن بين السورتين تشابهاً في الإشارة إلى موضوع الهجرة ، ففي خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾ وفي خاتمة هذه السورة الإشارة إلى هجرة المؤمنين : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ فإياي فاعْبدون ﴾ [٥٦] .

وكذلك يوجد ارتباط بين السورتين في تحديد الغاية والغرض ، ففي سورة القصص بيان العاقبة المحمودة للمتقين المتواضعين : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلُها للذين لا يُريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبةُ للمتقين ﴾ [٨٣] وفي هذه السورة تقرير العاقبة الحسنة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُبوئنَّهم من الجَنَّة غُرَفاً ، تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، نِعْمَ أجْرُ العاملين ﴾ [٥٨] .

ثم إنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة : ﴿ كلُّ شيء هالكٌ إلا وجْهَه ﴾ وأعقبه بما يبطل قول منكري الحشر : ﴿ له الحكمُ وإليه ترجعون ﴾ رد في مطلع هذه السورة على منكري الحشر القائلين : لا فائدة في التكاليف إذ لا مرجع بعد الهلاك والزوال ، ومضمون الرد أن للتكليف فائدة وهي أن يثيب الله الشكور ويعذب الكفور .

مشتملات السورة :

اشتملت هذه السورة على ما يأتي :

١ ـ إعلان اختبار المؤمنين على الشدائد والمحن في الدنيا ، وبيان فائدة جهاد النفس ، ومعرفة مدى صلابة الإيمان وقت الشدة ، فالمؤمن هو المجاهد الصابر الذي لا يلين أمام الأحداث الجسام ، ويظل ثابت العهد كالطود الشامخ دون أن يتزحزح عن إيمانه وعقيدته ، وأما مهتز الإيمان أو المنافق ، فيُظهر الإيمان أحياناً ، ولكنه لا يتحمل الأذى في سبيل الله : ﴿ ومن الناسِ من يقولُ : آمنَّا بالله ، فإذا أُوذي في اللهِ جَعَل فتنةَ الناسِ كعذابِ الله ... ﴾ وحينئذ يعلم الله المؤمنين علم انكشاف وإظهار كما يعلم المنافقين ، لكنه سبحانه عالم بذلك سلفاً .

٢ ـ الحديث عن محنة الأنبياء التي هي أشد وأصعب من محنة المؤمنين ، فقد قص الله على رسوله وعلى المؤمنين قصة نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وهارون ، ليعلموا أن الله نصرهم ، وأهلك أقوامهم : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحةُ ، ومنهم من خَسَفْنا به الأرضَ ، ومنهم من أغرقنا .. ﴾ الآية [٤٠] .

٣ ـ محاجة المشركين بضرب الأمثال لهم تقريعاً وتوبيخاً ، ومحاجة أهل الكتاب بالحسنى واللين والحكمة .

٤ ـ إثبات نبوة محمد ﷺ بمعجزة إنزال القرآن عليه علماً بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وتفنيد بعض شبهات المشركين في نبوته ، واستعجالهم العذاب المحقق نزوله بهم .

٥ ـ الإذن للمؤمنين بالهجرة من ديارهم فراراً بدينهم من الفتن ، وترغيبهم بالصبر ، وإبعاد خوف الموت عن نفوسهم ؛ فإن الموت محقق في كل مكان وزمان ،

وتبشيرهم بالعاقبة الحسنة إذا عملوا الصالحات ، وزهدوا في الدنيا ؛ لأن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية الحقة .

٦ ـ اعتراف المشركين بأن الله هو خالق السموات والأرض وأنه هو الرازق ، وأنه كاشف الضر والمنجي من المخاطر ، وذلك يتضمن الحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح .

٧ ـ الامتنان على أهل مكة بإقامتهم في الحرم الآمن ، مع خوف من حولهم ، ثم كفرهم بهذه النعمة وغيرها بالإشراك بالله ، وتكذيب رسوله ، وهو غاية الظلم .

٨ ـ بيان جزاء المؤمنين الذين صبروا أمام المحن والشدائد ، وجاهدوا في سبيل الله بالنفس والمال ، واجتازوا المحنة بأمان وسلام .

اختبار الناس وجزاؤهم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

الإعراب :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا ﴾ ﴿ أن يتركوا ﴾ : منصوب بـ﴿ حسب ﴾ سدّ مسد مفعوليها . و﴿ أن يقولوا ﴾ : في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي بأن يقولوا .

﴿ ساء مايحكمون ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما في موضع رفع بمعنى : ساء الشيء أو الحكم حكمهم ، وإما في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون .

البلاغة :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا ..﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار .

﴿ صدقوا ﴾ ﴿ والكاذبين ﴾ بينهما طباق .

﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ التأكيد بإن واللام ؛ لأن المخاطب منكر .

﴿ وهو السميع العليم ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل .

المفردات اللغوية :

﴿ الٓمٓ ﴾ هذه الحروف الهجائية تنبيه على إعجاز القرآن ، ووقوع الاستفهام بعدها دليل على استقلالها بنفسها ﴿ أحسب الناس ﴾ أظن الناس ، والاستفهام إنكاري ، وتدخل ﴿ حسب ﴾ على الجملة للدلالة على جهة ثبوتها ﴿ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ أي أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، بل يمتحنهم الله بشاقّ التكاليف ، كالهجرة والجهاد ومقاومة الشهوات والقيام بالطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ، ليتميز المخلص من المنافق ، والثابت في الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات ، فإن مجرد الإيمان لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ يختبرون ويمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم بالتعرض للشدائد .

﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أي إن ذلك سنة قديمة ، جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أي ليظهرن صدقهم وكذب المكذبين ، وينوط به ثوابهم وعقابهم . وهذا تعلق حالي وعلم مشاهدة يتميز به الفريقان ، ولا ينافي تعلق علم الله القديم بكل شيء ، فهو عالم بما خلق قبل الخلق .

﴿ يعملون السيئات ﴾ الكفر والمعاصي ، فإن العمل يعم أفعال القلوب والأعضاء ﴿ أن

يسبقونا ﴾ يفوتونا فلا ننتقم منهم ، أي الفوت عن الجزاء على مساويهم ﴿ ساء ﴾ بئس الحكم هذا ﴿ ما يحكمون ﴾ الذي يحكمونه ، أي قبح حكمهم أنهم يهربون منا . ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة ، وقيل : يخاف لقاءه ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ أي فإن الوقت المحدد للقائه أو هو الموت لجاءٍ لا محالة ، فليستعد له ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم .

﴿ ومن جاهد ﴾ نفسه بالصبر على الطاعة والكف عن الشهوات ، وبذل جهده في مقاومة الأعداء بالنفس أو المال ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ فإن منفعة جهاده له ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾ عن الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادتهم ، فلا حاجة به إلى طاعتهم ، وإنما كلف عباده رحمة بهم ومراعاة لصلاحهم ﴿ لنكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ بعمل الصالحات فيسقط عقابها بثواب الحسنات ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ وهو الصالحات ، و﴿ أحسن ﴾ إما بمعناه أو بمعنى حسن ، وهو منصوب بنزع الخافض : الباء ، والمعنى لنجزينهم بأحسن جزاء لأعمالهم ، وهو أن يجازي الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة .

سبب النزول :

روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : في عمار ، وقد عذب في الله ، أخرج ابن سعد عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله : ﴿ أحسب الناس ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي في قوله : ﴿ الٓمٓ ، أحسب الناسُ أن يُتركوا ﴾ الآية قال : أنزلت في أناس كانوا بمكة ، وقد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فتبعهم المشركون ، فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا : نخرج ، فإن اتَّبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ ثم إن ربَّك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ، ثم جاهدوا وصبَروا ، إن ربَّك من بعدِها لغفورٌ رحيمٌ ﴾ [النحل ١١٠/١٦] .

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن قتادة قال : أنزلت ﴿ الٓمٓ ، أحسب الناس ﴾ في أناس من أهل مكة خرجوا ، يريدون النبي ﷺ ، فعرض لهم المشركون ، فرجعوا ، فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم ، فخرجوا فقتل من قتل ، وخلص من خلص ، فنزل القرآن : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلَنا ، وإن اللهَ لمع المحسنين ﴾ .

وقال مقاتل : نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي ﷺ يومئذ : « سيد الشهداء مِهْجَع ، وهو أول من يُدعى إلىّ باب الجنة من هذه الأمة » فجزع عليه أبواه وامرأته ، فنزلت : ﴿ الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا .. ﴾ الآية .

التفسير والبيان :

﴿ الٓمٓ ﴾ هذه الحروف المقطعة بدئ بها لتنبيه السامع وطلب إصغائه وإشعاره بإعجاز القرآن الدال على كونه كلام الله الحكيم الخبير .

وقد لاحظ الرازي[1] أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن ، كأوائل سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ، ذلك الكتاب ﴾ وآل عمران ﴿ الٓمٓ ... نزّل عليك الكتاب بالحق ﴾ والأعراف ﴿ المٓصٓ ، كتاب أنزل إليك ﴾ ويسٓ ﴿ يس ، والقرآن الحكيم ﴾ وصٓ ﴿ صٓ ، والقرآن ﴾ وقٓ ﴿ قٓ ، والقرآن المجيد ﴾ ، والحواميم (غافر أو المؤمن ، وفصلت أو السجدة ، والشورى) إلا ثلاث سور : سورة مريم ، والعنكبوت ، والروم .

وقد حصل التنبيه في القرآن بغير حروف التهجي التي لا يفهم معناها ، كقوله تعالى في أول سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة

(١) تفسير الرازي : ٢٥/٣٦ وما بعدها .

شيء عظيم ﴾ وفي أول سورة الأحزاب : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ وفي أول سورة التحريم : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تحرّمُ ما أحل الله لك ﴾ .

والسبب في بدء هذه السورة بهذه الحروف ، وليس فيها الابتداء بالقرآن أو الكتاب هو الإشارة إلى مبدأ التكليف ، وجميع التكاليف فيها ثقل على النفس ، فبدئ بحروف التنبيه للفت النظر إلى خطورة ما يلقى بعدها .

﴿ أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يُفتنون ﴾ أي أظن الناس بعد خلقهم أن يتركوا بغير اختبار بمجرد قولهم : آمنا بالله ورسله ، وهم لا يمتحنون بمشاق التكاليف كالهجرة والجهاد في سبيل الله ، ومقاومة الشهوات ، ووظائف الطاعات والفرائض المالية والبدنية من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها ، والتعرض للمصائب في الأنفس والأموال والثمرات ، ليتميز المؤمن المخلص من المنافق ، والراسخ في الدين من المضطرب فيه ، ونجازي كل واحد بحسب عمله .

وهذا استفهام إنكار ، معناه أن الله تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : « أشدُّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ، زيد له في البلاء » .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولَمّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلمَ الصابرين ﴾ [آل عمران ١٤٢/٣] وقوله سبحانه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولَمّا يأتكم مَثَل الذين خلوا من قبلكم ، مستّهم البأساء والضراء ، وزُلزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه : متى نصرُ الله ؟ إلا إن نصرَ الله قريبٌ ﴾ [البقرة ٢١٤/٢] .

وقد بينت أن هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين في مكة ، الذين كان كفار

قريش يعذبونهم على الإسلام ويؤذونهم بأشد أنواع الإيذاء ، كعمار بن ياسر وأمه سُمَيَّة وأبوه ياسر ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وسَلَمة بن هشام .

ويظهر أن التعرض للأذى باقٍ في أمة محمد ﷺ مادام هناك إسلام يمثل جوهر الحق ، وعقيدة صحيحة تتحدى تيارات الإلحاد والكفر والعلمانية وأوضار الوثنية في كل أنحاء الأرض ، وما دام قرآن مجيد يحافظ على وجود المسلمين ، ويتلى في كل مكان . ولن تفلح قوى الشر في إخفات صوت الإسلام ، ودفن صرح التدين ، وتصفية جند الإيمان بالله عز وجل ، قال ابن عطية : وهذه الآية ، وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال ، فهي باقية في أمة محمد ﷺ ، موجود حكمها بقية الدهر ؛ لأن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك .

وليس الافتتان والإيذاء بدعاً بين المسلمين ، وإنما هو سنة الله الدائمة في خلقه في الماضي والحاضر والمستقبل ، لذا قال تعالى تسلية لهم : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلَمنَّ الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين ﴾ أي وتالله لقد امتحنا واختبرنا المؤمنين السابقين ، بل والأنبياء القدامى بأنواع عديدة من الشدة والمشقة والضرر ، كما قال تعالى : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه رِبيّون كثيرٌ ، فما وَهَنوا لما أصابَهم في سبيلِ الله ، وما ضعُفوا وما استكانوا ، والله يُحبُّ الصابرين ﴾ [آل عمران ١٤٦/٣] .

والهدف من الاختبار أن يعلم الله علم ظهور وانكشاف ، أي يظهر الذين صدقوا في دعوى الإيمان ، ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، وسيجازي كل واحد بما قدَّم . والله يعلم سلفاً ما كان وما يكون وما لم يكن ، ولو كان كيف يكون ، بإجماع أهل السنة والجماعة ، لذا قال ابن عباس في مثل قوله تعالى : ﴿ إلا لنعلم ﴾ : إلا لنرى ؛ لأن الرؤية تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

ويلاحظ أنه تعالى قال في حق المؤمنين : ﴿ الذين صدقوا ﴾ بصيغة الفعل ، أي وجد منهم الصدق ، وقال في حق الكافرين : ﴿ الكاذبين ﴾ بصيغة اسم الفاعل الدالة على الثبات والدوام . هذا فضلاً عن أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة .

وقد ورد في السنة الصحيحة أخبار ونماذج من تعذيب المؤمنين قبل الإسلام ، روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خَبَّاب بن الأرتّ قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسِّد بُرْدة له في ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصرُ لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :

قد كان من قَبْلكم يؤخذُ الرجل ، فيُحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمِنْشَار فيوضعُ على رأسه ، فيجعلُ نصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد لحْمه وعظمُه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرَ ، حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله ، والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال : « دخلت على النبي ﷺ ، وهو يُوعَك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حَرَّه بين يدي فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول الله ماأشدّها عليك !! قال : إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ، ويُضَعَّف لنا الأجر ، قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، قلت : ثم من ؟ قال : ثم الصالحون أن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحُوبها[1] ، وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء ، كما يفرحُ أحدكم بالرخاء » .

والخلاصة : أن الحياة ميدان كفاح وجهاد وشقاء وعناء ، وكلما عظمت

(١) وفي الجامع الصغير للسيوطي : « يجوبها » أي يخرقها ويقطعها ، وهو أولى .

المسؤولية عظم قدر المسؤول ، وكلما أهملت المسؤولية أو التبعة أهمل المسؤول ، فالتكليف دليل التكريم ، وهو رمز الشخصية وإثبات الذات ، ولا طعم للحياة دون عمل وتكليف ؛ لأن لذة الحياة ومتعتها أن يعمل الإنسان لغاية وهدف معين ، وإلا كان الأمر عبثاً موقعاً في السأم والحيرة ، فالحمد لله على التكليف ، والشكر له على الابتلاء والاختبار ، ليتميز العامل من العابث ، والملتزم المتقن من المتسيب الذي لا يبالي بشيء .

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ﴾ أي بل أظن الذين يقترفون المعاصي أن يفوتونا فلا نجازيهم ؟ لن يفلتوا من عذابنا ، بئس ما يظنون ، وبئس الحكم ما حكموا بأن يعصوا ويخالفوا أمر الله ، ولا يعاقبون ، إنه حكم مغلوط سيء رديء ، يتنافى مع مقتضى العقل والشرع والعدل .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل والأسود ، والعاص بن هشام ، وعتبة والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبي مُعَيط ، وحنظلة بن أبي سفيان ، والعاص بن وائل .

وبعد بيان أن من ترك التكليف عُذّب ، بيّن سبحانه أن من آمن بالآخرة وعمل لها ، يجد ثواب عمله فقال :

﴿ من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم ﴾ أي من كان يتوقع الخير ويطمع ويأمل في ثواب الله الجزيل في الدار الآخرة ، ويعمل صالحاً ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عملاً كاملاً غير منقوص ، فإن وقت البعث والحياة الثانية بالحشر كائن لا محالة ، والله سميع الدعاء وجميع أقوال عباده لا يخفى عليه منهم شيء ، عليم بصير بكل الكائنات ، يعلم عقائدهم وأعمالهم ، ويجازي كل واحد بما عمل . وهذا دليل على تأكد حصول الوعد

والوعيد ، وحث على المبادرة بالعمل الصالح الذي يصدق الرجاء ويحقق الأمل ويكتسب به القربة عند الله والزلفى .

وأجل الله : يمكن أن يكون المراد به الموت ، ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بعد الحشر .

وقوله : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ شرط وجزاء ، والمراد وعد المطيع بما يعده من الثواب ، فمن كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت بثوابه ، يثاب على طاعته عنده ، ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

لكن نفع التكليف للمكلف لا لله تعالى :

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغني عن العالمين ﴾ أي ومن جاهد نفسه وهواه ، فأدى ماأمر الله به وانتهى عما نهى عنه ، فإن ثمرة جهاده تعود له ، ونفع عمله لنفسه لا لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ من عَمِل صالحاً فلنفسِه ﴾ [فصلت ٤٦/٤١] ، ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [الإسراء ٧/١٧] فإن الله غني عن أفعال عباده وجميع خلقه من الإنس والجن .

ونوع جزاء المطيع هو :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي إنه تعالى مع غناه عن الخلائق جميعهم ، فإنه يجازي أحسن الجزاء الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا صالح الأعمال ، بأداء الفرائض وفعل الخيرات ، من مواساة البائسين وإغاثة المظلومين ، ودعم أمتهم بالنفس والنفيس ، وأحسن الجزاء : هو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب على الواحد

منها بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلِمُ مثقالَ ذرة ، وإن تكُ حسنة يضاعفْها ، ويؤتِ من لدنهُ أجراً عظيماً ﴾ [النساء ٤٠/٤] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ الدنيا دار ابتلاء واختبار وتكليف بالشاق من الأعمال ، فلا يكفي مجرد إعلان الإيمان بالله تعالى ورسوله ، بل لابدّ من الابتلاء بأنواع المصائب ، وألوان الطاعات ؛ لأن المقصد الأسمى من العبادة محبة الله ، كما ورد في الخبر الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة : « وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه » فإذا قال الإنسان : آمنت بالله بلسانه ، فقد ادعى محبة الله في الجنان ، فاحتاج إلى شهود تصدقه ، وأداء الطاعات والقربات ، واجتناب المحظورات شهود عيان للتصديق .

ويكون الابتلاء سبيلاً للرقي من أول الدرجات إلى أعلى الدرجات ، كما قال تعالى : ﴿ والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ ﴾ [المجادلة ١١/٥٨] وقال سبحانه : ﴿ فضّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ﴾ [النساء ٩٥/٤] .

٢ ـ الابتلاء سنة الله في خلقه ، وعادته في عباده ، فقد ابتلى الله الماضين كإبراهيم الخليل ألقي في النار ، وكيحيى الحصور الذي قتل ، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله ، فلم يرجعوا عنه ، كما تقدم بيانه ، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون وقومه ، كما ابتلوا بقارون ، وأصابهم الجهد الشديد ، وابتلي المؤمنون بعيسى بمن كذبه وأعرض عنه ، وهمّ بقتله ، وهم اليهود وحكام عصره .

٣ ـ الهدف من الابتلاء إظهار صدق الصادقين في إيمانهم وتبيّنه في واقع الأمر ، وكشف كذب الكاذبين الذين يدّعون الإيمان بالله ، وهم كافرون به .

٤ ـ لن يفلت الكافرون والمجرمون والعصاة من العقاب ، فإن ظنوا الإفلات ، فبئس الحكم حكمهم .

٥ ـ لابدّ من أن يجازى المحسن بإحسانه يوم القيامة .

٦ ـ هذه الحقائق الثلاث المتقدمة وهي اختبار المؤمن بالفتن ، وعقاب العاصي على العمل ، وجزاء المحسن الذي يطمع في لقاء ربه ، حاصلة لاشك فيها ، ولكن من جاهد في الدين ، وصبر على قتال الكفار ، وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ، ويكون ثواب ذلك كله له ، ولا يرجع إلى الله شيء من النفع ، ومن أهمل جهاد نفسه ، ولم يؤد طاعة ربه ، ولم يتجنب الحرام ، فإنما يسيء لنفسه : ﴿ من عمِل صالحاً فلنفسِه ، ومن أساءَ فعليها ﴾ [فصلت ٤٦/٤١] ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء ٧/١٧] .

والله غني عن أعمال عباده ، لاتنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

٧ ـ إن نوع جزاء العمل الصالح لا مثيل له في الدنيا عند أحد من الخلائق ، فإن الله تعالى يغطي السيئات بالمغفرة ، ويضاعف الحسنات وثواب الطاعات ، ولا يهمل شيئاً منها مهما قلّ ، وإنما يقدره على أحسن وجه وأكمله ، ويجازي الذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات بأحسن أعمالهم .

٨ ـ الآيات في الجملة تعرّف بحقائق الدنيا ، فهي قائمة على الابتلاء والاختبار ، وتشحذ العزائم لزرع العمل الصالح في الدنيا ، وتؤكد أن يوم الجزاء قريب الحصول ، لإقامة العدل بين المحسن والمسيء ، وتبين أن العمل الصالح خير للإنسان نفسه لا لغيره ، والله غني عن العالمين .

٩ ـ دلت آية ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغني عن العالمين ﴾ على وجوب إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له ؛ لأن من علم أن الله يراه

ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ، ومقدّر بقدر عمله ، يكثر منه .

١٠ ـ الجزاء على العمل بحكم الوعد لا بالاستحقاق . وتدل الآية المتقدمة على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله ؛ لأنه ليس هناك سلطان أعلى من الله يوجب شيئاً عليه ، والعبد أدنى منه ، وتدل أيضاً على أن الله تعالى ليس في مكان معين ، وليس على العرش على الخصوص ، لأن العرش من مخلوقات الله ، والله غني عنهم .

١١ ـ في هذه الآية أيضاً بشارة وإنذار ، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن العالمين ، فلو أهلك عباده فلا شيء عليه لغناه عنهم ، وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده ، لا شيء عليه ؛ لاستغنائه عنه ، وهذا يوجب الرجاء التام .

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان ؛ لأن العطف يفيد التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه .

والإيمان : التصديق بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره . والعمل الصالح : كل ما أمر الله به ، فيصير صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً ، ولا بقاء للعمل الصالح إلا إذا كان لوجه الله الباقي حتى يبقى ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى ، لا بنفسه لأنه عرض زائل ، ولا بالعامل ؛ لأنه ميت هالك ، ولا بالمعمول له ؛ لأن غير الله فانٍ ، فالعمل الصالح : هو الذي أتى به المكلف مخلصاً لله .

والنية : شرط في الصالحات من الأعمال ، وهي قصد الإيقاع لله . والعمل الصالح : لا يرتفع إلا بالكلم الطيب وهو الإيمان ، فالعمل من غير المؤمن لا يقبل .

وقد ذكر الله في الآية نوعين من أعمال العبد : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين : تكفير السيئات وهو في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن وهو في مقابلة العمل الصالح .

وهذا كما قال الرازي يقتضي أموراً ثلاثة :

الأول ـ المؤمن لا يخلد في النار ؛ لأنه بإيمانه تكفر سيئاته ، فلا يخلد في النار .

الثاني ـ الجزاء الأحسن المذكور هنا غير الجنة ؛ لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة ، ولا يبعد أن يكون الجزاء الأحسن هو رؤية الله عز وجل .

الثالث ـ الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا ، فيستر الله عيوبه في الأخرى ، والعمل الصالح يحسّن حالة صاحبه في الدنيا ، فيجزى الجزاء الأحسن في العقبى ، والإيمان لا يبطله العصيان ، بل هو يغلب المعاصي ويسترها ، ويحمل صاحبها على الندم[1] .

١٣ ـ أجمل الله حال المسيء بقوله : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات .. ﴾ إشارة إلى التعذيب ، وحال المحسن بقوله : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ ثم فصل حال المحسن بآية : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه ، وفضله أعم من عدله .

---

(١) تفسير الرازي : ٣٤/٢٥

صلابة المكلفين ومظاهر فتنة المؤمنين وتهديد الكافرين والمنافقين

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

الإعراب :

﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ فيه حذف الجار والمجرور ، أي ولنحمل خطاياكم عنكم .

البلاغة :

﴿ فتنة الناس كعذاب الله ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، فهو مجمل .

﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ استعارة ، شبه الذنوب بالأثقال : لأنها تثقل الإنسان معنوياً .

المفردات اللغوية :

﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أمرنا ، ووصى بمعنى أمر معنى وتصرفاً . ﴿ حُسْناً ﴾ أي بأن يفعل معهم حَسْناً ، أي فعلاً ذا حسن بأن يبرهما ، أو هو الحسن نفسه مبالغة ، كأنه في ذاته حسن لفرط حسنه ، وقرئ : حَسَناً وإحساناً . ﴿ ماليس لك به علم ﴾ أي ماليس لك بإشراكه علم ، أو ماليس لك بألوهيته علم ، أي معلوم ، كأنه قال : لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، عبر عن نفي الألوهية بنفي العلم بها إشعاراً بأن مالا يعلم صحته لا يجوز اتباعه . ﴿ فلا تطعهما ﴾ في الإشراك إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . ﴿ إلي مرجعكم ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ، فأجازيكم حق الجزاء . ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فأجازيكم به .

﴿ لندخلنهم في الصالحين ﴾ في جملتهم ، وهم الأنبياء والأولياء ، بأن نحشرهم معهم . ﴿ فإذا أوذي في الله ﴾ أي بأن عذبهم الكفرة على الإيمان . ﴿ فتنة الناس ﴾ أذاهم له في الصرف عن الإيمان . ﴿ كعذاب الله ﴾ في صرف المؤمنين عن الكفر ، فيطيعهم فينافق . ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ اللام لام القسم ، ومجيء النصر بالفتح للمؤمنين والغنيمة . ﴿ ليقولُن ﴾ حذفت منه نون الرفع : ليقولونن لتوالي النونات ، وحذفت الواو ، ضمير الجمع لالتقاء الساكنين . ﴿ إنا كنا معكم ﴾ في الدين والإيمان ، فأشركونا في الغنيمة . ﴿ أو ليس الله بأعلم ﴾ أي بعالم . ﴿ بما في صدور العالمين ﴾ أي بما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق ؟ بلى .

﴿ وليعلَمَنّ الله الذين آمنوا ﴾ صدقوا بقلوبهم . ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، فيجازي الفريقين ، واللام في الفعلين : لام قسم . ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ طريقنا الذي نسلكه في ديننا . ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي عنكم في اتباعنا ، إن كانت لكم خطايا ، والأمر بمعنى الخبر . ﴿ من خطاياهم من شيء ﴾ من الأولى : للتبيين ، والثانية : مزيدة ، والتقدير : وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم . ﴿ أثقالهم ﴾ أوزارهم أو ذنوبهم التي اقترفتها أنفسهم . ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أي ذنوباً أخرى معها لما تسببوا له بالإضلال وحمل الآخرين على المعاصي ، من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شيء . ﴿ وليسألن يوم القيامة ﴾ سؤال تقريع وتبكيت . ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها .

سبب النزول :

نزول الآية (٨) :

﴿ ووصينا الإنسان ﴾ : روى مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر ؟ والله لأطعَم

طعـامـاً ، ولا أشرب شرابـاً حتى أمـوت أو تكفر ، فنزلت : ﴿ ووصينـا الإنسان ﴾ .

وتوضيح ذلك في روايـة الترمـذي : أن الآيـة نزلت في سعـد بن أبي وقّـاص وأمـه حَمْنـة بنت أبي سفيـان لمـا أسلم ، وكان من السـابقين الأولين ، وكان بـارّاً بأُمّه ، قالت له : ماهذا الدين الذي أحدثت ؟ والله لاآكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتتعيَّر بذلك أبد الدهر ، يقال : يـا قـاتل أمـه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة ، لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، فأصبحت وقد جَهَـدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقـال : يـا أمـاه ، لو كانت لك مئة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، مـاتركت ديني ، فكلي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما أيست منـه أكلت وشربت ، فـأنزل الله هـذه الآيـة ، آمراً بالبرّ بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك به .

وقـال ابن عبـاس في آيـة ﴿ وإن جـاهـداك لتشرك بي ﴾ : نـزلت في عيّـاش بن أبي ربيعـة أخي أبي جهل لأمـه ، وقـد فعلت أمـه مثل ذلـك . وعنـه أيضاً : نزلت في جميع الأمة ؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق .

نزول الآية (١٠) :

﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ﴾ : نزلت في المنافقين . قال مجـاهـد : نزلت في أنـاس كانوا يـؤمنـون بـألسنتهم ، فـإذا أصـابهم بـلاء من الله ومصيبـة في أنفسهم افتتنوا .

وقال الضحاك : نزلت في أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فـإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك .

وقـال ابن عبـاس : نزلت في المؤمنين الـذين أخرجهم المشركـون عن الـدين فارتـدُّوا ، والـذين نزلت فيهم : ﴿ إن الـذين توفـاهم الملائكـةُ ظـالمي أنفسهم ﴾

الآية[1] [النساء ٩٧/٤] . وقيل : نزلت في عياش بن أبي ربيعة ؛ أسلم وهاجر ، ثم أوذي وضرب فارتد ، وكان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخوين لأمه ، ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه .

نزول الآية (١٢) :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ قال مجاهد : إن الآية نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لانبعث نحن ولا أنتم ، فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى حسن التكاليف وثواب الآتي بها تحريضاً للمكلف على الطاعة ، ذكر أن الإتيان بها واجب ولو كان ذلك بمخالفة الوالدين اللذين يجب الإحسان إليهما والطاعة ، فلا يكون ذلك مانعاً من الإيمان ورفض الشرك ومقاومة معصية الله تعالى .

ثم ذكر أن العامل بالصالحات يدخله الله في زمرة الأنبياء والأولياء .

وبعد أن أبان الله تعالى حال صنفين من المكلفين : المؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، والكافر المجاهر بكفره وعناده في قوله : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أردف ذلك ببيان حال الصنف الثالث وهم المنافقون بقوله : ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ﴾ .

ثم ذكر الله تعالى محاولات الكفار في فتنة المؤمنين عن دينهم ، ودعوتهم بالرفق واللين إلى الشرك ، ومساومتهم واستعدادهم تحمل تبعات ذنوب المؤمنين إن كانت .

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ١٩٦

التفسير والبيان :

تشتمل الآيات على موضوعات ثلاثة : التمسك بالتوحيد ولو بمخالفة أمر الأبوين رغم الأمر بالإحسان إليهما ، وأقسام المكلفين الثلاثة ، وبعض مظاهر الفتنة عن الدين .

الموضوع الأول :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم ، فلا تطعهما ، إلي مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي لقد أمرنا العباد بالإحسان إلى الوالدين ببرهما قولاً وفعلاً ؛ لأنهما سبب وجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يَبْلُغَنَّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما ، فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تَنْهرْهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرَّحْمةِ ، وقل : ربِّ ارحمْهما كما ربَّياني صغيراً ﴾ [الإسراء ١٧/٢٣ـ٢٤] . ونكّر كلمة ﴿ حسناً ﴾ ليدل على الكمال .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ، فإنه وإن حرصا على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فلا تطعهما في ذلك ، في دعوتهما إلى الاعتقاد فيما ليس معلوماً لك ؛ إذ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والحاكم عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وإذا كان لا يصح اتباع ماليس معلوماً ثبوته ، فلا يجوز اتباع ماعلم بطلانه بالأولى ، وهذا دليل على أن متابعتهم في الكفر لاتجوز .

والسبب مرجعكم جميعاً إلي يوم القيامة ، المؤمن والكافر ، والبار بوالديه والعاق لهما ، فأجازيكم على أعمالكم ، المحسن بإحسانه وصبره على دينه ، والمسيء بإساءته ، لذا قال محرضاً على الصلاح والإيمان :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ أي وإن الذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا ماأمرهم به ربهم ، فأصلحوا نفوسهم ، وأدوا فرائضهم ، لنحشرنهم في زمرة الصالحين : الأنبياء والأولياء ، لا في زمرة الوالدين المشركين ، وإن كانا أقرب الناس إليه في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب حباً دينياً .

والسبب في إعادة ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بيان حال الهادي هنا بعد بيان حال المهتدي قبل ذلك ؛ بدليل أنه قال أولاً : ﴿ لنكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ ثم قال ثانياً هنا : ﴿ لندخلنهم في الصالحين ﴾ والصالحون هم الهداة ؛ لأنه مرتبة الأنبياء ، ولهذا قال كثير من الأنبياء : ﴿ ألحقني بالصالحين ﴾ كما أنه تعالى ذكر أولاً حال الضال بقوله : ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ ثم هدد المضل بقوله : ﴿ إلي مرجعكم فأنبئكم ﴾ فصار البيان المتقدم لقسمين من المكلفين : المهتدي والضال ، والبيان المتأخر لقسمين آخرين هما : الهادي والمضل[1] .

الموضوع الثاني :

حال المنافقين ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ أي ويوجد فريق من الناس ، هم قوم من المكذبين المنافقين الذين يقولون بألسنتهم : صدقنا بوجود الله ووحدانيته ، ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بدليل أنه إذا نزلت بهم محنة وفتنة في الدنيا ، فآذاهم المشركون لأجل إيمانهم بالله ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، وكان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف المؤمنين عن الكفر .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبدُ الله على حَرْف ، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه ، خسِر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج ١١/٢٢] .

---

(١) تفسير الرازي : ٣٦/٢٥

وهذا دليل على أن التخلي عن الإيمان سهل على المنافق ؛ لأنه لم يخالط الإيمان شغاف قلبه ، وإنما كان مجرد ترداد على اللسان ، لمصالح دنيوية ، فإذا تعرض لأدنى أنواع الأذى ، تركَ اللهَ بنفسه . أما المؤمن الصادق الإيمان فلا يتزحزح عن إيمانه القلبي مهما تعرض لأنواع الأذى ، فإن أكره على الردة أمكنه مجاراة المكرِه باللسان ، مع اطمئنان قلبه بالإيمان ، فلا يتركَ اللهَ بحال .

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله . روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت في الله وما يُؤْذَى أحد ، ولقد أُخِفْت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثالثة ، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

ثم تحدث الله تعالى عن انتهازية المنافقين ونفعيتهم فقال :

﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولُنّ : إنا كنا معكم ، أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي ولئن تحقق نصر قريب من ربك يا محمد بالفتح والغنيمة لقال هؤلاء المنافقون : إنا كنا معكم ردءاً وإخواناً لكم في الدين ، نناصركم على الأعداء ، كما أخبر تعالى عنهم في آية أخرى : ﴿ الذين يتربّصون بكم ، فإن كان لكم فتحٌ من الله قالوا : ألم نكنْ معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعْكم من المؤمنين ؟ ﴾ [النساء ١٤١/٤] .

ثم رد الله عليهم وكشف أمرهم متوعداً مبيناً لهم أنه لا تخفى عليه أوضاعهم فقال : ﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم من الإيمان والنفاق ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ؟ بلى ، إن الله عالم بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، فيعلم المؤمن الحق والمنافق الكاذب .

ثم ذكر الله تعالى أنهم معرّضون للاختبار فقال :

﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أي وليختبرن الناس بالسراء والضراء ، ليتميز المؤمنون من المنافقين ، فيعرف من يطيع الله في كل حال ، ومن يعصيه وقت الشدة ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلوَ أخبارَكم ﴾ [محمد ٣١/٤٧] وقال سبحانه بعد وقعة أُحُد التي كانت محك اختبار وامتحان : ﴿ ما كان اللهُ لِيذَر المؤمنين على ماأنتم عليه ، حتى يَميزَ الخبيث من الطيب ﴾ [آل عمران ١٧٩/٣] .

ويلاحظ أنه تعالى حكم هنا على ما في القلب ، فيعلم إيمان المؤمن وهو التصديق ، ونفاق المنافق وهو صدقه في قوله باللسان : الله واحد ، وأما فيما سبق فقال : ﴿ وليعلمن الذين صدقوا ﴾ ليميز بين المؤمن القائل بأن الله واحد ، وبين الكافر الكاذب في قوله : الله أكثر من واحد ، فكان هناك قسمان : صادق وكاذب . وهنا قسم واحد وهو صادق .

الموضوع الثالث :

محاولات فتنة المسلمين عن دينهم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ أي وقال كفار قريش لمن آمن منهم واتبع الهدى بعد بيان أحوال الناس الثلاثة : المؤمن والكافر والمنافق : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ، وأما آثامكم إن كانت لكم آثام ووجد حساب فعلينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل الجاهل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي . وهذه محاولة فتنة وإغراء للمسلمين على ترك دينهم بالرفق واللين . وقوله : ﴿ ولنحمل ﴾ صيغة أمر من الشخص لنفسه ، ولكن يراد بها الخبر ، والمعنى شرط وجزاء ، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، كما يقول الواحد : ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء ، فليس هو في الحقيقة أمر طلب .

فرد الله عليهم تكذيباً لهم :

﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ؛ إنهم لكاذبون ﴾ أي وإنهم لا يتحملون شيئاً من ذنوبهم وأوزارهم ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : إنهم يحملون عنهم الخطايا ، فهم لا يحملون شيئاً ؛ لأنه لا يحمل أحد وزر أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ منه شيءٌ ، ولو كان ذا قُربى ﴾ [فاطر ١٨/٣٥] وقال سبحانه : ﴿ ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً ، يُبَصَّرُونَهم ﴾ [المعارج ١٠/٧٠ـ١١] وقال جل وعز : ﴿ ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦] .

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة هذا القول ، فقال :

﴿ وليحملُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليسألُنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي إن دعاة الكفر والضلال هؤلاء ليحملن يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزار غيرهم الذين أضلوهم من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة ، ومن أوزارِ الذين يُضلُّونَهم بغير علم ﴾ [النحل ٢٥/١٦] وكما جاء في الحديث الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً »[1] وفي الصحيح أيضاً : « ما قُتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها ؛ لأنه أول من سنَّ القتل » وثبت أيضاً : « من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء »[2] .

وسوف يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبون

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة .

ويختلقون من البهتان في الدنيا ، كما جاء في الحديث الصحيح : « إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ بالرغم من وجوب أو افتراض بر الأبوين اللذين كانا سبباً في وجود الإنسان وتربيته والإنفاق عليه ، فإنه لا يجوز إطاعتهما فيما يدعوان الولد إلى الشرك والعصيان ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فلا تجوز متابعتهم في الكفر .

لذا كان قوله تعالى : ﴿ إلي مرجعكم ... ﴾ وعيداً في طاعة الوالدين في معنى الكفر ، وأنه تعالى سيجازي كل إنسان بما عمل ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

٢ ـ كرر الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ لتحريك النفوس إلى نيل مراتب الصالحين : وهم الذين بلغوا نهاية الصلاح وأبعد غاياته ، من الأنبياء والأولياء ، وإذا وصل المؤمن إلى تلك المرتبة حظي بالثمرة المرجوة وهي الجنة .

٣ ـ ينكشف أمر النفاق وشأن المنافقين وقت المحنة ، فإذا قال المنافق : آمنت بالله ، ولم يؤمن قلبه ، ثم تعرض لأذى أو مصاب ، ارتد على عقبيه ، وترك الإسلام إلى الكفر ، جاعلاً أذى الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة ، وما أفسد هذا القياس ؟! وتراه يجزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ، ولا يصبر على الأذية في الله تعالى .

وإذا تحقق نصر للمؤمنين بالفتح والغنائم طالب هؤلاء المرتدون بنصيب منها قائلين : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أيها المؤمنون ، وهم كاذبون .

فرد الله عليهم : الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم ، فلا يخفى عليه نفاقهم ، والله يعلم المؤمن من المنافق ، ويجازي كلاً بما يستحق .

٤ ـ حاول الكفار فتنة المسلمين عن دينهم بالرفق واللين والإغراء ، ليبينوا أنهم بكثرتهم على الحق ، والمسلمون على باطل ، وأظهروا استعدادهم لتحمل أوزار المسلمين يوم القيامة ، وهم في الحقيقة والواقع كاذبون فيما يقولون ، فإنهم لا يتحملون شيئاً من أوزار غيرهم .

وإنما على العكس يتحملون الإثم مضاعفاً : إثم أنفسهم وإثم إضلالهم غيرهم ، فهم دعاة كفر وضلالة ، ويسألون يوم القيامة عن افترائهم بأن لا خطيئة في الكفر ، وأن لا حشر ، وأنهم يتحملون خطايا غيرهم ، ويقال لهم حينئذ : لم افتريتم ذلك ؟!

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قصة نوح عليه السلام مع قومه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

الإعراب :

﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ : ﴿ ألف سنة ﴾ : منصوب على الظرف ، و ﴿ خمسين عاماً ﴾ : منصوب على الاستثناء .

البلاغة :

﴿ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ تفنن في التعبير ، فلم يقل : إلا خمسين سنة ، تحاشياً للتكرار المنافي للبلاغة ، إلا إذا كان لغرض كالتفخيم أو التهويل ، مثل : ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ [القارعة ١٠١/١ ـ ٢] .

المفردات اللغوية :

﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ أي مكث في قومه يدعوهم إلى توحيد الله تسع مئة وخمسين سنة ، فكذبوه . روي أنه بعث على رأس أربعين ، ودعا قومه تسع مئة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين . قال البيضاوي : ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد ، فإن تسع مئة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه .

﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ طوفان الماء ، والطوفان في الأصل : اسم لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو موت أو غيرها . ﴿ وهم ظالمون ﴾ بالكفر . ﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً . ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أي الذين أركبهم معه من أولاده وأتباعه المؤمنين ، وكانوا ثمانين ، أو ثمانية وسبعين ، نصفهم ذكور ونصفهم إناث . ﴿ آية ﴾ عبرة . ﴿ للعالمين ﴾ لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسله ، يتعظون ويستدلون بها .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المناسبة :

بعد بيان التكليف وأقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، ووعيد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، ذكر الله تعالى قصة أطول الأنبياء عمراً نوح عليه السلام الذي دعا قومه إلى توحيد الله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يؤمن معه إلا قليل .

ثم أتبع ذلك بذكر قصص أنبياء آخرين : إبراهيم ، ولوط وهود وشعيب وصالح ، لبيان عاقبة الله في المكذبين من المكلفين ، وتسلية لرسول الله ﷺ وتثبيته على ما يكابده من أذى الكفرة ، وعبرة لمن يعتبر ، وتأكيداً لما في بداية السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة .

التفسير والبيان :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ أي تالله لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام ، وهو أول نبي أرسل ، إلى قومه الذين كانوا كفاراً ، لا يؤمنون بالله ، وإنما يعبدون الأصنام ، فاستمر مقيماً معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ، والإيمان بيوم القيامة ، فلم يؤمنوا بدعوته ، وكذبوه ، وما آمن معه منهم إلا قليل : ﴿ قال : ربِّ إني دَعَوْتُ قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يَزِدْهم دعائِي إلا فِراراً ﴾ [نوح ٧١/٥-٦] ﴿ قال نوحٌ : ربِّ إنهم عصوني واتَّبعوا من لم يَزِدْه مالُه وولدُه إلا خساراً ﴾ [نوح ٧١/٢١] .

﴿ فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ، لم يفدهم البلاغ والإنذار ، فأغرقهم الله بالطوفان ، وهم ظالمون أنفسهم بالكفر ، فأنت يا محمد لاتأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الأمر بيد الله تعالى ، وإليه ترجع الأمور .

فإن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في دعوة قومه إلى الإيمان بالله ، ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر . وكان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ، ومع ذلك ما نجوا ، فلا يغتروا فإن العذاب يلحقهم .

﴿ فأنجيناه وأصحابَ السفينة ، وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي فأنجينا نوحاً والذين آمنوا معه بركوب السفينة التي أوحى الله إليه كيفية صنعها ، ثم سارت في البحر ، حتى استقرت على جبل الجودي ، وغرق الكفار جميعاً بطوفان الماء ، وجعل ربك سفينة نوح تذكرة لنعمة الله على خلقه كيف أنجاهم من الطوفان ، وعبرة وعظة يتأمل بها من يأتي بعدهم من الناس ، كيف يعاقب الله من عصوا رسله وكذبوا بأنبيائه ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّا لما طَغَى الماءُ حَمَلناكم في الجارية ،

لنجعلها لكم تَذْكِرةً ، وتَعِيَها أُذُنٌ واعيةٌ ﴾ [الحاقة ٦٩/١١-١٢] . والضمير في قوله : ﴿ جعلناها ﴾ عائد إلى السفينة المذكورة .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا عرض موجز جداً لقصة نوح مع قومه ، فصلت في مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم . وقد دلت مع هذا الإيجاز على العظة المؤثرة منها ، فإنها ذُكرت تسلية للنبي ﷺ لما أسف على إعراض قومه عن دعوته ، فأخبره الله تعالى بأن الأنبياء قبلك ابتلوا بالكفار من أقوامهم فصبروا ، وخص نوحاً بالذكر أولاً ؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض ، بعد أن امتلأت كفراً ، وأنه لم يلق نبي من قومه مالقي نوح عليه السلام ، كما تقدم في سورة هود .

روى ابن عساكر عن أنس أن النبي ﷺ قال : « أول نبي أرسل نوح » . واختلف في عمره ، قال الحسن البصري : لما أتى ملَك الموت نوحاً ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشتَ في الدنيا ؟ قال : ثلاث مئة قبل أن أبعث ، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي ، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان ، قال ملَك الموت : فكيف وجدتَ الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان ، دخلت من هذا ، وخرجت من هذا .

وبالرغم من هذه المدة الطويلة في الدعوة إلى توحيد الله ، لم يؤمن برسالة نوح عليه السلام إلا فئة قليلة .

وظهر في القصة بنحو ملحوظ مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، أما الأوائل فقد نجاهم الله في السفينة التي كان نوح قد صنعها ، فركبوا فيها ونجوا من الغرق ، وأما الكافرون المكذبون فقد أغرقهم الله جميعاً ، وجعل الله السفينة أو العقوبة أو النجاة عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ .

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

- ١ -

الأدلة على الأصول الثلاثة : الوحدانية والرسالة والبعث

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

الإعراب :

﴿ وإبراهيمَ ﴾ منصوب عطفاً على نوح في آية : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ، أو عطفاً على هاء ﴿ أنجيناه ﴾ أو منصوب بتقدير فعل ، تقديره : واذكر إبراهيم . والعامل في ﴿ إذ قال ﴾ هو العامل في ﴿ إبراهيم ﴾ فهو على الأول ظرف لأرسلنا .

﴿ إفكاً ﴾ إما مصدر نحو كذب ولعب وإما صفة لفعل أي خلقاً ذا إفك وباطل .

﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ يحتمل كونه مصدراً بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم ، وأن يراد المرزوق ، وتنكيره للتعميم .

البلاغة :

﴿ يبدئ ﴾ و ﴿ يعيده ﴾ ﴿ يعذب ﴾ و ﴿ يرحم ﴾ بين كلٌّ طباق .

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ أسلوب الإطناب للتشنيع عليهم في عبادة الأوثان .

﴿ يسير ﴾ و ﴿ سيروا في الأرض ﴾ بينهما جناس ناقص غير تام .

﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ التصريح باسم الله هنا بعد إضماره في قوله ﴿ بدأ الخلق ﴾ للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة ، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء يحكم له بالقدرة على الإعادة ، لأنها أهون .

المفردات اللغوية :

﴿ واتقوه ﴾ خافوا عقابه . ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام . ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ الخير من غيره وتميزون ماهو شر مماهو خير . ﴿ أوثاناً ﴾ جمع وثن : وهو مااتخذ من جص أو حجر ، والصنم : ماكان من معدن كنحاس وغيره ، والتمثال : ماهو مثال لكائن حي . ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ تقولون كذباً في تسميتها آلهة ، وادعاء شفاعتها عند الله ، وأنها شركاء لله ، وهو دليل على شرّ ماهم عليه من حيث إنه زور وباطل لا حقيقة له .

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم ، وهو دليل ثانٍ على شر ماهم عليه ، من حيث إن تلك الأوثان لا تجدي شيئاً . ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ اطلبوه منه ، فإنه المالك له . ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ، شاكرين له نعمه . ﴿ إليه ترجعون ﴾ أي مستعدين للقائه بالعبادة والشكر ، فإنكم راجعون إليه .

﴿ وإن تكذبوا ﴾ أي تكذبوني . ﴿ فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ أي من قبلي من الرسل ، فلم يضرهم تكذيبهم ، وإنما ضرّ أنفسهم ، حيث تسبب لما حلّ بهم من العذاب ، فكذا تكذيبكم . ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ إلا البلاغ البيّن الذي زال معه الشك .

وهذه الآية : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ وما بعدها إلى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ من جملة قصة إبراهيم ، ويحتمل أن يكون المذكور اعتراضاً ، بذكر شأن النبي ﷺ وقريش وهدم مذهبهم

والوعيد على سوء صنيعهم ، وهو توسط بين طرفي قصة ، من حيث إن مساقها لتسلية الرسول ﷺ والترويح عنه بأن أباه خليل الله مُني بنحو ما مُني به من شرك القوم وتكذيبهم ، وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه .

﴿ يبدئ الله الخلق ﴾ أي يخلقهم ابتداء من مادة وغيرها . ﴿ ثم يعيده ﴾ يعيد الخلق بعد الموت كما بدأهم . ﴿ إن ذلك ﴾ المذكور من الخلق والإعادة . ﴿ على الله يسير ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء ، فكيف ينكرون الثاني ؟ ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ لمن كان قبلكم وأماتهم ، على اختلاف الأجناس والأحوال . ﴿ ثم ينشئ الله النشأة الآخرة ﴾ هي إعادة الخلق مرة أخرى ، بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء ، فإنه والإعادة نشأتان ، من حيث إن كلاً منهما اختراع وإخراج من العدم ، فالنشأة : الخلق والإيجاد . ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ومنه البدء والإعادة ؛ لأن قدرته لذاته وكل الممكنات بالنسبة إلى ذاته سواء ، فيقدر على النشأة الأخرى ، كما قدر على النشأة الأولى .

﴿ يعذب من يشاء ﴾ تعذيبه . ﴿ ويرحم من يشاء ﴾ رحمته . ﴿ وإليه تقلبون ﴾ أي تُردُّون بعد موتكم . ﴿ بمعجزين ﴾ ربكم عن إدراككم ، أي جاعلين الله عاجزاً . ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا تفوتونه أينما كنتم ، سواء بالتواري في الأرض أو التحصن في السماء . ﴿ من دون الله ﴾ غيره . ﴿ من ولي ﴾ قريب ، أو متولي الأمر يمنعكم منه . ﴿ ولا نصير ﴾ معين ، ينصركم من عذابه .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه . ﴿ ولقائه ﴾ بالبعث . ﴿ يئسوا من رحمتي ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة ، فعبر عنه بالماضي لتحقق الوقوع والمبالغة فيه . ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ مؤلم بكفرهم .

المناسبة :

بعد الانتهاء من بيان قصة نوح أبي البشر الثاني عليه السلام ، أورد الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وإمام الحنفاء ، بقصد عرض نماذج من سيرة الأنبياء للنبي ﷺ ليتأسى بهم ، ويسلو عما أهمه من إعراض قومه عن دعوته ، كما بيّنت .

التفسير والبيان :

﴿ وإبراهيمَ إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك حين دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والإخلاص له في السر والعلن ، واتقاء عذابه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، فإذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فيهما ، إن كنتم ذوي إدراك وعلم ، تميزون به بين الخير والشر ، وتفعلون ما ينفعكم .

فقوله : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ معناه : أخلصوا له العبادة والخوف . ثم أقام إبراهيم لقومه دليلين على التوحيد وعلى فساد ماهم عليه ، وشر ما يسيرون عليه ، فقال :

الدليل الأول :

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلُقون إفكاً ﴾ أي إن الأصنام التي تعبدونها من غير الله ، ماهي إلا أشياء مصنوعة من جص أو حجر ، صنعتموها بأيديكم ، فلا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، فسميتموها آلهة ، وادعيتم أنها تشفع لكم عند ربكم ، وإنما هي مخلوقة أمثالكم ، فأنتم تكذبون حين تصفونها بأنها آلهة .

فقوله : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ معناه : تختلقون الإفك أي الكذب والباطل ، بتسمية الأوثان آلهة ، وشركاء لله ، أو شفعاء إليه .

الدليل الثاني :

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ أي إن تلك الأوثان التي تعبدونها من غير الله ، لاتقدر أن تجلب لكم رزقاً أبداً قليلاً أو كثيراً ، فكيف تعبدونها ؟!

﴿ فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له إليه تُرجعون ﴾ أي فاطلبوا الرزق من عند الله ، لا من عند غيره من الأوثان ونحوها ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، تدركوا ما تطلبون ، فكلوا من رزق الله ، واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من مزيد الفضل ، واستعدوا للقائه ، فإليه ترجعون يوم القيامة ، وتسألون عما أنتم عليه من عبادة غيره ، ويجازي كل عامل بعمله .

ثم أقام إبراهيم دليلاً على الرسالة ، فقال :

﴿ وإن تكذّبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ أي وإن تكذبوني في رسالتي ، فلا تضروني أبداً ، فإن الأمم السابقة كذبوا رسلهم ، ولكن بلغكم ما حلّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، فأضروا أنفسهم بذلك ، وما المطلوب الواجب على الرسول إلا أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء ، وعلى الله الحساب .

فقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ معناه : لا واجب عليه إلا التبليغ ، وهو ذكر المسائل والأوامر المنزلة من عند الله ، والإبانة : وهي إقامة البرهان على ما جاء به .

وبعد بيان الأصل الأول والاستدلال عليه وهو التوحيد ، والإشارة إلى الأصل الثاني وهو الرسالة ، شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور ، وهذه الأصول الثلاثة متلازمة لا يكاد ينفصل ذكر بعضها عن بعض في البيان الإلهي ، فقال :

﴿ أولم يَرَوا كيف يُبدئ الله الْخَلْق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير ﴾ أي أولم يشاهدوا كيفية بدء الخلق ؟ فإن الله خلق أنفسهم بعد أن لم يكونوا شيئاً

مذكوراً ، وزودهم بالقدرة الجسدية وبطاقات المعرفة من السمع والبصر والفؤاد ، فإن الذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه ، بل هو أهون عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ﴾ [الروم ٢٧/٣٠] .

وبعد إثبات المعاد بالدليل المشاهد في الأنفس ، لفت الله تعالى النظر إلى آياته في الآفاق ، فقال :

﴿ قل : سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ قل يا محمد : سيروا أيها المنكرون للبعث في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الله خلق السموات وما فيها من الكواكب النيِّرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من جبال ومهاد ووديان وبراري وقفار ، وأشجار وأثمار ، وأنهار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار . وذلك كقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم ، حتى يتبيَّنَ لهم أنه الحقُّ ﴾ [فصلت ٥٣/٤١] وقوله سبحانه : ﴿ أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خَلَقوا السمواتِ والأرضَ ، بل لا يوقنون ﴾ [الطور ٣٥/٥٢ ـ ٣٦] .

هذا هو المتفرد بالخلق ، وذلك دليل على وجوده ، ومن قدر على الخلق قدر على الإعادة وإنشاء النشأة الآخرة يوم القيامة ، فإن الله قدير على كل شيء ، ومنه البدء والإعادة . وقد عبر أولاً بلفظ المستقبل ﴿ كيف يبدئ ﴾ للدلالة على القدرة المستمرة ، ثم عبَّر بلفظ الماضي ﴿ كيف بدأ ﴾ للعلم بما بدأ .

ويلاحظ أنه تعالى قال أولاً ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ﴾ بصيغة الاستفهام ، ثم قال : ﴿ سيروا في الأرض ﴾ بصيغة الأمر ؛ لأن الآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي : وهو الحاصل من غير طلب ، والآية الثانية إشارة إلى

العلم الفكري الحاصل بالتفكير والطلب ، أي سيّروا فكركم في الأرض ، وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم ، لتعلموا بدء الخلق .

ثم ذكر الله تعالى ما يكون بعد الإعادة فقال :

﴿ يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تُقلبون ﴾ أي إن الله هو الحاكم المتصرف يعذب من يشاء منكم من الكفار والعصاة ، ويرحم من يشاء من عباده فضلاً منه ورحمة ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لامعقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، فله الخلق والأمر ، وإليه تردون يوم القيامة بعد الموت مهما طال الأمد ، فيحاسب الخلائق على ماقدموا ، وحسابه حق وعدل ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السُّنن : « إن الله لوعذّب أهل سماواته ، وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم » . وتقديم التعذيب في البيان على الرحمة ، مع أن الرحمة سابقة كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة : « سبقت رحمتي غضبي » لأنه ذكر الكفار أولاً ، ولمناسبته التهديد السابق بقوله : ﴿ وإن تكذبوا .. ﴾ . وإعادة ﴿ وإليه تقلبون ﴾ بعد قوله : ﴿ إليه ترجعون ﴾ للدلالة على أن التعذيب والرحمة وإن تأخرا ، فلا بدّ من حصولها ، فإن إليه الإياب وعليه الحساب ، وعنده يدخر الثواب والعقاب .

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾ أي وما أنتم أيها البشر بجاعلين الله عاجزاً عن إدراككم في أرضه وسمائه ، فلا يعجزه أحد من أهل السموات والأرض ، ولا يقدر على الهرب من قضائه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وليس لكم من غير الله ولي يلي أموركم ويحفظكم ويرعاكم ، ولا معين ناصر ينصركم ويمنعكم من عذابه إن عذبكم .

وبعد الإفاضة في بيان هذه الأدلة على المعاد ، والقدرة الإلهية الفائقة التصور ، والتوحيد ، هدد كل مخالف وتوعد كل كافر ، فقال :

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ، أولئك يئسوا من رحمتي ، وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله أي بدلائل وحدانيته وما أنزله على رسله من البراهين المرشدة إلى ذلك ، وكفروا بالمعاد ولقاء الله في الآخرة ، أولئك لا نصيب لهم من رحمة الله ، بسبب كفرهم ، ولهم عذاب مؤلم موجع شديد في الدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿ إنه لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرونَ ﴾ [يوسف ٨٧/١٢] .

وتكرار ﴿ أولئك ﴾ في الآية للدلالة على أن كل واحد من اليأس والعذاب لا يوجد إلا في الكفار ، وقد أضاف اليأس إليهم بقوله : ﴿ أولئك يئسوا ﴾ فلو طمعوا بالرحمة لأنزلها عليهم ، ثم إنه تعالى أضاف الرحمة لنفسه ﴿ رحمتي ﴾ لبيان عمومها لهم ولزومها له ، ولم يضف العذاب لنفسه لتخصيصه بالكفار .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ كانت دعوة إبراهيم كدعوة جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة الله (أي إفراده بالعبادة) وتوحيده واتقاء عذابه بفعل أوامره وترك معاصيه . وقوله تعالى : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ إشارة إلى التوحيد ؛ لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره ، فقوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ إثبات الإله ، وقوله : ﴿ واتقوه ﴾ نفي الغير .

٢ ـ إن الوثنيين يعبدون أصناماً من صنع أيديهم ويختلقون الكذب بجعل تلك الأصنام شركاء لله شفعاء عنده ، مع أنها لا تملك ضرّاً ولا نفعاً ، ولا تقدر على جلب الرزق لأحد ، إنما الرازق الذي يطلب منه الرزق هو الله وحده ، فيجب على العباد أن يسألوه وحده دون غيره ؛ لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور : إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته ، وإما لكونه نافعاً في الحال أو في المستقبل ، وإما

لكونه خائفاً منه ، فقوله : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ إشارة إلى أنها لاتستحق العبادة لذاتها ، وقوله : ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل ، وقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ معناه اعبدوه لكونه مرجعاً يتوقع الخير منه . وقوله : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ تهديد .

٣ ـ الله تعالى هو بادئ الخلق ، خلق الإنسان والحيوان والنبات والثمار ، فتحيي ثم تفنى ، ثم يعيدها ، ويهلك الإنسان ، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة ؛ لأن القادر على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ، وذلك هيّن يسير على الله ؛ لأنه إذا أراد أمراً قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ . وبإيراد آية ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ﴾ تكون الآيات دالة على الأصول الثلاثة : التوحيد ، والرسالة بقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ والحشر .

٤ ـ إن آفاق الكون سمائه وأرضه خلقها الله تعالى ، وهو الذي يعيد الخلق مرة أخرى ؛ لأنه القادر على كل شيء ، وهذا يفيد كون الإعادة أمراً مقدوراً ، وذلك كاف في إمكان الإعادة ، وهو تقرير لكون الأمر يسيراً على الله تعالى .

٥ ـ الله سبحانه هو الحاكم المتصرف يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لامعقّب لحكمه ، يعذّبُ من يشاء تعذيبه بعدله وحكمته وهو تعذيب أهل التكذيب ، ويرحم من يشاء رحمته بفضله ، وهو رحمة المؤمنين ، والجميع عائدون إليه ، محاسبون أمامه ، ولا يعجزه أحد في السماء والأرض . وهذا كله لتخويف العاصي وتفريح المؤمن .

٦ ـ ليس لأحد سوى الله من ولي يتولى أمره حفظاً وعناية ورعاية ، ولا من ناصر معين يعينه على التخلص من الشدائد .

٧ ـ إن الذين كفروا بالقرآن ، أو بما أقامه الله من أدلة وأعلام على وجوده وتوحيده وقدرته لانصيب لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى ، فهم أيسوا من

الرحمة . وقد ذكّر الكفارَ بالله هنا بعد بيان أصلي التوحيد والإعادة وتهديد من خالف .

٨ ـ دلّ قوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ؛ لأن الرسول إذا بُلِّغ شيئاً ولم يبيّنه ، فإنه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ـ ٢ ـ

جواب قوم إبراهيم له وإيمان لوط به وتعداد النعم عليه

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

الإعراب :

﴿ إنما اتخذتم ﴾ ﴿ إنما ﴾ : كافة ومكفوفة ، و ﴿ أوثاناً ﴾ مفعول ﴿ اتخذتم ﴾ واقتصر على مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم ﴾ . و ﴿ مودة ﴾ مفعول لأجله ، أي إنما اتخذتم الأوثان للمودة فيما بينكم . ويجوز أن تكون (ما) في ﴿ إنما ﴾ اسماً موصولاً بمعنى

الذي ، في موضع نصب لأنها اسم (إن) وصلته ﴿ اتخذتم ﴾ والعائد محذوف تقديره : اتخذتموه ، وهو المفعول الأول لـ ﴿ اتخذتم ﴾ والمفعول الثاني ﴿ أوثاناً ﴾ و ﴿ مودة ﴾ مرفوع خبر (إن) . ومن نون ﴿ مودة ﴾ نصب ﴿ بينكم ﴾ على الظرف ، والعامل فيه ﴿ مودة ﴾ . و ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ظرف للمودة أيضاً . وجاز أن يتعلق بها ظرفان لاختلافهما ؛ لأن أحدهما ظرف مكان والآخر ظرف زمان .

﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ ﴿ في الآخرة ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف مقدر ، أي : وإنه صالح في الآخرة لمن الصالحين ، أو متعلق بـ ﴿ الصالحين ﴾ على رأي بعضهم ، فإنه نزلها منزلة الألف واللام التي للتعريف ، لا بمعنى التي للذين .

البلاغة :

﴿ أو حرّقوه ﴾ على طريقة أسلوب الإيجاز ، أي حرقوه في النار ، وكذا ﴿ فأنجاه الله .. ﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار .

المفردات اللغوية :

﴿ جواب قومه ﴾ قوم إبراهيم له . ﴿ إلا أن قالوا ﴾ كان ذلك قول بعضهم ، لكن لما قيل فيهم أو رضي به الباقون ، أسند إلى كلهم . ﴿ حرّقوه ﴾ احرقوه . ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أي فقذفوه في النار ، فأنجاه الله منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً . ﴿ إن في ذلك ﴾ في إنجائه منها . ﴿ لآيات ﴾ هي حفظه من أذى النار ، وإخمادها مع عظمها في زمان يسير ، وإنشاء روض مكانها . ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يصدقون بتوحيد الله وقدرته ؛ لأنهم المنتفعون بها .

﴿ مودةَ بينكم ﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا في اللقاء على عبادتها . ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع . ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع القادة . ﴿ ومأواكم ﴾ مصيركم جميعاً . ﴿ ومالكم من ناصرين ﴾ يخلصونكم منها .

﴿ فآمن له ﴾ صدق بإبراهيم ﴿ لوط ﴾ هو ابن أخي إبراهيم واسمه هاران ، أو ابن أخته وأول من آمن به . ﴿ وقال ﴾ إبراهيم . ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ أي مهاجر من قومي إلى حيث امرني ربي بالهجرة ، فهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام فنزل فلسطين ، ونزل لوط سدوم . ﴿ العزيز ﴾ في ملكه الذي يمنعني من أعدائي . ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي . ﴿ إسحاق ﴾ هو الابن الثاني لإبراهيم بعد إسماعيل . ﴿ ويعقوب ﴾ ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكان نافلة بعد أن أيس من الولادة من عجوز عقيم (عاقر) . ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة ﴾ أي فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته . ﴿ والكتاب ﴾ يريد به الجنس ، ليتناول الكتب الأربعة ، وهي : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

﴿ اجره في الدنيا ﴾ الرزق الواسع ، والمنزل المريح ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل بين أهل الأديان جميعاً . ﴿ لمن الصالحين ﴾ أي في زمرة الكاملين في الصلاح . والصالح لغة : الباقي على ما ينبغي ، يقال : طعام صالح ، أي باقٍ على حال حسنة .

التفسير والبيان :

بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام لقومه الأدلة والبراهين على توحيد الله والرسالة والبعث أو الحشر ، وأمرهم بعبادة الله تعالى ، ونددد بعبادة الأوثان ، لم يجدوا جواباً له على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم إلا اللجوء إلى استعمال القوة ، كما هو شأن المحجوج المغلوب على أمره المعتمد على جاهه وقوة ملكه ، وهذا ما حكاه تعالى عنهم قائلاً :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرّقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي لم يجد قوم إبراهيم جواباً له على مطالبتهم بعبادة الله واتقاء عذابه إلا أن قال كبراؤهم ورؤساؤهم : اقتلوه ، أو احرقوه بالنار تحريقاً شديداً ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله وسلمه منها ، وجعلها برداً وسلاماً عليه ، لحفظه له وعصمته إياه . إن في ذلك الإنجاء لإبراهيم من النار لدلالات على وجود الله وقدرته لقوم يصدقون بالله إذا ظهرت لهم الأدلة والحجج .

إنه مثل السوء ومدعاة العجب ، يدعوهم إبراهيم عليه السلام إلى الخير ، ويرشدهم إلى الحق والهدى ، فيلقى في النار للتخلص منه ، ولكن الله أكبر وأقدر من كيد البشر وقوتهم ، فإنه جعل النار المحرقة غير مؤثرة فيه ، وإنما صيّرها برداً وسلاماً عليه .

وقد وصف الله في آيات أخرى هذا التقابل بين الفعلين ، فقال : ﴿ فقالوا : ابنوا له بُنْياناً فألقوه في الجحيم ، فأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأسفلين ﴾

[الصافات ٩٧/٣٧ ـ ٩٨] ، وقال سبحانه : ﴿ قالوا : حَرِّقوه وانْصُروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ [الأنبياء ٦٨/٢١ ـ ٧٠] .

ثم ذكر الله تعالى جواب إبراهيم لقومه بعد النجاة من النار :

﴿ وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ أي قال إبراهيم لقومه مقرعاً لهم ، وموبخاً على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اتخذتم هذه الأوثان لتجتمعوا على عبادتها ، ولتتواددوا بينكم ، وتقووا الصداقة والألفة بين بعضكم بعضاً في حياتكم الدنيا ، كاتفاق أهل المذاهب والأهواء على رابطة بينهم تكون سبب تجمعهم وتآلفهم ، ولكن تلك الأوثان لاتعقل ولا تنفع ولا تضر ، وإنما يكون اتخاذكم هذا لتحصيل المودة لكم في الدنيا فقط .

وستكون حالهم من التنافر والتباعد في الآخرة نقيض ذلك ، فقال تعالى :

﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين ﴾ أي ثم تنعكس هذه الحال يوم القيامة ، فتنقلب هذه الصداقة والمودة بغضاً وحقداً وعداوة ، فيتبرأ القادة من الأتباع ، ويلعن الأتباع القادة ، كما قال تعالى : ﴿ كلما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أختَها ﴾ [الأعراف ٣٨/٧] ، وقال سبحانه : ﴿ الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقينَ ﴾ [الزخرف ٦٧/٤٣] ثم يكون مصيرُكم إلى النار ، ولن تجدوا حينئذٍ ناصراً ينصركم ، ولا منقذاً ينقذكم من عذاب الله تعالى .

هذا حال الكافرين ، أما المؤمنون فبخلاف ذلك ، يتصافون ويصفحون ، ويعفو بعضهم عن بعض ، كما ورد في بعض الأحاديث .

ثم ذكر تعالى أنه لم يؤمن بإبراهيم ولم يصدق بما رأى إلا لوط فقال : ﴿ فآمن له لوطٌ ، وقالَ : إنّي مهاجرٌ إلى ربّي إنه هو العزيزُ الحكيمُ ﴾ أي فلما نجا إبراهيم

سليماً من النار آمن به لوط ، وصدق بنبوته ، ولوط : هو ابن أخي إبراهيم ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارّة امرأةُ إبراهيم الخليل .

وقال إبراهيم : إني مهاجر من دياركم ، متجه إلى حيث أمرني ربي بالهجرة ، وقد هاجر من سواد العراق إلى حرّان ، ثم إلى فلسطين ونزل لوط بلدة سدوم .

وعلة الهجرة هي كما قال :

إن ربي هو العزيز في ملكه الغالب على أمره ، الذي يمنعني من أعدائي ، وينصرني عليهم ، الحكيم في تدبير شؤون خلقه ، فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح .

فقوله : ﴿ وقال : إني مهاجر ﴾ يعود الضمير إلى إبراهيم ؛ لأنه المكني عنه بقوله : ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي من قومه . ويحتمل عود الضمير إلى ﴿ لوط ﴾ لأنه أقرب المذكورين .

ثم عدّد تعالى نعمه على إبراهيم في الدنيا والآخرة لإخلاصه لربه ، فقال :

١ ـ ﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ ﴾ أي ووهبنا إلى إبراهيم بعد إسماعيل في حال الكِبَر إسحاق ، وكذا من نسله يعقوب نافلة حفيداً له ، كما قال تعالى : ﴿ فلما اعتزلَهم وما يعبدونَ من دونِ اللهِ ، وهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ ، وكلاً جَعَلْنا نبيّاً ﴾ [مريم ٤٩/١٩] ، وقال سبحانه : ﴿ ووهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ﴾ [الأنبياء ٧٢/٢١] .

وفي الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » .

٢ ـ ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ أي وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة ، فكانت الأنبياء كلها بعد إبراهيم من ذريته ، ولم يوجد نبي بعده إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ،

حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ، مبشراً بالنبي العربي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق .

وآتيناه الكتاب ، فكانت التوراة منزلة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد ، وكلهم من نسله .

٣ ـ ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ بكثره الذرية والأموال والزوجة الصالحة والثناء الحسن ، فجميع أهل الأديان يحبونه ويتولونه ، قال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول : هو منا .

٤ ـ ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي وإنه يحشر في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح الذين لهم الدرجات العلا .

وبهذا جمع الله تعالى له بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ أثبت إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه أصول الدين الثلاثة : وهي وحدانية الله ، وصحة الرسالة أو النبوة ، والبعث والحشر ، وأقام البرهان الدامغ على ذلك ، فكان جوابهم النابع من تمكن الكفر والعناد والمكابرة هو : ﴿ اقتلوه أو حرّقوه ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ، وهو قتل بالنار أشد نكايةً وتعذيباً وتشفياً من القتل العادي .

٢ ـ حشد قوم إبراهيم الجموع العظيمة ، وجمعوا الأحطاب الكبيرة ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لهبها إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فأنجاه الله وسلّمه ،

وجعلها عليه برداً وسلاماً ، كما قال تعالى : ﴿ يانارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء ٦٩/٢١] .

أما كيفية استبراد النار فهو أمر معجز ، والمعجز خارق للعادة ، والله قادر على كل شيء ، بسلب خاصية الحرارة عن النار .

لهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً ؛ فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، فاجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

٣ ـ إن في إنجاء إبراهيم من النار العظيمة ، حتى لم تحرقه بعد ماأُلقي فيها ، لآيات للمؤمنين بالله ورسله . وجَمَعَ الآيات هنا ؛ لأن الإنجاء من النار ، وجعلها برداً وسلاماً ، ولم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه به ، وغير ذلك ، مجموع آيات . وخص الآيات بالمؤمنين ؛ لأنه لا يصدق بذلك إلا المؤمنون ، وفيه بشارة للمؤمنين بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة .

أما في قصة نوح فقال : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ للدلالة على اتخاذ السفينة وقت الحاجة وصونها عن المهلكات ، فهي آية واحدة ، وجعلها للعالمين علامة ظاهرة لبقائها أعواماً حتى مرّ عليها الناس ، ورأوها ، فعلم بها كل أحد ، وليس المؤمنين فقط .

٤ ـ بالرغم من إلقاء إبراهيم في النار ، عاد إلى لوم الكفار وبيان فساد ماهم عليه وخطئه ، وتمسكهم بالتقليد الأعمى ، فقال : إنكم اتخذتم عبادة الأوثان لإيجاد نوع من التوادد والترابط والتواصل فيما بينكم ، كالتوافق الذي يحدث بين أهل مذهب معين .

غير أن تلك الروابط واهية غير موثقة ، فهي رابطة في الدنيا فقط ، ثم تنقطع وتتلاشى في عالم الآخرة ، فيقع التباغض والتلاعن والتعادي بينكم

يوم القيامة ، فتتبرأ الأوثان من عُبّادها ، والرؤساء من الأتباع ، ويلعن الأتباع رؤساءهم ، ويكون مأوى الجميع نار جهنم .

٥ ـ ليست نار الآخرة كالنار التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره ، فإن الكفار في النار ، وليس لهم شافع ولا ناصر دافع ، ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله تعالى .

٦ ـ لوط عليه السلام أوّل من صدق إبراهيم عليه السلام حين رأى النار عليه برداً وسلاماً ، وتلك معجزة . قال ابن إسحاق : آمن لوط بإبراهيم ، وكان ابن أخته ، وآمنت به سارّة ، وكانت بنت عمه .

٧ ـ بعد أن بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلي بعد وجود الآية الكبرى ، وهي نجاته من النار ، ولم يؤمنوا ، وجبت المهاجرة ؛ لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا ، فبقاؤه فيهم عبث ولا جدوى فيه ، لذا هاجر من أرض بابل ونزل بفلسطين ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ ، وامرأته سارّة . وهو أول من هاجر من أرض الكفر .

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ كما روى البيهقي ـ أول من هاجر بأهله إلى الحبشة في الهجرة الأولى ، بعد لوط .

٨ ـ أكرم الله تعالى إبراهيم الخليل بعد هجرته ، فمنّ عليه بالأولاد ، فوهب له إسحاق ولداً ، ويعقوب ولد ولد ، من بعد إسماعيل ، وجعل في ذريته النبوة ، والكتاب ، فلم يبعث الله نبيّاً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، وأنزل الكتب الأربعة المعروفة على أناس من ذريته ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والزبور على داود من ولد إسحاق بن إبراهيم ، والقرآن (أو الفرقان) على محمد ﷺ من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وآتاه أجره في الدنيا باجتماع أهل الملل عليه ، وجعله في الآخرة في زمرة الصالحين .

وكل هذا حثّ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في الصبر على الدين الحق .

قصة لوط عليه السلام مع قومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

الإعراب :

﴿ ولوطاً إذ قال ﴾ إما منصوب بالعطف على هاء ﴿ أنجيناه ﴾ أو عطفاً على ﴿ نوح ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ أي وأرسلنا لوطاً ، أو منصوب بفعل مقدر ، أي واذكر لوطاً ، وعامل ﴿ إذا ﴾ هو العامل في ﴿ لوط ﴾ والأولى عطفه على ﴿ إبراهيم ﴾ .

﴿ إنا منجوك وأهلك ﴾ كاف ﴿ منجوك ﴾ في موضع جرّ بالإضافة . و ﴿ أهلك ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أي وننجي أهلك .

البلاغة :

﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ تأكيد بعد مؤكدات ، وإطناب بتكرار فعل ﴿ تأتون ﴾ لتقبيح عملهم وتوبيخهم .

﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ استهزاء وسخرية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ماسبق ، أي إن كنت صادقاً فائتنا به .

﴿ رجزاً من السماء ﴾ التنكير لإفادة التهويل ، أي عذاباً عظيماً شديداً .

﴿ العالمين ﴾ ﴿ الصادقين ﴾ ﴿ ظالمين ﴾ ﴿ الغابرين ﴾ وكذا ﴿ يفسقون ﴾ ﴿ يعقلون ﴾ توافق الفواصل .

المفردات اللغوية :

﴿ ولوطاً ﴾ أي واذكر ﴿ الفاحشة ﴾ الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة ، وهي إتيان أدبار الرجال . ﴿ ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع السليمة . ﴿ العالمين ﴾ الإنس والجن . ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ الطريق على المارة ، بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة ، حتى انقطعت الطرق . ﴿ في ناديكم ﴾ مجالسكم الخاصة أو متحدثكم . ﴿ المنكر ﴾ الأمر المخالف للشرع ، المنفر للطبع السليم كاللواط وأنواع الفحش . ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في استقباح الفاحشة وأن العذاب نازل بفاعليه .

﴿ انصرني ﴾ في إنزال العذاب . ﴿ على القوم المفسدين ﴾ العاصين بإتيان الرجال أو بابتداع الفاحشة ، فاستجاب الله دعاءه .

﴿ بالبشرى ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب بعده . ﴿ هذه القرية ﴾ هي سدوم ، قرية لوط . ﴿ ظالمين ﴾ كافرين . ﴿ قالوا ﴾ أي الملائكة الرسل . ﴿ الغابرين ﴾ الباقين في العذاب . ﴿ سيء بهم ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء . ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ؛ لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه . وضاق ذَرْعه أي قصرت طاقته أو قدرته ، وضده : طال ذرعه وذراعه ، ورَحُب الذراع : إذا كان قادراً على الشيء ؛ لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع . ﴿ رجزاً ﴾ عذاباً شديداً ، سمي بذلك ؛ لأنه يقلق المعذّب ، من قوله : ارتجز أو ارتجس أي اضطرب . ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي بسبب فسقهم . ﴿ آية بينة ﴾ ظاهرة ، وهي آثار خرابها . ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يتدبرون أو يستعملون عقولهم في الاستبصار .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله قصة إبراهيم ذكر قصة لوط عليهما السلام ؛ لأنه كان معاصراً له في زمن إبراهيم ، ولم يذكر في قصته هنا دعوته إلى التوحيد كسائر الأنبياء ، وإنما اقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، وذكر ذلك عنه في موضع آخر حيث قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ [هود ٧٨/١١ ، الشعراء ١٦٣/٢٦] ﴿ واتقوا الله ﴾ [الحجر ٦٩/١٥] وكان قد أتى به إبراهيم وسبقه إليه . واختص لوط بالمنع من عمل قومه الفاحش ، فلما يئس من ردعهم وتطهرهم من فاحشتهم ، استنصر بربه ، فاستجاب له وأهلك قومه ، ونجاه مع من آمن به بسبب فحشهم وكفرهم بالله وبرسوله وقطعهم الطرق .

التفسير والبيان :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك للعبرة والعظة قصة نبي الله لوط عليه السلام حين أرسله الله إلى أهل قرية « سدوم » فأنكر عليهم صنيعهم وقبيح أعمالهم التي ابتدعوها ، وقال منكراً عليهم أو محذراً أو موبخاً ومقرعاً لهم : أتأتون الفعلة الفاحشة المتناهية في القبح شرعاً وطبعاً سليماً ؟!

ثم كرر الإنكار عليهم ووضح تلك الفاحشة فقال :

١ ـ ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾؟ أي تأتون الذكران بشهوة كإتيان النساء ، ما سبقكم أحد قبلكم من بني آدم إلى هذه الفعلة .

٢ ـ ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أي تقفون في طريق الناس ، وتتعرضون للمارة بقتلهم وأخذ أموالهم وفعل الفاحشة بهم .

٣ ـ ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي وتفعلون ما لا يليق من الأقوال

والأفعال في مجالسكم الخاصة ، دون أن ينكر بعضكم على بعض شيئاً من ذلك ، فهم ذوو أخلاق سوء . والنادي : المجلس .

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني والبيهقي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ فقال : « يحذفون[1] أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » .

وروي عن ابن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضاً ، ويتضارطون في مجالسهم ، ويحذفون ، ويلعبون بالنَّرْد والشَّطْرَنج ، ويلبسون المصبغات . ويتناقرون بالديكة ، ويتناطحون بالكباش ، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء ، والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس[2] على كل عابر ، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسّحاق .

وفسر مجاهد المنكر : بأنه الصفير ، ولعب الحمام ، والجَلاَهِق[3] والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء .

فكان جوابهم :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ أي فما كان جوابهم بعد نهيهم عن الفاحشة وتغييرها إلا قولهم بسبب كفرهم واستهزائهم وعنادهم : عجل علينا العذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقاً فيما تهددنا به . وهذا كان في بداية وعظه لهم ، فلما ألح عليهم في الإنكار قالوا كما

(١) الحذف أو الخذف : الرمي بالحصى .

(٢) رسوم المرور الظالمة .

(٣) كعلابط البندق الذي يرمى به .

جاء في آية أخرى : ﴿ أخرجوهم من قريتِكم ، إنّهم أناسٌ يَتطهّرون ﴾ [الأعراف ٨٢/٧] .

ولما يئس لوط من استجابة قومه طلب من الله النصرة عليهم فقال :

﴿ قال : ربِّ انصرني على القوم المفسدين ﴾ أي قال لوط داعياً : رب انصرني على هؤلاء القوم المفسدين في الأرض بابتداع الفاحشة .

ومن المعلوم أنه ماطلب نبي من الأنبياء هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح : ﴿ إنك إن تذرْهم يُضِلّوا عبادَك ، ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ [نوح ٢٧/٧١] أي لامصلحة ولا خير يرتجى فيهم لاحالاً ، ولا مآلاً في المستقبل .

فاستجاب الله دعاءه ، وبعث ملائكة العذاب لنصرته :

﴿ ولما جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى ، قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلَها كانوا ظالمين ﴾ أي بعث الله ملائكة ، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للأضياف ، فلما رأى أنه لا رغبة لهم في الطعام خاف منهم . فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بولد صالح من امرأته « سارّة » وهو إسحاق ، ومن بعده يعقوب ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ؛ لأنهم قوم ظالمون أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم وتماديهم في الفساد والفحش .

فأخذ إبراهيم يدافع ، لعلهم يمهلونهم ، ولعل الله يهديهم ، وأشفق على ابن أخيه لوط ، فقال :

﴿ قال : إن فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينّه وأهله إلا امرأته ، كانت من الغابرين ﴾ أي قال إبراهيم مشفقاً على لوط : إن في القرية لوطاً ، وهو غير ظالم ، وهو رسول ، فقالت الملائكة الرسل : نحن أعلم منك بمن

فيها من المؤمنين والكافرين ، وإنا لننجي لوطاً وأهله وأتباعه المؤمنين به من الهلاك إلا امرأته ، فهي من الهالكين ؛ لأنها كانت تمالئ القوم على كفرهم وبغيهم وخبائثهم .

ثم قدموا على لوط فدخلوا عليه في صورة شبان حسان ، فلما رآهم ضاق بهم ، كما حكى تعالى :

﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً ، وقالوا : لاتخف ولا تحزن ، إنا منجّوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ أي ولما جاءت الملائكة الرسل إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه ، اغتم بأمرهم ، وخاف عليهم من قومه ، فقالوا له معرضين بحالهم : لاتخف علينا ، ولا تحزن بما نفعله بقومك الأخباث ، وإنا جئنا لتعذيبهم ، وإنا منجّوك وأتباعك المؤمنين من العذاب ، إلا امرأتك ، فإنها من الهالكين ؛ لتواطئها معهم على الفساد ، فكانت تدلهم على ضيوفه ، وكانت تدافع عنهم ، وترضى بأفعالهم .

ثم وصفوا العذاب بقولهم :

﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ أي إننا سننزل على أهل قرية « سدوم » عذاباً شديداً عظيماً من السماء ، تضطرب له نفوسهم ، بسبب فسقهم .

وكان العذاب هو الزلزلة التي خسفت بهم الأرض ، وصار مكان قريتهم بحيرة لوط (البحر الميت) فاقتلع جبريل عليه السلام قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله الحم وحجارة من سجيل منضود ، مسوّمة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى :

﴿ ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون ﴾ أي ولقد تركنا من القرية

بعض آثار منازلهم الخربة أو أخبارهم علامة ظاهرة واضحة ، وعبرة أو عظة لقوم يتدبرون ويستبصرون بعقولهم الأمور ، كما قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرّون عليهم مُصْبحين ، وبالليلِ أفلا تَعْقلون ﴾ [الصافات ١٣٧/٣٧ ـ ١٣٨] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآية ما يأتي :

١ ـ أنكر نبي الله لوط على قومه الذين أرسل إليهم في « سدوم » إنكاراً شديداً مع التوبيخ والتحذير فعل ثلاثة أمور : ارتكاب الفاحشة (اللواط) وقطع الطريق لأخذ الأموال والفاحشة والاستغناء عن النساء ، وفعل المخازي في مجالسهم الخاصة .

٢ ـ لقد قابل القوم هذا الإنكار بالاستهزاء والعناد والتكذيب واللجاج ، فطلبوا إنزال العذاب الذي يهددهم به إن كان صادقاً فيما يقول ظناً منهم أن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه ، ثم هددوه في آية أخرى بالطرد والإخراج من قريتهم .

٣ ـ تدل الآية على وجوب الحد في اللواطة ؛ لأنها فاحشة كالزنى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾ [الإسراء ٣٢/١٧] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً في الزنى ، يشرع زاجراً في اللواطة . وهذا وإن كان قياساً إلا أن علة القياس مستفادة من الآية ، فتكون منصوصاً عليها ، والقياس المنصوص العلة متفق على العمل به .

٤ ـ ماطلب نبي هلاك قوم إلا إذا يئس من هدايتهم ، وعلم أن عدمهم خير من وجودهم ، لذا دعا لوط عليه السلام ربه أن ينصره على القوم المفسدين ، فأجاب الله دعاءه .

٥ ـ إذا نزل العذاب بقوم نجى الله الصالحين المؤمنين منهم كما نجى لوطاً وأهله

الذين اتبعوه ، وأهلك الظالمين المفسدين مرتكبي الفاحشة كما فعل بقوم لوط وامرأته التي كانت راضية بأفعالهم ، وتدلهم على ضيوف لوط ، فكان حكمها حكمهم ؛ لأن الدال على الشر كفاعله ، كما أن الدال على الخير كفاعله .

٦ ـ ترك الله تعالى بعض آثار منازلهم الخربة للعبرة والعظة لمن يتأمل من العقلاء بمصير الظالمين ومآل الكافرين في الدنيا ، ولعذاب الله أشد وأنكى في الآخرة .

٧ ـ اشتملت مهمة الملائكة الرسل في ضيافة إبراهيم أمرين :

الأول ـ البشارة التي هي أثر الرحمة ، والإنذار بالإهلاك الذي هو أثر الغضب ، ورحمته تعالى سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الإنذار .

الثاني ـ لم يعلل الملائكة البشرى بشيء ، فلم يقولوا مثلاً : لأنك رسول مخلص أو لأنك مؤمن ، أو لأنك عادل ، وعللوا الإهلاك بقولهم : ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ لأن صاحب الفضل المطلق لا يكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم .

قصص شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام مع أقوامهم

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم
مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

الإعراب :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ ﴿ مدين ﴾ : ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . و﴿ شعيباً ﴾ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً . ﴿ مفسدين ﴾ حال مؤكدة لعاملها .

﴿ وعاداً وثموداً ﴾ أي وأهلكنا . ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ أي تبين لكم بعض ﴿ الذين ﴾ في آية ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أو منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وأهلكنا عاداً وثموداً ، بدلالة : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ لأنه في معنى الإهلاك ، وكلمة ﴿ ثموداً ﴾ هنا مصروف لأنه اسم للحي ، وورد في مكان آخر ممنوعاً من الصرف ؛ لأنه بمعنى القبيلة .

﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ كلها أسماء منصوبة بالعطف على ﴿ عاداً ﴾ في جميع الأوجه التي ذكرت ، ولا ينصرف للعجمة والتعريف (العلمية) .

البلاغة :

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً .. ﴾ تقديم المفعول للاهتمام به ، وفي الآية إجمال ثم تفصيل .

المفردات اللغوية :

﴿ وإلى مدين ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين ، وأصلها : أبو القبيلة . ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ افعلوا ماترجون به ثواب اليوم الآخر ، فأقيم المسبب مقام السبب . وقيل : إنه من الرجاء بمعنى

الخوف ، أي واخشوا يوم القيامة . ﴿ ولا تعثوا ﴾ لاتفسدوا من عَثِي : أفسد ، ومفسدين حال مؤكدة لعاملها . ﴿ الرجفة ﴾ الزلزلة الشديدة ، وقيل : صيحة جبريل ؛ لأن القلوب ترجف بها . ﴿ جاثمين ﴾ باركين على الركب ميتين ، أي ماتوا .

﴿ وعاداً وثمود ﴾ أي وأهلكنا . ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ أي تبين لكم بعض مساكنهم ، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم بالحجر واليمن إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، فكانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف قرب اليمن ، وثمود تسكن الحِجْر قرب وادي القُرى . ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ السوي ، سبيل الحق الذي بيّن الرسل لهم . ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ ذوي بصائر ، متمكنين من النظر والاستبصار ، ولكنهم لم يفعلوا .

﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ أي وأهلكنا ، وتقديم قارون لشرف نسبه ﴿ بالبينات ﴾ الحجج الواضحات . ﴿ سابقين ﴾ فائتين عذابنا غير مدرَكين ، بل أدركهم أمر الله ، مأخوذ من سبق طالبه : إذا فاته .

﴿ فكلاً ﴾ من المذكورين . ﴿ أخذنا بذنبه ﴾ أي عاقبنا بذنبه . ﴿ حاصباً ﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء ، كقوم لوط ، يقال : حصبه يحصبه : إذا رماه بالحصباء : وهي الحجارة الصغيرة . ﴿ الصيحة ﴾ الصرخة الشديدة ، كمدين وثمود . ﴿ من خسفنا به الأرض ﴾ كقارون . ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه . ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ فيعذبهم بغير ذنب . ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بارتكاب الذنب والتعرض للعذاب .

المناسبة :

بعد أن قص الله تعالى قصص نوح وإبراهيم ولوط ، أردفه بقصص شعيب وهود وصالح وموسى بإيجاز ، لفائدة العظة والاعتبار بأحوال هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم .

ويلاحظ أن هذه القصص هنا ذكر فيها القوم جرياً على الأصل أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم ، ولأن قوم شعيب وهود وصالح كان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس ، فجرى الكلام على أصله ، مثلما ذكر قارون وفرعون وهامان ؛ لاشتهارهم بالطغيان . أما قوم نوح وإبراهيم ولوط فلم يكن لهم اسم

خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل : قوم نوح وقوم لوط .

التفسير والبيان :

قصة شعيب :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال : ياقوم ، اعبدوا الله ، وارجوا اليوم الآخر ، ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين نبي الله شعيباً الذي كان من أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص العبادة له ، وفعل ما يرجون به ثواب اليوم الآخر ، والخوف من بأس الله ونقمته يوم القيامة ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، والبغي على أهلها ، بإنقاص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، وغير ذلك من المعاصي التي تجب التوبة منها ، وأخطرها الكفر بالله ورسوله ، كما قال :

﴿ فكذبوه ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي فقابلوه بالتكذيب والعناد ، والإصرار على الكفر والعصيان ، فأهلكهم الله بزلزلة (رجفة) عظيمة ، قوضت أركان ديارهم ، وصيحة هزت جنبات نفوسهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ، أدى إلى إماتتهم ، فأصبحوا في ديارهم ميتين لا حَرَاك بهم ، ألقي بعضهم على بعض .

وقد تقدم بيان قصتهم في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء .

قصة هود وصالح :

﴿ وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهم عن السبيل ، وكانوا مستبصرين ﴾ أي وأهلكنا عاداً قوم هود عليه السلام

الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضرموت في بلاد اليمن ، وأهلكنا ثمود قوم صالح عليه السلام الذين كانوا يسكنون الحِجْر قريباً من وادي القُرى ، بين الحجاز والشام ، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم ، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيداً ، وتمر عليهم كثيراً .

فأنتم يا أهل مكة ويا مشركي العرب قد تبين لكم إهلاكهم من آثار مساكنهم ، واطلعتم على معالم عذابهم ، فإن الشيطان قد زين لهم أعمالهم من عبادة غير الله ، وكفرهم بربهم ، واقترافهم المعاصي ، وصدهم الناس عن الدين الحق والسبيل الأقوم ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستبصار ، فلا عذر لهم في ترك الإيمان بربهم ، إلا أنهم لم ينتفعوا بطاقات فكرهم ونظرهم في عواقب الأمور .

أفلا يكون جديراً بكم أن تتعظوا بهؤلاء ، فالعاقل من اتعظ بغيره ؟!

قصة موسى :

﴿ وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض ، وما كانوا سابقين ﴾ أي وأهلكنا أيضاً قارون صاحب الأموال الوفيرة والكنوز العظيمة ، وفرعون ملك مصر في زمن موسى ، ووزيره هامان . وكان موسى قد جاءهم من عند ربه بالحجج الواضحات الدالة على صدق رسالته ، فاستكبروا في الأرض وأبوا تصديقه والإيمان به ، وكذبوه وكفروا بالله تعالى وبرسوله ، وكانوا خاطئين آثمين عالين مفسدين ، ولكنهم لم يكونوا فائتين الله ، ولا هاربين من عذابه ، بل أدركهم أمر الله وبطشه ؛ فإنه القادر القاهر العزيز الغالب .

أنواع عقوبات الأقوام المكذبين :

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي فلقي كل قوم ما يناسبه من العقاب ، وأهلكهم الله بسبب تكذيبهم الرسل ، وكانت عقوباتهم أربعة أنواع :

أ ـ الريح العاصفة : أرسل الله على بعضهم كقوم عاد حاصباً ، أي ريحاً صرصراً باردة عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل الحصباء (الحجارة الصغيرة) فتلقى عليهم ، وتقتلعهم من الأرض ، وترفعهم إلى عنان السماء ، ثم تصرعهم على الأرض ، فيصبحون جثثاً هامدة ، وذلك لكفرهم وقولهم : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت ١٥/٤١] ؟!

ب ـ الصيحة : وأرسل الله على قوم ثمود الصيحة (أو الرجفة) حين أصروا على كفرهم فلم يؤمنوا ، واستمروا على طغيانهم ، وهددوا نبي الله صالحاً عليه السلام ومن آمن معه وتوعدهم بالإخراج والرجم ، فجاءتهم صيحة أخمدت أصواتهم وحركاتهم ، ومثلهم أهل مدين .

ج ـ الخسف : عاقب الله قارون الذي طغى وبغى ، وعتا وعصا الرب الأعلى ، وتكبر وتجبر واختال في مشيته ، فخسف به وبداره الأرض ، ليكون عبرة لكل عاتٍ جبار .

د ـ الإغراق : أغرق الله قوم نوح بالطوفان لكفرهم وعبادتهم الأصنام ، كما أغرق فرعون وهامان وجنودهما في صبيحة يوم واحد ، فلم ينج منهم أحد .

وكل عقوبة مما ذكر كانت جزاء وفاقاً على ظلمهم وآثامهم ، وليس ظلماً لهم ، كما قال تعالى :

﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون ﴾ أي وما كان ينبغي لله أن يظلمهم أبداً فيما فعل بهم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وبظلمهم أنفسهم وكفرهم بالله ربهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

هناك سبب مشترك في عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم وهو الكفر بالله كفر تحدٍ وعنادٍ ، مع الإفساد في الأرض بالمعاصي الكبائر .

فقوم مدين : رفضوا دعوة نبيهم شعيب عليه السلام الذي قال لهم : الله تعالى واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا تقربوه ، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم به .

فعاقبهم الله كما ذكر هنا وفي الأعراف بالرجفة ، وفي هود بالصيحة ، والأمر واحد ، فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، أي زلزلة الأرض ، إما بسبب صيحة جبريل ، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي ارتجفت منها ، ولما كانت الصيحة عظيمة أحدثت الزلزلة في الأرض ، فأصبحوا جاثمين ميتين في ديارهم .

وقبيلتا عاد وثمود : أهلكهما الله تعالى بظلمهم ، أما عاد قوم هود عليه السلام فقالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت ١٥/٤١] ؟ فأنكروا وجود الإله الخالق القادر ، وعتوا وبغوا وتعالوا على الناس ، فدمر الله ديارهم بمن فيها ﴿ بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ [الحاقة ٦/٦٩ ـ ٧] . وأما ثمود قوم صالح فكذبوا رسولهم وأعلنوا كفرهم وهددوا نبيهم بالطرد والإخراج من بلدهم ، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم معجزة لنبيهم صالح ، وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو الزلزلة أو الطاغية ، وبقيت آثار ثمود وعاد بالحِجْر والأحقاف شاهدة على ظلمهم ، وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين .

ورؤوس الطغيان والبغي في مصر : قارون وفرعون وهامان ، استكبروا في الأرض ، وظنوا أن الله غير قادر عليهم ، فخسف الله بقارون وبداره الأرض ، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما في البحر .

ولم يكن العقاب بالهلاك ظلماً ، فكل فئة أخذت بجريرة ذنبها العظيم ، وما كان الله ليظلمهم ؛ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر ، وإنما ظلموا أنفسهم .

تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

الإعراب :

﴿ كمثل العنكبوت ﴾ الكاف : في موضع رفع ؛ لأنها خبر المبتدأ : ﴿ مثل الذين اتخذوا ﴾ .

﴿ إن الله يعلم ما يدعون .. ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما بمعنى « الذي » في موضع نصب بـ ﴿ يعلم ﴾ وتقديره : إن الله يعلم الذين يدعون من دونه من شيء ، فحذف العائد تخفيفاً . وإما أن تكون استفهامية في موضع نصب بـ ﴿ يدعون ﴾ وتقديره : أي شيء تدعون من دونه ، وهو قول الخليل وسيبويه .

البلاغة :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه

الكفار في عبادتهم الأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيف النسج قابلاً للاختراق والزوال بنفخة هواء . والتشبيه التمثلي : هو ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد .

المفردات اللغوية :

﴿ مَثَل ﴾ المثل : الصفة التي تشبه المثل في الغرابة . ﴿ أولياء ﴾ أصناماً يرجون نفعها . ﴿ العنكبوت ﴾ حشرة معروفة . ﴿ اتخذت بيتاً ﴾ لنفسها تأوي إليه مما نسجته من شبكة واهنة ضعيفة . ﴿ أوهن ﴾ أضعف البيوت ، لا يدفع عنها حراً ولا برداً ، كذلك الأصنام لا تنفع عابديها . ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ذلك ما عبدوها .

﴿ إن الله يعلم ما يدعون ﴾ على إضمار القول ، أي قل للكفرة : إن الله يعلم الذي يعبدون ، والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل . ﴿ من دونه ﴾ غيره . ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ الغالب القوي في ملكه ، الحكيم في صنعه ، وهو تعليل لما سبق ، فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدّ شيئاً بمن هذا شأنه ، فالجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء ، البالغ النهاية في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم .

﴿ وتلك الأمثال ﴾ يعني هذا المثل ونظائره . ﴿ نضربها للناس ﴾ نجعلها مثلاً تقريباً لأفهامهم . ﴿ وما يعقلها ﴾ يفهمها . ﴿ إلا العالمون ﴾ المتدبرون الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم : من عقل عن الله ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أنه أهلك من أشرك بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، دون أن ينفعه معبوده في الدارين ، شبّه حال هذا المشرك الذي اتخذ معبوداً دون الله بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً لا يحميها من الأذى ، ولا يمنع عنها الحر أو البرد .

ثم أكد ذلك فأوضح أن ما يدعونه ليس بشيء ، فكيف يعبد وتترك عبادة الله القادر القاهر الحكيم المتقن ؟ ثم لفت النظر إلى فائدة ضرب الأمثال وهي التقريب للأفهام وإدراك العقلاء لمغزاها .

التفسير والبيان :

﴿ مَثَل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ أي صفة المشركين في اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله ، طمعاً في نصرهم ورزقهم ونفعهم ، والتمسك بهم في الشدائد ، كصفة العنكبوت في ضعفها اتخذت لنفسها بيتاً يقيها الأذى والحر والبرد ، فلم يفدها شيئاً ، وإذا هبت ريح يصير هباء منثوراً .

فكذلك هؤلاء المشركون لاتفيدهم أصنامهم ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، ولا تجديهم شيئاً ، وتصبح أعمالهم للأوثان مبددة ذاهبة الأثر ، كما قال تعالى : ﴿ وقَدِمْنَا إلى ماعَمِلوا من عَمَلٍ ، فجَعَلْنَاه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان ٢٣/٢٥] .

ثم بيَّن الله تعالى مدى ضعف هذا البيت ، فقال :

﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون ﴾ أي وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت ؛ لأنه يخرب بأدنى شيء ، ولا يبقى منه أثر ، فكذلك عملهم لاأثر له ، فلو كانوا يعلمون علماً صحيحاً أن أصنامهم وعبادتهم لها لاتنفعهم شيئاً ، مافعلوا ذلك ، إلا أنهم في الواقع في غاية الجهل ، لا يعلمون شيئاً من عواقب الأمور ، فتراهم يظنون بذلك النفع .

ثم أكد الله تعالى كون تلك المعبودات ليست بشيء ، فقال متوعداً عابديها :

﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهو العزيز الحكيم ﴾ أي إن الله يعلم أن الذي يعبدونه من غيره من الأصنام والجن والإنس ليس بشيء ، وهو القوي الغالب القادر على الانتقام ممن كَفَر به ، وأشرك في عبادته معه غيره ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ، يعلم ماهم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم .

ثم أبان تعالى فائدة ضرب الأمثال ، فقال :

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ أي هذا المثل وأشباهه في القرآن الكريم ، يضربها للناس تقريباً لأفهامهم ، وتوضيحاً لما التبس عليهم ، وما يفهمها ويدركها ويتدبر حقيقتها إلا العلماء الأثبات ، المتضلعون في العلم ، المتأملون في القضايا والمسائل .

روى جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ، فقال : « العالم من عقل عن الله تعالى ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه » .

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن عبادة الأصنام والأوثان فارغة المحتوى ، لا مضمون فيها ، ولا هدف لها ، وما مثلها في عدم النفع إلا كمثل بيت العنكبوت . قال الفراء : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً .

٢ ـ شبَّه الله تعالى حال عبدة الأوثان بحال العنكبوت التي تتخذ أضعف البيوت ، ولو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً ، وأن هذا مثلهم أو صفتهم ، لَمَا عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . أما قتل العنكبوت فروي عن سيدنا علي جوازه قائلاً : إن تركه في البيوت يورث الفقر . وهذا صحيح لأن العناكب من الحشرات السامة .

٣ ـ إن الله يعلم ضعف كل ما يعبدون من دونه من ملائكة وكواكب وأصنام وجن وإنس ، فرثى لحالهم ، وعجب من صنعهم ، فنبههم على سطحية تفكيرهم ، وسوء اعتقادهم ، وأن جميع تلك المعبودات مثل بيت العنكبوت ؛ لأن كل ما عدا

الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله ، فلا معبود بحق إلا الله ، ولا إله سواه .

٤ ـ إن ضرب الأمثال أي بيانها وعقد المقارنة بين المتشابهات أمر مفيد للناس ، لمعرفة حقائق الأمور ، ولكن لا يفهم تلك الأمثال إلا العالمون بالله تعالى .

قال أبو حيان : وكان جهلة قريش يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، وما علموا أن الأمثال والتشبيهات طرق إلى المعاني المحتجبة ، فتبرزها وتصورها للفهم ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد[1]

٥ ـ حقاً إن المشرك في غاية الجهل في الاعتقاد ، لذا كانت هذه الآيات تجهيلاً للمشركين ، حيث عبدوا ما ليس بشيء ؛ لأنه جماد ، لا علم لديه ، ولا قدرة أصلاً عنده ، وتركوا عبادة القادر القاهر ، الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا لحكمة .

أما المسلم المؤمن قلبه بالله فهو واعٍ لما يفعل ، مقدر ما يعبد ، يبغي الخير في عبادته ، ويحسن العمل في اتباع الشرع ؛ لأن فيه نجاته وإنقاذه ، ويصل إلى مبتغاه فعلاً بجلب النفع والخير ، ودفع الضرر والشر .

فائدة خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(١) البحر المحيط ١٥٣/٧

المفردات اللغوية :

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ محقاً غير قاصد به باطلاً ، وقصده بالذات من خلقها إفاضة الخير ، والدلالة على ذاته وصفاته ، كما أشار إليه بقوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ دلالة على قدرته تعالى . ﴿ للمؤمنين ﴾ لأنهم المنتفعون بها في الإيمان ، بخلاف الكافرين .

﴿ اتل ماأوحي إليك من الكتاب ﴾ القرآن ، تقرباً إلى الله بقراءته ، واستكشافاً لمعانيه . ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ بأن تكون سبباً للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها ؛ لأنها تذكر بالله ، وتورث النفس خشية ، أي من شأنها ذلك . والمنكر : القبيح شرعاً وعقلاً . روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات ، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه ، فوصف له ، فقال : « إن صلاته تنهاه » فلم يلبث إلا أن تاب . ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها بالذكر ؛ لاشتمالها على الذكر الذي هو العمدة في تفضيلها على سائر الحسنات ونهيها عن السيئات . ويصح أن يكون المعنى : ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته . ﴿ والله يعلم ماتصنعون ﴾ منه ومن سائر الطاعات ، فيجازيكم به أحسن المجازاة .

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى الناس بالإيمان ، وأبان ضعف دليل الكفار على عبادة معبوداتهم ، لفت النظر إلى من تجب له العبادة وهو الذي لا يعجزه شيء ، وخالق السموات والأرض ، والمرشد بكتابه إلى معالم الحق ، والمبين طريق العبادة المرضية له وهو الصلاة . كما أن في الآيات تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين عن إعراض الكفار واليأس منهم ، بالتأمل في خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن الدال على أن الرسل السابقين كنوح وإبراهيم ولوط بلغوا الرسالة ، وأقاموا الأدلة على الإيمان بالله تعالى ، ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة .

التفسير والبيان :

﴿ خلق اللهُ السموات والأرض بالحق ، إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي إن الله تعالى أوجد وأبدع السموات والأرض للدلالة على قدرته العظيمة ، وإفاضة الخير ، ولِحكَم وفوائد دينية ودنيوية ، فقد خلقهما محقاً غير قاصد الباطل ، ولم

يخلقها عبثاً ولهواً ولعباً ، وفي ذلك دلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، كما جاء في رواية عن الله عز وجل : « كنتُ كنزاً مخفياً ، فأردتُ أن أُعرف ، فخَلَقْتُ الخَلْق ، فبي عرفوني » إلا أنه لم يصح حديثاً ، ومعناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات ٥٦/٥١] .

ولا ينتفع بتلك الدلالات ولا يفهم هذه الأسرار إلا المؤمنون المصدقون بالله ورسوله ؛ لأنهم يستدلون بآثار الخلق على وجود المؤثر فيها .

ثم أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس للاستزادة من المعرفة الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته فقال :

﴿ اتل ماأُوحي إليك من الكتاب ﴾ أي اقرأ يامحمد ومثلك كل مسلم ، وأدم تلاوة هذا القرآن وتبليغه للناس ، فإنه إمام ونور ، وهدى ورحمة ، ودليل خير ونجاة ، وعلاج ماستعصى من الأزمات والمحن ، وتخطي مراحل اليأس والقنوط .

كذلك أمر تعالى بالصلاة قرة عين المؤمن فقال :

﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ أي وأدّ أيها النبي وكل مؤمن فريضة الصلاة ونافلتها تامة الأركان والشروط ، مع الخشوع والخضوع لله ، واستحضار خشية الله في جميع مراحلها ، فهي تشتمل بمواظبتها على شيئين : ترك الفواحش والمنكرات ، وهي عماد الدين ، وصلة بين العبد وربه ، ودليل الإيمان واليقين ، وفرجة المكروب والمحزون ، وسبب لتطهير العبد من آثار الذنوب والمعاصي . جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وغيره من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بُعْداً » وروى أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « حُبِّب إلي من دنياكم النساء ، والطيب ، وجُعلت قرة عيني في الصلاة » .

وكل ذلك مشروط بأدائها بخشوع وخضوع وإخلاص كما ذكر ، حتى تكون ذات مدلول وروح ، وذات إشعاع تملأ النفس استحضاراً لعظمة الله والخوف منه ، وإلا كانت مجرد حركات وأفعال مادية فاقدة الأثر المقصود منها . ثم أكد تعالى رفعة شأن الصلاة فقال : ﴿ ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ماتصنعون ﴾ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وذكر الله وتفقده الناس العابدين برحمته أكبر من ذكرهم إياه بطاعته ، والله عليم بما تصنعون من خير أو شر ، وعليم بذات الصدور ، يعلم جميع أقوالكم وأفعالكم ونياتكم : ﴿ فإنه يعلم السرَّ وأخفى ﴾ [طه ٧/٢٠] وفي ذلك وعد ووعيد ، وحث على مراقبة الله في كل الأحوال ، فمن يعلم أن الله يسمعه ويراه ، لزم الحياء ، وخشي العذاب ، وأحسن العبادة . ومن أتى بالذكر النافع وهو الحاصل عن علم وتأمل ووعي قلب وتفرغ نفس مما سوى الله ، نال المراد ، وحقق المبتغى ، وأما ما كان مجرد لقلقة باللسان ، دون استحضار لعظمة الله وخشوع معه ، فلا خير فيه ولا نفع .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ خلق الله السموات والأرض على وجه الإحكام والإتقان والعدل والقسط ، ولأهداف وغايات دينية ودنيوية ، منها أن الإنسان يستدل بها على وجود الخالق القادر الكامل الشامل العلم ، الذي لا يعزُب عن علمه أجزاء الموجودات فيها ، ولا يعجزه شيء فيها .

٢ ـ إن المستفيد من خلق السموات والأرض هو الإنسان ، ولا ينتفع في دلالتها على الاعتقاد بوجود الخالق الواحد إلا المصدقون بالله ورسوله .

٣ ـ على المسلم مواظبة التلاوة لآي القرآن ، وتبليغ أحكامها المستفادة منها ، فإن القرآن كتاب هداية ، ودستور حياة فاضلة .

٤ ـ على المؤمن أيضاً استدامة إقامة الصلاة : وهو أداؤها في وقتها بقراءتها ، وركوعها وسجودها ، وقعودها ، وتشهدها ، وجميع شروطها .

٥ ـ إن الصلوات الخمس لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة تنهى عن الفواحش والمنكرات ، وتكفّر ما بينها من الذنوب إذا أديت بحقها وكانت مع استحضار عظمة الله وبأسه ، أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نَهَراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات ، هل يَبْقَى من دَرَنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من دَرَنه شيء ، قال : فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ ، يمحو الله بهن الخطايا » .

وروى أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، فذُكِر للنبي ﷺ ، فقال : « إن الصلاة ستنهاه » فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم أقل لكم ؟ » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويؤكده الحديث المتقدم الذي رواه الطبراني وغيره : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعْداً ، ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً » .

قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله : القرآن يأمره وينهاه .

٦ ـ دل قوله تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ على أن الصلاة أكبر من سائر الطاعات وأفضل من كل العبادات ، وأن ذكر الله لعباده بالثواب والثناء عليهم ورحمته إياهم أكبر من ذكرهم له في عبادتهم وصلواتهم ، وكذلك أن تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ينبغي أن يكون الإتيان بها على أبلغ وجوه التعظيم .

روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال في قول الله عز وجل : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ : « ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه » . وفي حديث آخر : « من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم »[1] .

٧ ـ الذكر النافع : هو الذي يكون مع العلم ، وإقبال القلب ، وتفرغه ، إلا من الله ، وأما مالا يتجاوز اللسان فله رتبة أخرى .

وذكر الله تعالى للعبد : هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه ، قال الله عز وجل : ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة ١٥٢/٢] .

٨ ـ إن قوله تعالى : ﴿ والله يعلم ماتصنعون ﴾ نوع من الوعد والوعيد ، وحث على مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن .

آمنت بالله تعالى

انتهى الجزء العشرون

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) روى الطبراني عن معاذ بن أنس حديثاً بلفظ : « لايذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الملأ الأعلى » .

فهرس

الجزء العشرين

الموضوع	الصفحة
تتمة قصة لوط عليه السلام	٥
أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية	٧
لا يعلم الغيب إلا الله	١٨
إنكار المشركين البعث	٢١
إثبات نبوة محمد ﷺ بالقرآن الكريم	٢٧
من أمارات القيامة ومقدماتها	٣٣
١ ـ إخراج دابة الأرض وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله أمام ربهم	٣٣
٢ ـ النفخ في الصور وتسيير الجبال	٣٩
الاشتغال بعبادة الله وحمده وتلاوة القرآن	٤٦
سورة القصص :	٥١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥١
ما اشتملت عليه السورة	٥٢
قصة موسى عليه السلام	٥٤
١ ـ نصرة المستضعفين	٥٤
٢ ـ إلقاء موسى في اليم بعد ولادته وإرضاعه والبشارة بنبوته	٦٠
٣ ـ قتل المصري خطأ وخروجه من مصر	٧١
٤ ـ ذهاب موسى عليه السلام إلى أرض مدين وزواجه بابنة شعيب عليه السلام	٧٩

الموضوع	الصفحة
٥ـ عودة موسى عليه السلام إلى مصر ونبوته	٩٣
٦ـ نبوة هارون وتكذيب فرعون	١٠٠
٧ـ محاجة فرعون في ربوبية الله تعالى وعاقبة عناده مع قومه	١٠٥
تكذيب أهل مكة بالقرآن وبرسالة النبي ﷺ	١١٧
إيمان طوائف من أهل الكتاب بالقرآن	١٢٣
الرد على شبهات المشركين .	١٢٩
تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة	١٤٠
صاحب الحق المطلق في الاختيار المستحق للحمد والعبادة	١٤٧
أدلة العظمة والسلطان الإلهي وتأكيد تقريع المشركين	١٥٢
قصة قارون	١٥٧
١ـ بغيه على قوم موسى واغتراره بماله	١٥٧
أضواء من التاريخ على قصة قارون	١٥٩
٢ـ بعض مظاهر بغي قارون وكبريائه	١٦٤
٣ـ محل الجزاء ومقداره والعبرة من قصة هارون	١٧٠
قصص النبي ﷺ وأصحابه مع قومه	١٧٣
سورة العنكبوت :	١٨١
تسميتها وموضوعها ومناسبتها لما قبلها	١٨١
مشتملات السورة	١٨٣
اختبار الناس وجزاؤهم	١٨٤
صلابة المكلفين ومظاهر فتنة المؤمنين وتهديد الكافرين والمنافقين	١٩٧
قصة نوح عليه السلام مع قومه	٢٠٧
قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه	٢١١
١ـ الأدلة على الأصول الثلاثة ـ الوحدانية والرسالة والبعث	٢١١

الموضوع	الصفحة
٢ ـ جواب قوم إبراهيم له وإيمان لوط به وتعداد النعم عليه	٢٢٠
قصة لوط عليه السلام مع قومه	٢٢٨
قصص شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام مع أقوامهم	٢٣٥
قصة شعيب	٢٣٨
قصة هود وصالح	٢٣٨
قصة موسى	٢٣٩
أنواع عقوبات الأقوام المكذبين	٢٤٠
تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت	٢٤٢
فائدة خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة	٢٤٦

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى